السنة الرابعة (ربيع الآخر سنة ١٣٥٦هـ - يونيه سنة ١٩٣٧م) العدد الأول

صحيفة دار العلوم

ص ا ح ع ١٩٣٤

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

تصدرها جماعة دار العلوم

كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» في جميع مدارسها

المدير	رئيس التحرير
محمد نجيب حتاتة	محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشا
خارج القطر	٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد	٥ قروش

المطبعة الرحمانية بمصر

مقدمة

بهذا العدد تبدأ صحيفة دار العلوم سنتها الرابعة ، سائرة على نهجها ، ماضية على سنتها ، مؤمنة برسالتها التى لها أنشئت ولها تجاهد ، وفية بالعهد الذى أخذته على نفسها من أول يوم : أن تكون لسان الأدب الصحيح ، ومجال الرأى الصريح ، ومعرض الفكر الناضج ؛ وأن تكون اللسان الناطق لأبناء دار العلوم عامة ، تعبر عن أغراضهم ، وتكشف عن مواهبهم ، وتبلغ رسالتهم إلى الشرق والغرب .

وإنه ليسر الصحيفة وقراءها أن يكون ماضيها المنشور فى صحائف سنواتها الثلاث ، شاهداً بما بذلت من جهد وما تسعى إليه من غاية ، معبراً أبلغ التعبير عما بلغت من نجاح فى سبيل الغرض الذى عاهدت قراءها عليه .

ومما يضاعف سرورنا أن نرى صحيفتنا — على حداثة عهدها — تشق طريقها فى مضاء وعزم إلى مختلف المجامع الأدبية فى الشرق والغرب ، وأن تنال حقها من التقدير فى كل البيئات الأدبية التى تعنى بالعربية : من أدباء العرب فى فلسطين وسوريا والعراق وبلاد المغرب ، ومن علماء المستشرقين فى أوربا وجامعاتها العلمية . وهذه ترجمة رسالة من الاستاذ ادوارد روبرت سون أستاذ اللغات السامية بجامعة منشستر تعبر عن رأيه فى صحيفة دار العلوم :

« حضرة المحترم مدير صحيفة دار العلوم :

« سيدى العزيز

« وصلتنا مجموعة « صحيفة دار العلوم » التى تفضلت جماعتكم بإهدائها إلى قسم دراسة اللغات الشرقية على يد الأستاذ مهدى علام ؛ وإنى أود أن أشكركم شخصياً وأشكر أعضاء الجماعة على هذه الهدية النفيسة لمعهدنا ، وإنى لشديد الإعجاب بما وصلت إليه صحيفتكم ، وبالمستوى الأدبى والعلمى الذى تحافظ عليه ، وأرجو الله أن تستمر ماضية فى خطاها إلى الكمال .

« ويسرنى كذلك أن أعبر لكم عن عظيم سرورى لمزاملة الأستاذ علام لنا فى معهدنا ، وإننا لنعرف له مكانته ونقدر خدماته أجل تقدير .

« وإنى أكرر شكرى . وأرجو أن تتفضلوا بقبول تحيتى الخالصة »

***

على أن ما بلغناه من نجاح لا يعفينا من تجديد العهد لقرائنا وأصدقائنا فى الشرق والغرب ، على أن نضاعف الجهد للوصول بالصحيفة فوق ما وصلت إليه ، دائبين على العمل لرفع مستواها الأدبى والعلمى ، حراصا على أن تكون صحيفة دار العلوم هى عنوان دار العلوم التى تعمل منذ نيف وستين عاماً على إحياء العربية وتجديد آدابها .

***

وإنه لما يدعونا إلى التفاؤل والاستبشار ، أن نبدأ عامنا الجديد ومصر فى أول عهدها السعيد ، متفائلة مستبشرة بما حطت عن كاهلها من قيود كانت تحد من سلطانها التشريعى وتحرمها أن تحيا الحياة الصحيحة . وأن يكون على عرش مصر مليكها الشاب المحبوب فاروق الأول ، الذى تتطلع الأمة كلها فرحة إلى اليوم السعيد الذى يبلغ فيه جلالته سن الرشد ويضع على رأسه التاج المجيد

وإذ كان تتويج جلالته سيكون فى الشهر الآتى فاننا نستعجل البشرى فنهنىء مصر بجلالة مليكها العظيم ، ونهنىء جلالته بمحبة هذا الشعب الذى اجتمع قلباً واحداً على تمجيده والولاء له .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نهنىء حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا وزملاءه أعضاء الوفد الرسمى على ما أحرزوا فى مؤتمر الامتيازات من نجاح سيكتب لهم فى التاريخ بمداد الخلود .

***

ولقد انتهت السنة الثالثة من الصحيفة وهناك أمر ذو بال يهم كل المشتغلين بالأدب العربى وبالثقافة العربية فى هذا البلد ، ذلك هو منهج الأدب العربى للسنة التوجيهية فى المدارس الثانوية .

لقد كان للسنة التوجيهية منهج فى الأدب اشترك فى وضعه عميد كلية الآداب بالجامعة مع حضرات مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف ، ولقد عالجت

صحيفة دار العلوم أكثر موضوعات هذا المنهج فى العدد الرابع من السنة الثالثة وفى هذا العدد ؛ وهى ماضية فى الكتابة عن بقية المنهج فى العدد القادم ، وفاء بعهدها لقرائها ، وعوناً للمعلمين على أداء واجبهم . ولكن فكرة ما خطرت فجأة فى رأس صاحب العزة عميد كلية الآداب ، فإذا هو يتقدم بمشروع جديد إلى وزارة المعارف لتعديل منهج الأدب فى السنة التوجيهية ، تعديلا لا نريد أن نكشف عن الدافع إليه ، وحسب القراء أن يقرءوه فيما يلى فيفهموا منه مالا نريد أن نقول .

كان فى هذا العمل معان لم تخف على أبناء دار العلوم ، فاجتمعوا على رأى واحد رفعوه إلى وزارة المعارف يأخذون فيه مآخذهم على هذا المنهج المقترح ، وسننشر فيما يلى ذلك المنهج ورد جماعة دار العلوم عليه . ويقيننا أن وزارة المعارف ستقدر هذه الملاحظات الصائبة التى أبداها أبناء دار العلوم فى منهج الدكتور طه حسين بك .



السنة التوجيهية

القسم الأدبى

منهج الأدب

الأدب بمعناه الخاص وهو الجيد من منظوم الكلام ومنثوره . الأدب بمعناه العام وهو الإنتاج العقلى على اختلاف أنواعه . المؤثرات العامة التى تعمل فى نشأة الأدب ورقيه وانحطاطه ـ تقسيم الأدب إلى إنشائى ووصفى . تقسيم الأدب الإنشائى إلى شعر ونثر . تقسيم الأدب الوصفى إلى نقد وتاريخ أدبى .

النثر وأنواعه

الكتابة الفنية وأنواعها : نشأتها والمؤثرات التى تعمل فى رقيها وانحطاطها . الخطابة : دواعيها . نشأتها والمؤثرات التى تعمل فى رقيها وانحطاطها . أنواع الخطابة : الخطابة السياسية . الخطابة القضائية . خطابة المحافل والمشاهد العامة وخصائص كل . أجزاء الخطبة : الابتداء . الموضوع . الخاتمة ، وما ينبغى لكل .

الخطابة كما يتصورها اليونان والرومان . الخطابة كما يتصورها العرب . الخطابة كما يتصورها المحدثون ، وتمثيل ببعض الخطباء البارعين فى هذه الأمم .

التاريخ : من حيث هو فن من فنون الأدب . وقفة عند أشهر المؤرخين ـ هيرودوت ـ تيوسيديد (من اليونان) ؛ تتليف ـ تاسيت (من الرومان) ؛ الطبرى ـ ابن خلدون (من العرب) ؛ اثنان من المؤرخين الاوربيين يجوز أن يتغيرا من عام إلى عام

فلسفة التاريخ : كيف تصورها قدماء اليونان والرومان . كيف تصورها العرب . كيف يتصورها المحدثون من الأوربيين .

الفلسفة : من حيث هى مظهر من مظاهر الحياة الأدبية ، ومن حيث تأثيرها فى تنظيم الفكر وضبط التعبير الأدبى . سقراط . أفلاطون

أثر علم الكلام الإسلامى فى الأدب العربى . تمثيل ببعض البارعين من المتكلمين المسلمين كبشر بن المعتمر والنظام والجاحظ وابن أبى دؤاد ويحيى بن أكثم وثمامة بن أشرس

بعض فلاسفة الغرب الذين أثروا فى آداب لغتهم تأثيراً عميقاً كديكارت وفلتير وليبنتز واستوارت ميل وسبنسر

الشعر : تعريفه . نشأته . المؤثرات التى تعمل فى رقيه وانحطاطه

أنواعه : — (ا) الشعر القصصى : خصائصه . هوميروس وآثاره

(ب) الشعر الغنائى : خصائصه وتمثيل ببعض البارزين فيه من القدماء والمحدثين

(ج) الشعر التمثيلى : وتمثيل ببعض الشعراء البارزين فيه من القدماء والمحدثين: سوفكل (من اليونان) ، شكسبير (من الانجليز) - أحد الشعراء التمثيليين الثلاثة الفرنسيين . كرنى . راسين . موليير . تقسيم التمثيل إلى التراجيديا (التمثيل المحزن) والكوميديا (التمثيل المضحك) وخصائص كل منهما . خروج التمثيل عن الشعر إلى النثر وأسبابه - التمثيل الغنائى

١ — الآداب الأجنبية الكبرى التى اتصلت بالأدب العربى فتأثرت به أو أثرت فيه وكيف كان هذا الاتصال

(ا) الأدب اليونانى (ب) الأدب الفارسى (ج) الأدب الهندى

صلات هذه الآداب بالأدب العربى القديم فى العصر العباسى

٢ — تأثير الآداب العربية فى آداب الفرس المسلمين من جهة ، وفى الغرب الأوربى أثناء القرون الوسطى من جهة أخرى . أدلة واضحة على هذا التأثير

الآداب الأجنبية الحديثة الكبرى التى اتصلت بالأدب العربى فتأثرت به أو أثرت فيه .

أمثلة واضحة لتأثر الآداب الأجنبية بالأدب العربى فى العصر الحديث

كيف اتصل الأدب العربى بكبار الأدباء الأوربيين المحدثين وأثر فى أدبهم شعراً ونثراً

كيف اتصل الأدب الأوربى بأدباء العرب المحدثين وأثر فى أدبهم شعراً ونثراً .

أمثلة واضحة صريحة لهذا كله . اه

رد جماعة دار العلوم

حضرة صاحب المعالى وزير المعارف :

تتشرف جماعة دار العلوم ، باعتبارها الهيئة الممثلة للمعلمين القائمين بتدريس اللغة العربية وآدابها ، فى جميع المدارس المصرية على اختلاف أنواعها ، برفع ملاحظاتها الفنية ، على الاقتراح المقدم من حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب ، بشأن تعديل المنهج الخاص بالأدب العربى وتاريخه فى السنة التوجيهية ، التى كان حضرته أحد المشتركين فى وضع مناهجها والموافقة عليها ، متقدمين بهذا التمهيد الذى جعلناه أساساً لما نبديه من الملاحظات فيما يأتى :

أولا ــ اتفق المربون فى مصر وفى غيرها من بلدان العالم الراقية على تقسيم التعليم النظامى إلى مراحل ثلاث :

(ا) التعليم الابتدائى . (ب) التعليم الثانوى (ج) التعليم العالى

وهذا التقسيم يرمى إلى غرضين أساسيين تدعو إليهما حاجة المجتمع : أولهما تخصيص كل مرحلة من المراحل بنصيب من المعارف والتهذيب يلائم عقول المتعلمين وقواهم الذهنية ، ويؤهلهم لمزاولة الأعمال العامة على قدر استعدادهم وثقافتهم ، وثانيهما أن تكون كل مرحلة أساساً للتى تليها وتمهيداً صحيحاً لها ، ليسهل على الطلاب التحصيل والاستفادة فى كل مراحل التعليم .

وإن نظام السنة التوجيهية الملحقة بمرحلة التعليم الثانوى شاهد بطبيعته على وجود ثغرة بين المرحلتين الثانية والثالثة تقوم هذه السنة التوجيهية بسدادها على أنها تكميل لمرحلة التعليم الثانوى ، كما نصت على ذلك المذكرة التفسيرية لخطة الدراسة الثانوية ومناهجها (ص ٥٧)

ثانياً ــ واتفق المربون أيضاً على أن دائرة المعارف الانسانية ترجع فى جملتها إلى الدين والعلم والأدب والفلسفة ، وأن كل نوع من هذه الأنواع قد تحدد الآن موضوعه وطرق البحث فيه فلم يعد يقبل فى دائرة حدوده أى دخيل ، فما لم يكن من الفلسفة مثلا لا يذكر فى تاريخها العام ولا يحشر فى نوع منها ولا فى مذهب من مذاهبها ، وكذلك أدب اللغة الواحدة سواء أكان عاما أم خاصا لا يرضيه أن يتسرب إليه أى مزاحم فى أبوابه وفصوله ، وإن كان الأدب العام منه يتعرض لوصف الحياة العقلية العامة ، ولكن ذلك بمقدار لا تتغلب فيه هذه الدراسة على شىء من الأدب الخاص ، وهذا واضح الدلالة على أن المعارف الانسانية قد رتبت وعين اختصاص كل منها فى البحث والتبويب والوضع والتعليم والتعلم ، وهى فى مجموعها وفى كل ما يسديه بعضها إلى بعض من المعونة عبارة عن الثقافة الانسانية العامة المنتظمة المهذبة .

وعلى ضوء هذا البيان السابق ترى الجماعة أن المنهج المقترح غير محقق للصلة بين المرحلتين ، ولا يجوز أن يكون فى جملته موضوعا دراسياً فى السنة التوجيهية ، لما يأتى :

أولا ــ يقول الاقتراح عند الكلام على التاريخ وأنه فن من فنون الأدب : وقفة عند أشهر المؤرخين ـ هيرودوت وتيوسديد من اليونان ـ تتلف ـ تسيت من الرومان . ثم أضاف إلى ذلك دراسة اثنين من المؤرخين الاوربيين يجوز أن يتغيرا من عام إلى عام . وقد بحثت الجماعة فى هذه الفترة وأدارت عليها وجوه الرأى لالتماس أية علاقة بين الأدب العربى وتاريخه وبين مؤرخ للتاريخ العام كهيرودوت الذى كتب

تاريخه فى القرن الخامس قبل الميلاد، أى قبل أن يعرف الأدب العربى وتاريخه بقرون طويلة؛ وإن اقحام هؤلاء المؤرخين للتاريخ العام على هذا النظام من الكثرة والتكرار فى تاريخ الأدب العربى يعد مناقضة ظاهرة للنظرية القائلة بتعيين اختصاصات العلوم وتحديد موضوعاتها وعدم تسليم العلماء بصحة الخلط بين مباحث هذه العلوم.

ثانياً — ذكر الاقتراح الفلسفة وأنها من مظاهر الحياة الأدبية، ورتب على ذلك دراسة سقراط وأفلاطون من قدماء فلاسفة اليونان؛ ولو كان كل ما يعد مظهراً من مظاهر الحياة الأدبية، يجب دراسته فى تاريخ الأدب العربى، ما بقى شىء من علم ولا فن ولا صناعة لا يتعرض له تاريخ الأدب العربى ويترجم للمشهورين من رجاله، على أن سقراط وأفلاطون يدرسان بتوسع فى المنهج الخاص بالفلسفة وتاريخها، فما الداعى إلى حشره فى منهج الأدب العربى مرة أخرى.

ثالثا — ذكر أثر علم الكلام الاسلامى فى الأدب العربى، وساق طائفة من أسماء علماء الكلام كلهم من المعتزلة. ودراسة هؤلاء الرجال ستفضى إلى بيان مذاهبهم فى الخلاف على أهل السنة وهم جمهرة المسلمين، ومن شأن هذه الدراسة أن تفتح الباب للشبهات وذكر ما استحدثه المعتزلة من أنواع البدع فى الاسلام. ومواجهة هذه العقول الغضة بأمثال تلك الشبهات يعد إفساداً لروح الدين وتوهينا لقوة العقيدة فى نفوس نشأ البلاد الذين هم فى أشد الحاجة إلى الايمان الراسخ واليقين الثابت، ويجب إبعادهم عن مثار تلك الشبهات وتقريبهم من تعاليم الاسلام الصحيحة بدراسة طائفة من رجال أهل السنة وأعلام علماء الكلام من السلف الصالح، وذلك هو أقوى أساس تبنى عليه حياة الشعوب القائمة على عزة الدين وكرامة الاعتماد على النفس؛ ومما يوجب الأسف والدهش أن يعنى المنهاج المقترح بدراسة المعتزلة فى تاريخ الأدب العربى دون غيرهم. وفى ذلك ما قد يلقى فى شعور الطلبة الميل إلى مذاهب المعتزلة دون غيرها من مذاهب علماء الكلام. وقديما قال أهل السنة وهم كثرة المسلمين وجمهرة علماء الكلام الاسلامى فى المعتزلة: إنهم مارقون يظهرون العقائد الفلسفية فى لباس من الجدل فى الكلام

وفى هذه الفقرة نفسها ذكر جماعة من فلاسفة الأوربيين الذين أثروا فى آداب لغاتهم تأثيراً عميقا كديكارت وفولتير وليبنتز واستوارت مل وسبنسر ويلاحظ أن ديكارت وليبنتز ذكرا أيضاً فى المنهج الخاص بالفلسفة. وظاهر مما زعمه من وصف أولئك الأسماء بتأثير أصحابها العميق فى آداب لغاتهم أن التلاميذ فى السنة التوجيهية بل والسنة التى تليها لا يستطيعون أن يتحملوا هذا القسط العنيف من الدراسة العميقة لهؤلاء

الفلاسفة . وما الذى يبقى للتعليم الجامعى أو للثقافة العليا بعد دراسته تلك الأعلام فى السنة التوجيهية على هذا النمط من التعمق والبحث ؟

رابعا ـ فى منهج الشعر التعريف بهوميروس وآثاره وسوفوكل اليونانى ، وشاكسبير الشاعر الانجليزى ، وكورنى وراسين وموليير الفرنسيين ، وغيرهم من شعراء التراجيديا والكوميدى ، وهل يكون يسيراً على عقلية التلاميذ فى التعليم الثانوى وفى هذه السن بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة على الأكثر أن يهضموا هذه المعلومات الواسعة عن أولئك الشعراء الأجانب الذين يعدون رءوس طبقاتهم وفحول الأدب فى عصورهم ؟ وإذا كان للأدب العربى أن يتجاوز حدوده ويتناول ماليس منه مما ذكرنا فماذا بقى لمدرسى الآداب الانجليزية والفرنسية وغيرهم من أساتذة التاريخ العام والفلسفة ؟

خامسا ـ (ا) الآداب الأجنبية الكبرى التى اتصلت بالأدب العربى كالأدب اليونانى والأدب الفارسى والأدب الهندى وكيف أثرت هذه الآداب المختلفة فى الأدب العربى

(ب) الآداب الأجنبية الكبرى الحديثة التى اتصلت بالأدب العربى فى العصر الحديث ، وذلك بالضرورة يشمل آداب اللغة الفرنسية والانجليزية والألمانية والايطالية والأمريكية والهندية والفارسية والتركية الحديثة

وفى هذه الفقرة يطلب أيضا صلة الأدب العربى بكبار الأدباء المحدثين من العرب وتأثيره فى أدبهم شعرا ونثرا ، وإذا كان الطالب فى السنة التوجيهية وفى هذه السن وعلى هذا المقدار من التحصيل فى اللغة العربية فى مرحلة الثقافة العامة يكلف دراسة هذه الكثرة من شعراء الأجانب وهذه الآداب الحديثة والقديمة للأمم المختلفة فى منهج تاريخ الأدب العربى ، فماذا يدرس المتخصصون فى هذه الناحية من الثقافة ؟ وماذا يصنع المتصدرون للزعامة الأدبية والذين يريدون أن يكونوا أئمة فى النقد والموازنة ؟ وما الذى تصنعه بعد ذلك كلية الآداب أو غيرها لتمام هذه الثقافة الشاذة ؟

وإنه ليحق لنا ولكل من يطلع على هذا الاقتراح الغريب أن يتساءل : هل منهاج الأدب العربى فى السنوات الأربع السابقة للسنة التوجيهية من التعليم الثانوى ـ وقد اشترك فى وضعه صاحب الاقتراح ـ يعد التلميذ لاحتمال هذه الدراسة ؟ وألا يكون التلميذ موجها توجيهاً صحيحا للدراسة العالية بغير هذا النوع المسرف من التحصيل لآداب الأمم المختلفة وتواريخ كتابها وشعرائها وفلاسفتها ؟ وهل التلميذ الأوربى فى هذه الدراسة الثانوية وفى تلك السن المتراوحة بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة يكلف فى

دراسته لآداب لغته أن يدرس معها الأدب العربى وتاريخ كتابه وشعرائه وغيرهم من علماء العرب وفلاسفة الاسلام على هذا النحو المقترح ؟ وهل يكلف فوق هذا دراسة آداب اللغات القديمة والحديثة للأمم الأجنبية من الفرس والهنود واليونان والرومان وغيرهم ؟

إننا نترك الاجابة على هذه الأسئلة لاشتمالها فى نفسها على أدلة شذوذها وبطلانها ، وهذا المنهج فى النهاية لا يتفق فى شىء مع المذكرة التفسيرية التى وضع على مقتضاها

سادسا — اقترح العميد حذف قواعد النحو والبلاغة بناء على أن ما أخذ منها فى السنوات الأربع يعد كافيا ، وهذه مناقضة صريحة لما ورد فى المنهاج المعدل ، فقد جاء فيه ما نصه : « وروعى فى القواعد أن يكون المنهج مكملا للتلاميذ ما لم يدرسوه فى مرحلة الثقافة العامة مما لا يليق بأمثالهم أن يجهلوه من قواعد النحو والبلاغة » . وذلك بالضرورة ملحوظ فيه أن تذوق الطالب لجمال الأدب وإدراكه لمواطن الحسن فى التشبيه والاستعارة والفصل والوصل والايجاز والاطناب متوقف على دراسة هذه البقية من القواعد . وإذن يعترف منهاج السنوات الأربع بأنه فى حاجة إلى تكملة القواعد فى السنة التوجيهية .

سابعا — حذف المنهاج المقترح حركة الترجمة والتأليف فى العصر العباسى ، وجاء فى المنهج المعدل بعد كلام فى توجيه قسط من العناية بالخطابة ما نصه :

« كما وجه قسط آخر لتدريس حركة الترجمة والتأليف فى العصر العباسى والعصر الحاضر لبيان سنن أسلافنا الأقدمين فى سلوك سبيل نحن مضطرون إلى سلوكها الآن فى نهضتنا العلمية وخاصة خريجى القسمين الرياضى والعلمى » ، وصاحب الاقتراح كان كما قدمنا عضواً بارزاً فى وضع منهج اللغة العربية لمرحلة الثقافة العامة وللسنة التوجيهية ، وفى موافقته على المنهاج المعدل اعتراف بأنه محقق للغرض من إنشاء هذه السنة التوجيهيه ، بل هو قد شرع فعلا فى الاعداد لتنفيذه باختيار طائفة ممتازة من أساتذة المدارس الثانوية تلقى عليهم محاضرات فى الجامعه نترك الكلام الآن على حظها من النجاح أو الفشل . وقد بادرنا نحن من جانبنا باعداد كل ما ينبغى لدرس هذا المنهاج على أكمل وجه وأتمه ، وتسارع أعضاء الجماعه من أساتذة دار العلوم وغيرهم من إخوانهم فكتبوا فى موضوعات هذا المنهاج ما طبع بعضه فى عدد كامل من صحيفتهم ولا يزال بعض هذه الموضوعات معدا للطبع ، ولا ندرى ما حفز الدكتور مع ذلك إلى هذا الاقتراح بعد ما ظهر له من استعداد أساتذة اللغة العربية من أبناء دار العلوم لمواجهة

هذا المنهاج والتغلب بسهولة على كل ماوضع فيه من شذوذ وتكلف . وهل لذلك علاقة بما جاء فى العبارة الختامية لكلام العميد فى اقتراحه الغريب وهى قوله : « وواضح أن هذا البرنامج قد يعجز أساتذة التعليم الثانوى عندنا كبقية المنهج الأدبى بالسنة التوجيهية . » ثم يعلن ما أخفاه من نيته فى نصيحته بوجوب إصلاح برامج التعليم فى المعاهد التى تخرج أساتذة اللغة العربية بحيث يصبحون قادرين على تعليم هذا النحو من الأدب. فقد بان حينئذ ما حاول العميد أن يخفيه من نياته ، وظهر أن المسألة ليست وضع منهج ولا مصلحة تعليم ولا إعداداً للجامعة ولا لغيرها ، وإنما المسألة كلها دائرة حول أساتذة اللغة العربية فى المدارس الثانوية والتبرع الجرىء بتقدير صلاحيتهم لدراسة الأدب أو عدم صلاحيتهم ، والاستدراج من جراء ذلك إلى الوقوع فى هذا الشذوذ الذى لم يسبق له مثيل فى مناهج التعليم ولا نظير له فى مدارس العالم ، فاننا درسنا مناهج التعليم فى المدارس الثانوية الأوربية ، وأحطنا بما يتأهل به الشاب الأوربى فى هذه المرحلة الثانوية ، فما فى أمريكا ولا فى أوربا ولا فى أى بلد من بلدان الدنيا دراسة أدبية فى مدرسة ثانوية تشتمل على هذه الأشتات الملفقه من مؤرخين وفلاسفة ومتكلمين وعلماء وكتاب وشعراء للعالم القديم والحديث يدرسها طالب فى المنهج الأدبى للغته الخاصة . ولا ندرى كيف ساغ لصاحب هذا الاقتراح أن يعرض مصلحة التعليم فى البلاد — وهو الأساس الذى تبنى عليه حضارة الشعب وبه يقوم كيانه الاجتماعى — لمثل هذه الأغراض التى لا تخرج عن الرغبة الجائرة فى اغتصاب ما لأساتذة اللغة العربية من الملكات المكتسبه بطول المرانة والتجربة والاستفادة الحقة من حسن الاعداد المعهدى للتوفر على دراسة اللغه العربية وآدابها وحمل أمانتها والاضطلاع بحمايتها والدفاع عنها والاجتهاد فى تزويدها بكل ما يساير الحضارة فى هذا العصر الزاهر ، والتعدى على اختصاص وزارة المعارف فى الاشراف الكامل على هذه السنة التوجيهية التى هى جزء متمم لمرحلة الثقافة العامة فى الدراسة الثانوية ، ليصل من وراء ذلك إلى غرضه .

وتقبلوا فائق احترامنا وعظيم إجلالنا .

اثر علم الكلام الإسلامى
فى الأدب

بقلم محمد موسى عفيفى

المدرس الأول بالمدرسة الابراهيمية الثانوية

مقدمات :

— ١ —

درج الناس منذ فطرهم الله تعالى على تأثر ماشُرع لهم من شرائع يناقشون أصولها، ويعللون أحكامها : يتدبرون معانيها، ويتفهمون مراميها، ويؤولون متشابهها، ويفسرون عويصها ؛ ويستخلصون لأنفسهم من هذه الأصول فروعا ليست سواء عندهم جميعا، لأنهم فيما يستنبطون يستند بعضهم إلى ما هدتهم إليه عقولهم من الأخذ بظاهر نصوص الأصل، وبعضهم لا يقنعون بذلك ويأبون إلا أن يمعنوا فى التأويل والتخريج والتوجيه لمجرد شبهة عرضت لهم، ولذلك اختلف أرباب الأديان التى سبقت الإسلام : كاليهود والنصارى وغيرهم فى تفهم الأصول وما تلد من فروع، وجادل بعضهم بعضا جدالا عنيفا جر إلى افتراقهم فرقا عدة، ولم يكن حظ الإسلام - الذى جاء بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، وأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية : كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها، وعلى أنه لا يشبهه أحد أو شىء من خلقه، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم، وأنهم إليه راجعون « قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد » - لم يكن حظ الإسلام بأحسن من حظ الأديان التى سبقته. فافترق المسلمون، واختلفوا فى تفهم أصول دينهم، أو العقائد التى قام عليها علم الكلام، وفيما يلى بيان العوامل التى كانت سبباً فى هذا الاختلاف

— ٢ —

خفقت بنود الإسلام على عُظم ما كان معروفاً من الأرض : كفارس والعراق وسورية وفلسطين ومصر والمغرب والأندلس وغيرها من ممالك الأرض كجذر البحر المتوسط ، ومن سكان هذه الأقاليم النصارى ، واليهود ، والصابئة ، والمجوس ، وهم مختلفون جميعاً فى عقائدهم ، فسرت تعاليمهم بحكم المخالطة والمجاورة إلى نفوس المسلمين ، التى تأثرت بها إلى حد ما ؛ ودخل كثير من هؤلاء فى الإسلام ؛ لا لأنه أبيض الوجه ، ولا لأنه أكمل للإنسان سعادته بما منحه من استقلال الإرادة ، واستقلال الفكر والرأى ، وقد كان حرمهما زمناً طويلا ؛ بل ليكيدوا له كيداً ، انتقاما لدولهم الدائلة ، وأديانهم الزائلة ، فدسوا فيه من الأساطير والأحاديث المفتراة ، ومما أرادوا به تشويهه ، ما لعله يفتح السبل لأقوالهم فتنفذ إلى العقول .

ووردت فى القرآن الكريم والسنة الشريفة آى وأحاديث ، يوهم ظاهرها غير ما فسرها به السلف الصالح ، فأخذ ذوو الأغراض والأهواء يتمسكون بظاهرها ، ويجادلون فيها ليذكوا نار الفتنة التى يعملون لها جاهدين ، لعلهم يطفئون النار التى تأجج فى صدورهم ، وتأكل قلوبهم .

وانتشر القصاص فى المدن الإسلامية بالمجالس والمساجد منذ فجر الإسلام — ومنهم من كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً أو صابئياً — وتناولوا الكلام فى بعض حوادث وقتهم ، ومعرفة حكمها من الدين ، ولم يتورع أكثرهم عن ذكر الخرافات ، وسوق الأساطير التى تكسب قصصهم روعة وقبولا ، ففتح بذلك باب دخل منه على الحديث الشريف كذب ، واسودّ به وجه التاريخ ؛ لما اندس فيه من حوادث زائفة ، كان لها أثر سيء فى عقيدة المسلمين .

وشيء آخر يضاف إلى ما سبق ، هو الخوض فى الغيبيات التى كانت وما زالت مزالق للباحثين ، مع أن العقل الإنسانى لن يستطيع أن يصل إلى كنهها بالغاً ما بلغ من الحصافة والنشاط .

هذه العوامل — التى ذكرنا وغيرها مما لم نذكر اختصارا — هيأت العقول للجدل

والكلام فى المسائل الدينية والسياسية ، فثارت ريح الخلاف لاختلاف وجهات النظر وتباين الأغراض والمرامى ، وتشعب الآراء فى الحوادث إبان الصدر الأول ، وتمخضت عن نشوء فرق إسلامية مختلفة ، خاضت ميادين الكلام ، وأذكت ناره : ففرقة إسلامية تجادل أخرى إسلامية ، وفرق إسلامية تجادل الدهريين واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن قذفوا الإسلام بشبههم ، وغضوا من جلاله كيدا ، وما زالت هذه الفرق تنمو ويشتق بعضها من بعض على الأيام للخلاف الذى يقع بينها حتى كثرت ، وأغرق بعضها إغراقا ضل به سواء السبيل .

— ٣ —

بعض الفرق الإسلامية المشهورة :

ومن أشهر الفرق الإسلامية القدرية الذين يقولون : « لا قدر والأمر أُنُف » ومجمل ما يذهبون اليه :

أولا : إنكار قدَر الله تعالى الذى صرحت به الآى الكريمة ، وجاءت به الأحاديث الشريفة ، كقوله (صلى الله عليه وسلم): « لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلمَ أن ما أصابه لم يكن لِيخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » وقوله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله تعالى يبعث ملكا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح فيه ، فيكتب أجله ورزقه وعمله . وشقى أو سعيد »[1]

ثانيا : إن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس ، وليس له (عز وجل) فيها صنع ولا تقدير ، وأن الإنسان حر الإرادة ، وله قدرة على كسب أفعاله ، وهو على خيرها يثاب ، وعلى شرها يعاقب .

ثالثاً : نفى صفات الله : من العلم ، والقدرة ، والإرادة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، التى وردت بها الآى الكريمة ، مستندين فى ذلك النفى إلى أن اتصافه تعالى بهذه الصفات يدل على شبهه بالمخلوقين ، وهو مستحيل عليه .

رابعاً : خلق القرآن نتيجة لنفى صفة الكلام عنه تعالى .

ويروى مؤرخو الفرق : أن أول من أنكر القدر وقال بما بنى عليه ، معبد

(١) الإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

ابن خالد الجهنى (١) . أخذه عن رجل كان نصرانياً (٢) أو مجوسياً (٣) وأسلم يقال له سيسويه (٤) كان يسكن البصرة ، وعن الرجل عينه أخذ غيلان الدمشقى الذى كان أبوه مولى لعثمان بن عفان ، وعن هذين ـ وكانا خطيبين مُفَوّهين ـ أخذ الناس ، فسال سيل القول بالقدر على المعنى السابق فى العراق والشام . فأما معبد فقتله الحجاج صبراً أواخر سنة ٨٣ هـ لخروجه مع ابن الأشعث (٥) وأما غيلان فقتله هشام بن عبد الملك فى خلافته ١٠٥ هـ - ١٢٥ هـ لأسرافه فى القول بالقدر ، وتسميعه بحكومة بنى أمية ، ولم يكن حظ أولياء معبد وغيلان بأحسن من حظهما ، ولا سيما فى خلافة هشام .

الجبرية أو الجهمية :

ومن الفرق الاسلامية التى كانت من مولود العوامل السابقة : الجبرية أو الجهمية ، أو المعطلة ، أو القدرية أيضاً ، ومجمل ماذهب إليه هؤلاء الجبريون :

أولا : إن الانسان لا قدرة له على شىء ولا اختيار ولا كسب له ، وإنما هو مجبور على أفعال قدرها الله تعالى عليه ولا بد أن تصدر منه .

ثانياً : إن الله تعالى يخلق الأفعال فى الانسان خلقاً فلا تنسب إليه إلا مجازاً ،

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٩٥ ، وسرح العيون لابن نباتة ص ٥١ هامش الغيث المسجم

(٢) سرح العيون الصفحة عينها ، والايمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٣ ، ٤) الايمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى ندبه الحجاج لقتال « رتبيل » ملك الترك ، فلما غزا سنة وغنم مغانم كثيرة رأى أن يتدرج فى الفتح لئلا يهلك جنوده ، فلم يصادف ما رأى هوى فى نفس الحجاج ، وأمره بالامعان فى بلاد العدو ، فعرض عبد الرحمن الأمر على معاونيه وجنوده ، فرأوا رأيه ، وخلعوا طاعة الحجاج وعبد الملك بن مروان ، ثم زحف ابن الأشعث بجنوده نحو العراق لقتال الحجاج ، فلما التقى الجمعان تغلب الحجاج على خصمه وهزمه وجنوده « جمهرة خطب العرب للاستاذ أحمد زكى صفوت »

كما تنسب إلى الجماد ، فكما يقال : طلعت الشمس مثلا بدون أن تكون فاعلة للطلوع ، يقال : سافر فلان أو حارب ، بدون أن يكون فاعلا حقيقياً للسفر أو الحرب.

ثالثاً : نفوا صفات الله تعالى التى وردت بها الآى الكريمة ، كما فعل القدرية ، فراراً من تشبيهه تعالى بالمخلوق ، وقالوا : يجب ألا يؤخذ ماورد من الآيات على ظاهره بل لا بد من تأويله .

وزعيم هذه الطائفة وأسبق الناس قولا بالجبر : جهم بن صفوان الخراسانى ، مولى بنى راسب ، وكان خطيباً خلاباً ذا بيان وفصاحة ، ظهرت بدعته فى ترمذ [١] وتبعه خلق كثير ، ثم قتله سالم بن أحوز المازنى بمرو [٢] سنة ١٢٨ هـ لخروجه مع الحارث بن سريج على نصر بن سيار والى خراسان من قبل مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية فى المشرق [٣]

— ٤ —

متى همس الناس بالقدر ؟

تكلم الناس فى القدر فى حياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما بينا آنفاً من دخول كثيرين من أهل الأديان والنحل فى الإسلام ، وتسرب طائفة من آرائهم إلى المسلمين ، ولما ورد فى القرآن الكريم من آى يوهم بعضها أن الإنسان مجبور على أعماله لا حرية له ولا إرادة ، كقوله تعالى : « والله خلقكم وما تعملون » ، وقوله تعالى : « قل كل من عند الله » ، وقوله عز وجل : « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » ، ولما

---

(١) مدينة على نهر جيحون من الجانب الشرقى ، وهى بكسر التاء والميم ، وبفتح التاء وكسر الميم ، وبضم التاء والميم ، وفيها لغات أخرى (معجم البلدان لياقوت ، والقاموس المحيط)

(٢) قاعدة بلاد خراسان قديما على نهر مرغاب ، فتحها الأحنف بن قيس فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفيها بويع بالخلافة المأمون العباسى سنة ١٩٨ هـ

(٣) أخذ جهم القول الذى نسب إليه عن الجعد بن درهم الآتى ذكره .

ورد من آى أخرى يوهم ظاهرها أن للإنسان اختياراً وكسباً كقوله تعالى: « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » وقوله تعالى: « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ولذلك عرض (صلى الله عليه وسلم) للقدر وقال: « إذا ذكر القدر فأمسكوا » وقال: « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر ... » إلى آخر الحديث السابق ولم ينكر القدر فى زمانه (صلى الله عليه وسلم) منكر، وإنما تنطع الناس فى فهمه وحملوا ما يرتكبون من آثام عليه قائلين قدر الله وقضاؤه ساقانا، ولذلك قال عليه السلام: « القدرية مجوس هذه الأمة » وعنى بذلك الذين يتعللون بالقدر ويحملون ما يقارفون من موبق عليه، وكذلك لم ينكر القدر فى عهد الخلفاء الراشدين منكر [1] وإنما تعلل الناس به وأكثروا من الكلام فيه، فدافعهم عمر بصرامته. وعلى ببلاغته، ورد عليهم جمع من الصحابة: كعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، والحسن بن على، وواثلة بن الأسقع [2]. وما زالت نار الجدل تستعر بين بقية الصحابة والتابعين. وبين هؤلاء وأشباههم، إلى أن ظهر منكرو القدر والقائلون بالجبر الذين ألمعنا اليهم سابقا فى خلافة بنى أمية، فناظرهم بعض الخلفاء والعلماء: كعمر بن عبد العزيز، والأوزاعى [3]، وميمون بن مهران [4] وأخذهم بعض الخلفاء والأمراء بذنوبهم كهشام بن عبد الملك والحجاج وسالم ابن أحوز؛ وكان قتل معظم من قتل من القدرية والجبرية قتلا سياسيا لأنهم كما شذوا فى المقالات الدينية شذوا فى الآراء السياسية، وبعد هشام كان من خلفاء بنى أمية الضعيف المتهافت على اللذات ومنهم من يرى القدر، كيزيد بن الوليد ابن عبد الملك بن مروان الملقب بالناقص الذى كان من دعاته عمرو بن عبيد الآتى ذكره، وكمروان بن محمد الملقب بالجعدى نسبة إلى الجعد بن درهم أستاذه

---

(١) الإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٢) المصدر عينه

(٣) سرح العيون ص ٥٢ هامش الغيث المسجم للصفدى

(٤) كان من عمال عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ ﻫ ثم عمل لهشام ابن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥ ﻫ

فى القول بالقدر (١) فتحركت الألسنة بإنكار القدر ، وشاع فى الناس حتى أصبح أصلا من أصول مذهب المعتزلة الذى ذر قرنه فى أواخر هذا العصر أيضاً وهضم مذهب القدرية أو كانه ، وناهض مذهب الجبرية فى أطراف الأرض ويستنبط مما تقدم نتائج :

الأولى : إن منكرى القدر والقائلين بالجبر أو المعطلة ، وهم جهم وأتباعه ، ظهروا فى عصر بنى أمية .

الثانية : إن حركتهم نوهضت بالمناظرة ثم بقتل زعمائهم قتلا سببه سوء المقالة وسوء الرأى السياسى ، وإن معظم دعاة المذهبين من أولاد الموالى والسبايا ، وهذا يؤيد ما ذكرنا آنفا من أن مما هيأ السبيل للقول فى القدر تسرب آراء الداخلين فى الإسلام إلى أذهان المسلمين .

الثالثة : إن سيل القدر سال فى العراق وهى أصله ، ثم سال فى الشام وسال قليل منه فى الحجاز (٢) ، وإن مذهب الجبرية نشأ فى الكوفة بالعراق ، ثم جرى

---

(١) فى صفحة ٥٥ من سرح العيون لابن نباتة هامش الغيث المسجم ما يأتى : (أما الجعد فهو ابن درهم مولى بنى الحكم ، وكان يسكن دمشق ويعلم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فنسب إليه وقيل مروان الجعدى ، والجعد أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد بدمشق ، ثم طلب فهرب ، ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذى نسب إليه الجهمية ، وقيل إن الجعد أخذ ذلك عن أبان بن سمعان ، وأخذه أبان من طالوت بن أعصم اليهودى ، وكان طالوت زنديقا يقول بخلق القرآن ، وهو أول من صنف فى الزندقة ، فأظهر الجعد مصنفاته ، فقتله خالد بن عبد الله القسرى يوم الأضحى بالكوفة . قال ابن نباتة : قال خالد بعد أن صلى فى آخر خطبته : (انصرفوا وضحوا بضحاياكم يقبل الله منا ومنكم ، فإنى أريد اليوم أن أضحى بالجعد بن درهم فإنه يقول : ما كلم الله موسى تكليما ، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلا . تعالى الله عما يقول علواً كبيراً ، ثم نزل وحز رأسه بالسكين بيده) وكان خالد بن عبد الله عاملا لهشام بن عبد الملك على العراقين بعد ابن هبيرة

(٢) يقول ابن تيمية : « ويقال أول ما حدث — يعنى القدر — فى الحجاز لما احترقت الكعبة ، فقال رجل : احترقت بقدر الله تعالى ، فقال آخر : لم يقدر الله هذا » الإيمان صفحة ١٥٦ »

نهره فى خراسان بانتقال جهم إليها بعد أن وقفه الجعد على أصول المذهب فى الكوفة .

الرابعة : إن مذهبى القدرية والجبرية التقيا فى القول بنفى صفات الله وفى القول بخلق القرآن .

— ٥ —

المعتزلة :

ومن أعظم الفرق الإسلامية التى ورثت عقلية المسلمين أثراً واضحا ، المعتزلة أو أهل العدل والتوحيد ، ويسمون القدرية لقولهم فى القدر مقال أصحاب معبد ، والجبرية لأنهم وافقوا أصحاب جهم فى القول بنفى صفات الله تعالى وخلق القرآن ، ومجمل ما ذهب إليه المعتزلة أصول خمسة تعتبر أصل مذهبهم ، ثم استقل كثير من زعمائهم بتعاليم عرف بها وعزيت إليه ، أما التعاليم الأولى فهى :

أولا : التوحيد ، ومعناه إنكار أن يكون لله تعالى صفات قديمة : كالعلم ، والقدرة ، والحياة بحجة أنها لو كانت قديمة للزم تعدد القديم ، وإنكار أن يكون لله تعالى صفات السمع والبصر والكلام لأنها من عوارض الأجسام .

ثانياً : القول بالمنزلة بين المنزلتين فى أمر مرتكب الكبيرة ؛ أى أنه ليس كافراً ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير فيه ؛ وليس مؤمنا ، لأن الإيمان خصال خير إذا اجتمعت سمى المرء مؤمناً ، وهى لم تجتمع لمرتكب الكبيرة بارتكابها ، وإذا لم يكن مؤمناً ولا كافراً فهو بينهما ، أى فاسق مستحق للنار بما فسق .

ثالثاً : العدل أو القول بإنكار القدر ، ومعناه أن الله تعالى لا يحب الفساد ، ولا يريد الشر ، وأن أفعال الإنسان من خير أو شر من كسبه هو لا من صنع الله وتقديره ، ولذلك يعاقب الكاسب على أفعال الشر ، ويثاب على أفعال الخير ، ولما كان الله تعالى لا يريد بالإنسان شراً كان عادلا .

رابعاً : الوعد والوعيد ، ومعناهما أن الله تعالى لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة ، فإذا مات قبلها فهو مخلد فى النار ، وأنه عز وجل يثيب المؤمن إذا فارق الدنيا على طاعته واستقامته

خامسا : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومعناهما أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على سائر المؤمنين ، كل على حسب استطاعته ولو أدى ذلك إلى سَلّ السيوف من أغمادها . وأشهر رجال هذه الفرقة بل ذؤابتها ، واصل ابن عطاء المولود بمدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) سنة ٨٠ هـ ، وكان يختلف إلى مجلس الحسن البصرى مقرر مذهب الجماعة فى مسجد البصرة ويأخذ عنه ، ثم خالفه فى أمر مرتكب الكبيرة ، وقد كان الخوارج[1] يرون أنه كافر ، والجماعة يرون أنه مؤمن فاسق ، وصرح واصل فى مجلس الحسن بأنه بَيْنَ بين كما تقدم ، فنحاه الحسن عن مجلسه ، أو هو الذى اعتزل مجلس الحسن لما رأى من الكراهة فى وجهه ، واتخذ له مكانا آخر فى المسجد مع فريق من زملائه الآخذين عن الحسن أولا ؛ فسموا المعتزلة لذلك ، ولأسباب أخرى يذكرها مؤرخو الفرق ، ثم أطلق هذا الاسم على كل من سار فى محيط الأصول الخمسة ، وعلى كل من وافقهم فى أصل وبنى عليه على حسب اجتهاده فروعاً أو أضاف إليه أصولا من عنده ، وسميت الفرق المشتقة بأسماء زعمائها ونسبت إليهم[2]

وتبع واصلا فى مذهبه عمرو بن عبيد الذى ألمعنا فى كلامنا آنفاً إلى أنه كان من دعاة يزيد الناقص ، وكان واصل مشهوراً بالفضل والبيان ، وعمرو مشهوراً بالزهد والورع ، أحبه الخليفة أبو جعفر المنصور وعرض عليه الجليل من

---

(١) الخوارج أو الشراة هم الذين ألحوا على على (عليه السلام) فى حرب صفين ، على نهر الفرات شرقى حلب ، أن يخضع لما طلبه معاوية من وقف القتال بعد أن رفع رجاله المصاحف على رءوس الرماح ، فلما اجتمع الحكمان وغدر عمرو بن العاص بأبى موسى الأشعرى ، عاد هؤلاء الذين أرغموه أولا على الرضا بوقف الحرب والتحكيم يطلبون إليه أن يستغفر ذنبه لأنه حكم الرجال ، وتوعدوه إن لم يتب أن يخرجوا عليه ، فلما أبى حققوا ما توعدوا ، فسموا الخوارج لذلك ولأسباب أخرى ادعوها : اقرأ تاريخهم وأدبهم فى كتب الفرق والتاريخ

(٢) كالهذيلية بعد الواصلية ، وكالنظامية ، والمعمرية ، والبشرية ، والثمامية ، والجاحظية ، والخياطية ، والجبائية ، وغيرها .

الأعمال فرغب عنها زهداً ، ورثاه لما مات بأبيات تدل على عظمة المرثى ووفاء الراثى.

وكلا الرجلين ، واصل وعمرو من أبناء الموالى ، ولد الأول بمدينة رسول الله سنة ٨٠ هـ وتوفى فى مستهل الثلث الثانى من المائة الثانية ،وتوفى الثانى سنة ١٤٤هـ ، وجده رباب كان مولى لبنى تميم ، وكان لكليهما تلاميذ وأولياء مقدمون نهجوا نهجهما ، وآخرون زادوا عليهما بما درسوا من فلسفة اليونان ومنطقهم بعد ترجمة الكتب فى فجر العصر العباسى الأول ، ليفلوا الحديد بالحديد ، إذ كان قد دخل فى الإسلام أناس لم يعرفوا منه غير اسمه ، من أبناء النصارى واليهود والمجوس والدهريين ، درسوا الفلسفة والمنطق ، وأثاروا فى الإسلام جدلا حول مسائل كانت تثار فى أديانهم ، وكان هناك غيرهم ممن لم يسلموا أكثر منهم إذاعة لمقالات السوء ، وكان من الملاحدة والزنادقة الكثيرين الذين يظهرون الإسلام خوفاً واستدراراً للرزق ويبطنون الكيد له والزراية به - كمطيع بن إياس ، وحماد الراوية . وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الله بن المقفع - من يقول بالتناسخ ويترجم كتباً فى الإلحاد ، وكان هناك الجبرية أهل التعطيل ، وأهل الحديث الذين يجدون على المعتزلة ، وينقضون أسس مذهبهم ، وكان هنالك غير هؤلاء من الحاقدين على المعتزلة والمخالفين استندوا إلى أسباب جعلوها ذرائع للطعن عليهم : كاشتغالهم بالفلسفة ، وكاحتمائهم بالخلفاء : المأمون ، والمعتصم ، والواثق ؛ وكسلكهم طريق العنف فى معاملة خصومهم ، وإذاقتهم صنوف العذاب (١)

— ٦ —

قاوم المعتزلة هؤلاء جميعاً ، وتأثروا أهل البدع فى أطراف الأرض ، وكتبوا المقالات المستفيضة ، وزانوا المجالس بالمحاضرات ، وعمروا المساجد بالمناظرات، وصادف تحديهم الملاحدة والزنادقة هوى فى نفس المهدى وابنه موسى الهادى اللذين نكلا بالزنادقة ومن نزع إليهم ، وصادف أن حبا الخلفاء الثلاثة الذين ذكرنا أنفاً المعتزلة بعطفهم ، وفسحوا لهم فى مجالسهم ، ومكنوهم من خصومهم

(١) راجع صفحات ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ من محاضرات الدولة العباسية « للخضرى بك »

فظهرت بذلك كله أول نواة من أنواء علم الكلام الذى يعتبر ثمرة من ثمار جدلهم ، وتجردوا لوضع مسائله وتوضيحها ، ثم أخذ كل فريق من المشتغلين بالنقاش فيه ينحو به منحى ميوله واعتقاده ، إلى أن أصبح ثابت البنيان ، راسخ الدعائم ، على يدى زعيم أهل السنة والجماعة أبى الحسن الأشعرى بعد أن جرد نفسه من ثوب الاعتزال كما سيجىء .

ومن أشهر علماء المعتزلة غير واصل وعمرو بن عبيد، عثمان بن خالد الطويل أستاذ أبى الهذيل العلاف ، وحفص بن سالم ، والحسن بن ذكوان ، وخالد بن صفوان ، وإبراهيم المدنى ، ومن هؤلاء من عاش فى الدولتين الأموية والعباسية ثم أبو الهذيل العلاف ، وأبو بكر الأصم ، ومعمر بن عباد ، وإبراهيم بن سيار النظام ، والجاحظ ، وأبو يعقوب الشحام ، وبشر بن المعتمر ، وثمامة بن أشرس ومعظم هؤلاء درسوا الفلسفة والمنطق فى العصر العباسى الأول ، وكان لكثير منهم تعاليم خاصة وتلاميذ وأولياء .

ومن مشهوريهم أيضاً موسى بن عمران ، وأحمد بن حائط ، وأحمد بن أيوب بن مانوس ، وعيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى المزداد ، وأبو الحسين الخياط ، وأحمد بن أبى دؤاد القاضى ، وأبو على الجبائى شيخ الأشعرى

وقد كان المعتزلة مجدودين فى عهد خلفاء بنى العباس الأوالى إلى زمن جعفر المتوكل الذى رفع المحنة

— ٧ —

الأشاعرة :

ومن الفرق الإسلامية العظيمة التى رعت علم الكلام فى مهده وأعلت بناه وفصلت مسائله : الأشاعرة أو أهل السنة والجماعة ، وزعيمهم وواضع مذهبهم شيخ المتكلمين وذؤابتهم غير منازع أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ والمتوفى سنة ٣٢٤ هـ . وكان أول أمره تلميذاً لأبى على الجبائى من شيوخ المعتزلة المتوفى سنة ٣٠٣ هـ لأنه ختنه ، ثم خلع عن

نفسه ثوب الاعتزال بعد أن هداه البحث فى السنة ومذاهب المتكلمين إلى أن يسلك طريقاً وسطاً معقولا بين المذاهب المختلفه التى كثر فى بعضها التنطع ؛ وألف الكتب فى الرد على المعتزله الذين ينفون صفات الله ، وعلى الجهمية المعطلين وشركاء المعتزلة فى نفى الصفات ، وعلى مشبهة الذات الذين أمعنوا فى التشبيه حتى اعتقدوا العين واليد ، ومشبهة الصفات الذين أسرفوا فأثبتوا الجهة والصوت — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً — وعلى غير هؤلاء من أهل البدع والضلالات التى كانت فاشيه فى عصره ؛ ونصب له هؤلاء جميعاً ولا سيما المعتزلة — لأنه فى الأصل منهم — فقمعهم بالحجة وقطعهم بالبرهان وأخاق جدة مذهبهم فتبعه جماعة منهم ، وقرأ كتبه المحدِّثون والفقهاء من أهل السنة وأخذوا بما فيها واعتبروه إماما حتى نسب مذهبهم إليه ، وتبعه سواهم ، ومازال مذهب الأشعرى يغزو المذاهب الأخرى فيهزمها مذهبا إثر مذهب حتى ساد وطبق معظم الآفاق ، وعليه جمهرة المسلمين إلى هذا الوقت .

ومن أشهر رجال هذا المذهب القاضى أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ ﻫ ، والأستاذ أبو بكر بن فُورَك المتوفى سنة ٤٠٦ ﻫ ، وأبو الحسن البصرى الأشعرى النعَيْمى الأديب المتوفى سنة ٤٢٣ﻫ ، وإمام الحرمين أبو المعالى المتوفى سنة ٤٧٨ ﻫ ، وأبو القاسم القشيرى المتكلم المتصوف السنى المتوفى سنة ٤٦٥ﻫ ، والشيخ عبدالقاهر الجرجانى المتكلم السنى النحوى الأديب المتوفى سنة ٤٧٤ ﻫ ، وأبو الفتح الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ ﻫ ، والغزالى أبو حامد المتوفى سنة ٥٣٥ ﻫ ، والفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ ﻫ ، وقبل أولئك جميعا القفال الشاشى الكبير الأديب المتوفى سنة ٣٦٥ ﻫ « راجع طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى » .

— ٨ —

علم الكلام ماهو ؟ :

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية ، والردّ على المبتدعة المنحرفين عن مذهب السلف وأهل السنة فى الاعتقاد[1] ، ويسمى علم التوحيد

(١) مقدمة ابن خلدون

لأن من أمهات مسائله إثبات الوحدة لله تعالى فى ذاته ، وفعله ، وخلقه الأكوان .
ويتضمن أيضا البحث عن وجود الله تعالى وما يجب له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه ، وما يجب للرسل عليهم السلام من صفات ، وما يجوز أن يوصفوا به وما يجب أن ينفى عنهم ، والغرض من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله تصديقا تطمئن به النفس ، استناداً إلى الدليل على وفق ما أرشد إليه الكتاب الكريم الذى أمرنا باستخدام النظر الفاحص ، واستخدام العقل فيما بين ظهرانينا من ظواهر الكون .

وكما يسمى هذا العلم علم الكلام وعلم التوحيد ، يسمى الفقه الأكبر[١] وأصول الدين ، لأن الأصول - وهي معرفة الله تعالى بوحدانيته وصفاته ، ومعرفة الرسل بآياتهم ، ومعرفة كل مسألة يتعين فيها الحق بين المتخاصمين - موضوع علم الكلام عند المتكلمين ، وقد عده الفارابى من العلوم العملية [٢] وعده ابن سينا من العلوم النظرية [٣] وإنما سمى علم الكلام لأن أشهر مسألة استحر فيها الجدل بين العلماء الأوالى كانت مسألة كلام الله تعالى : أحادث هو أم قديم ؟ أو لأن مبنى هذا العلم الدليل العقلى الذى يظهر أثره فى كلام كل متكلم ، أو لأنه فى الكشف عن طرق الاستدلال على أصول الدين يشبه المنطق فى كشفه عن طرق الحجة .

---

(١) سماه بذلك أبو حنيفة

(٢) إحصاء العلوم للفارابى

(٣) منطق المشرقين لابن سينا . ويفرقون بين العلوم العملية والنظرية بأن الأولى لاترمى إلى حصول الاعتقاد اليقينى بالموجودات ، وإنما المقصود منها الحصول على أمر صحيح فى شأن يحدث بكسب الإنسان ليفيد منه الخير ؛ وأن الثانية ترمى إلى الاعتقاد اليقينى بحال الموجودات التى لايتعلق وجودها بفعل الإنسان ، والغرض منها حصول رأى فقط .

— ٩ —

أثر علم الكلام فى الأدب بمعنييه العام والخاص :

إذا استقرينا طبقات المتكلمين على اختلاف مذاهبهم وجدنا جمهرتهم من فحول البلاغة وأساطين الأدب وملوك الكلام ، لأن صناعتهم صناعة جدل ومحاجة ؛ قوامها قوة البيان ، وأداتها ذلاقة اللسان وإقامة البرهان ؛ ووجدنا أكثرهم بعد ترجمة الكتب فى أوائل العصر العباسى درسوا الفلسفة والمنطق ليجمعوا إلى الثقافة الإسلامية البحت ثقافة جديدة اقتضتها الضرورة ، إذ كان معظم خصوم الإسلام على نحو ما وصفنا فى عدة مواضع سابقة . ولذلك لم يكن غريباً أن نرى القاضى أبا بكر الباقلانى المتكلم السنى المتوفى سنة ٤٠٣ ﻫ يفترض فيمن يقرأ كتابه « إعجاز القرآن » أن يكون بالأدب عارفاً وبمسائله محيطا ، فيقول : « ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين مارمنا بيانه وأردنا شرحه وتفصيله لمن كان عن معرفة الأدب ذاهباً ، وعن وجه اللسان غافلا ، لأن ذلك مما لا سبيل إليه إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه ألخ »

(١) أثر المتكلمين فى الإبانة عن معنى البلاغة والأدب :

قال الجاحظ فى البيان والتبيين صفحة ٦٣ جزء أول طبع مطبعة الفتوح : « قيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟ فقال : ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ؛ وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك . قال السائل : ليس هذا أريد ! قال عمرو : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . قال السائل : ليس هذا أريد . قال عمرو بعد حوار : فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ فى حسن الإفهام : قال السائل : نعم . قال عمرو : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المتكلمين ، وتخفيف المئونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة

على الكتاب والسنة كنت قدأوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب . وقد شرح عمرو فى هذا الجواب ما كان يعنى به المتكلمون من تحبير اللفظ وحسن إفهام ، ومن بحث طرق ذلك ، ولم تكن هذه الطرق إلا البلاغة

وكما يحدثنا الجاحظ عن شرح ابن عبيد لمعنى البلاغة ، يحدثنا فى صفحة ٧٥ وما بعدها من الجزء عينه فيقول : إن بشر بن المعتمر أحد علماء المعتزلة ، مر بإبراهيم ابن جبلة السكونى الخطيب وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، ولكن بشرا قال مخاطباً الفتيان : « اضربوا عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحا » ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه وكان ذلك أول الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسباً ، وأحسن فى الاسماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغُرَّةٍ من لفظ شريف ومعنى بديع الخ »

قال الجاحظ : « قال بشر : فلما قرئت على إبراهيم قال لى : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان » . اقرأ الصحيفة فى صفحات ٧٥، ٧٦، ٧٧ من البيان ، ومنها تعرف أن بشراً كان إلى ناحيته الكلامية أديباً عارفاً أسرار البلاغة ملماً بما يجب على الأديب من تخير اللفظ ، وتقريب المعنى من الأفهام ، ومن جعل الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ، ومن اختيار الأوقات المستحبة . إلى أشباه ذلك من القواعد والأصول التى لا يدركها إلا حذاق الأدب .

ويحدثنا الجاحظ أيضاً فى صفحة ٦١ من الجزء عينه واصفا أدب ثمامة بن أشرس المتكلم المعتزلى تعليقاً على وصف ثمامة لأدب جعفر بن يحيي البرمكى فيقول : « وهذه الصفات التى ذكرها ثمامة بن أشرس فوصف بها جعفر بن يحيي ، كان ثمامة قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره . وما علمت أنه كان فى زمانه قروى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف - ما كان بلغه ، وكان لفظه فى وزن

إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك . قال بعض الكتاب : معانى ثمامة الظاهرة فى ألفاظه الواضحة فى مخارج كلامه كما وصف الخُزَيْمِيُّ شعر نفسه فى مديح أبى دلف حيث يقول :

ولى كلم « فيك معقوله إزاء القلوب كركب وقوف »

أما وصف ثمامة لبلاغة جعفر فقوله فى صفحة ٥٨ من الجزء عينه : « كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ؛ قد جمع الهدوء والتمهل ، والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة ، لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة »

هذه الكلمات الأربع التى أوردنا لعمرو بن عبيد ، وبشر بن المعتمر ، وثمامة ابن أشرس . والجاحظ ؛ تصور لك مبلغ إلمامهم بقواعد الأدب وأصوله ، وبأن البليغ عندهم كما هو عند الأصمعى « من طبّقَ المفصلَ وأغناك عن المفسّر »

(٢) آثار المتكلمين فى أصل اللغات

يحدثنا الإمام ابن تيمية المتوفى فى الربع الأول من القرن السابع فى كتابه « الإيمان » صفحة ٣٦ طبع مطبعة السعادة عن اللغات ، وهل هى توقيفية أو اصطلاحية ، فيثبت أن الكلام فى هذه المسألة أثاره المتكلمون قبل كل إنسان « وهذا القول لا نعرف أحداً من المسلمين قاله قبل أبى هاشم بن الجبائى » ثم يقول : « فتنازع أبو الحسن الأشعرى ، وأبو هاشم الجبائى فى مبدإ اللغات ، فقال أبو هاشم : هى اصطلاحية ، وقال الأشعرى : هى توقيفية ، ثم خاض الناس بعدهما فى هذه المسألة ، فقال آخرون : بعضها توقيفى وبعضها اصطلاحى ، وقال فريق رابع بالوقف »

وهذا يدل على أن المتكلمين عالجوا الأدب من أساسه الأول ، فقد درج علماؤه على أن يتناولوا بالبحث والتمحيص مسألة اللغات ونشأتها على نحو الحوار الذى كان بين الأشعرى وابن الجبائى .

(٣) أثر المتكلمين فى علم البلاغة : المتكلمون واضعو هذا العلم :

جر الكلام فى إعجاز القرآن ومعنى الإيمان والإسلام والإحسان بين المتكلمين من المعتزلة وأهل السنة وغيرهم إلى الكلام فى البلاغة ومعنى الحقيقة والمجاز وما يدلان عليه ، وتقسيم الحقيقة إلى عرفية ولغوية وشرعية ، فكان المتكلمون بذلك أول الواضعين لعلم البلاغة ، وهذا ابن تيمية يحدثنا فى كتابه الإيمان صفحة ٣٤ وما بعدها : « فصل فى أن دلالة الإيمان على الأعمال حقيقة لا مجاز » فيقول : « فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة الأولى ، ولم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين فى العلم : كمالك ، والثورى ، والأوزاعى ، وأبى حنيفة ، والشافعى ؛ بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو : كالخليل ، وسيبويه ، وأبى عمرو بن العلاء ونحوهم . وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عنى بمجاز القرآن ما يُعَبَّرُ به عن الآية » ثم يقول بعد كلام قصير : « ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة ولا من سلف الأمة وعلمائها وإنما هذا اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين الخ »

وفى الحق أن ابن تيميه لم يلق القول على عواهنه وهو الثقة ، فإننا إذا عرضنا لواضعى هذا العلم ورافعى قواعده وجدناهم جميعاً من المتكلمين ، ومن بينهم عدد غير قليل ممن درسوا الفلسفة والمنطق ، وخلطوا مسائل البلاغة بمسائلهما ؛ فالجاحظ وهو من رءوس المتكلمين قد أشار إلى مسائل من علم المعانى فى كتابه « إعجاز القرآن » ، وقدامة بن جعفر الكاتب المتوفى سنة ٣١٠ هـ وضع ثلاثة عشر نوعا من البديع فى كتابه نقد الشعر الذى سماه « نقد قدامة » ، والإمام عبد القاهر الجرجانى المتكلم السنى المتوفى سنة ٤٧٤ هـ أول من خلص مسائلها المبعثرة ووضع كتابيه « دلائل الإعجاز » ، « وأسرار البلاغة » ، وهو فى الأول متكلم فيلسوف

يسوق الكلام على طريق أهل الجدل ، وفى الثانى أميل ما يكون إلى الأدب الصرف لانصرافه عن الكلام فى الإعجاز إلى اللهجة الأدبية البحتة التى تتمثل فى سوق الشواهد الكثيرة من فصيح الشعر والنثر وبيان ما فيها من أنواع البلاغة على النحو المعروف فى دروس البلاغة الآن .

وأبو القاسم محمود الزمخشرى المتكلم المعتزلى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ألف تفسيره « الكشاف » ، وكشف فى أثناء كلامه عن كثير من قواعد البلاغة . وقال من كلام فى خطبة هذا الكتاب : « والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطريق ، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن : وهما علم المعانى ، وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة وتعب فى التنقير عنهما أزمنة الخ » .

وأبو يعقوب السكاكى المتكلم المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ألف كتابه « مفتاح العلوم » ومزج أساليبه بكثير من أساليب الفلسفة والمنطق لتمكنه منهما .

وعن هؤلاء الأئمة الذين وضعوا علوم البلاغة ثم جردوا مسائلها ، أخذ من جاءوا بعدهم ونحوا نحوهم

(٤) أثر المتكلمين فى لغة الأدب

انسابت طائفة غير قليلة من مصطلحات المتكلمين فى محيط الأدب العربى ، قد يكون أثرى بها من جهة أنها دالة على معان مقصودة لهم لم يجدوا ما يؤديها سواها ، وقد يكون وجه الأدب أربد بها من جهة أخرى لأن معظمها دخيل على اللغة شق طريقه إليها من الفلسفة والمنطق : كالكم ، والكيف ، والأين ، والمتى ، والأزل ، والعرض ، والجوهر ، والحجة ، والبرهان ، والاعتقاد ، والحدوث ، والعدم ، والقطع ، والقمع ، والكسب ، والاختيار ، والجبر ، والتعطيل ، والشك ، واليقين ، والقضاء ، والقدر ، والعلة ، والمعلول ، والسبب ، والمسبب ، والأصول ، والفروع ، والحق ، والباطل ، والغلبة ، والخذلان ، والواجب ، والجائز ، والممكن ، والمستحيل ، والقدم ، والبقاء ، إلى أشباه ذلك مما نجده فى نثرهم ونظمهم ، كقول الجاحظ فى رسالته

« القيان » : أما بعد فإنه ليس كل صامت عن حجته مُبطلا فى اعتقاده ، ولا كلُّ ناطق بها لا برهان له محقا فى انتحاله ، والحاكمُ العادلُ من لم يعجل بفصل القضاء دون استقصاء حجج الخصماء ، ودون أن تبلغ الحجة مداها من البيان ، ويشرك القاضى الخصمين فى بيان ما اختصما فيـه حتى لا يكون بظاهر ما يقع عليه من حكمه أعلم منه بباطنه . . . وقد كنا ممسكين عن القول بحجتنا فيما تضمنه كتابنا هـذا ، اقتصاراً على أن الحق متكفل بظهوره ، مبِين عن نفسه ، مستغن عن أن يستدل عليه بغيره ، إذ كان إنما يستدل بباطن على ظاهر ، وعلى الجوهر بالعرض »

« إن الفروعَ لا محالة راجعة إلى أصولها ، والأعجاز لاحقةٌ بصدورها ، والموالىَ تبعٌ لأوليائها ، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة ، ومنفردة بالمضادة ، وبعضها علة لبعض : كالغيث علة السحاب ، والسحاب علة الماء والرطوبة ؛ وكالحَبّ علة الزرع والزرع علة الحب ؛ والدجاجة علتها البيضة ، والبيضة علتها الدجاجة الخ »

وكقوله فى أول رسالته « ذم أخلاق الكتاب » بعد الديباجة :

« ومتى وقع الوصف من القائل تقصياً ، والنعت من الواصف تأنقاً ، قل شهداؤه ، وكثر خصماؤه ، لأن أغلظ المحن ماعرض على المشهور فأزاله ، وتصفحه المعقول فأحاله ، وأضعف العلل ما التمس بعد المعلول »

وكقول النظام يمدحه ـ ويدعى الجاحظ عمراً ، ويكنى بأبى عثمان :

حـــبى لعمرو جوهر ثابت	وحبـــه لى عرض زائل
به جهاتى الست مشغولة	وهو إلى غيرى بها مائلُ

وكقول أبى القاسم القشيرى المتكلم السنى الصوفى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ

يا من تقاصرَ شكرى عن أياديه	وكلَّ كُلُّ لسانى عن معاليه
وُجُوده لم يزل فرداً بلا شَبَهٍ	علا عن الوقت ماضيه وآتيه
لا دهر يُخْلِقه ، لا قهر يلحقه	لا كشف يظهره ، لا ستر يخفيه
لا عَدَّ يجمعه ، لا ضدَّ يَمْنَعُهُ	لاحدَّ يقطعُهُ ، لا قُطْرَ يحْوِيهِ
لا كونَ يَحْصُرُهُ ، لاعينَ تَبْصِرُهُ	وليس فى الوهم معلوم يضاهِيهِ
جـــلاله أزلى لا زوال لهُ	وملكه دائم لا شىء يُفْنِيهِ

(٥) أثر المتكلمين فى المؤلفات العلمية :

وكذلك شاعت فى المؤلفات العلمية التى وضعها المتكلمون طائفة من ألفاظهم الاصطلاحية ، وأكثر ما كان ذلك فى مقدمات هذه الكتب : كقول الزمخشرى فى أول كتابه « الكشاف » : « فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ، ووسم كل شىء سواه بالحدوث عن العدم ، أنشأه كتاباً ساطعاً تبيانه ، قاطعاً برهانه ، وحيا ناطقا ببينات وحجج ، قرآناً عربيا غير ذى عوج ، مفتاحا للمنافع الدينية والدنيوية ، مصداقا لما بين يديه من الكتب السماوية ، معجزا باقيا دون كل معجز على وجه كل زمان ، دائرا من بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان ، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء ، وأبكم به من تحدّى من مصاقع الخطباء . » وكقول الجرجانى فى مقدمة كتابه « أسرار البلاغة » وقد مزج كلامه مزجا صريحا باصطلاحات المناطقة و الفلاسفة : « فلولا الكلام لم تكن لتتعدى فوائدُ العلم عالِمَه ، ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه ، ولتعطلت قوَى الخواطر والأفكار من معانيها ، واستوت القضية فى موجودها وفانيها ؛ نعم ، ولوَقع الحىُّ الحسّاسُ فى مرتبة الجماد ، ولكان الإدراك كالذى ينافيه من الأضداد ، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائِعها ، والمعانى مسجونة فى مواضعها ، ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة ، والأذهانُ عن سلطانها معزولة ، ولما عرف كفر من إيمان ، وإساءة من إحسان . » وكقوله وقد أمعن فى تقسيم أبواب الفن ومضى يشرح المسائل فى باب التشبيه ويسرف فى الإلمام بألفاظ أهل المنطق والفلسفة : « إن قال قائل إن تنزيل الوجود منزلة العدم أو العدم منزله الوجود ليس من حديث التشبيه فى شىء ، لأن التشبيه أن يثبت لهذا معنى من معانى ذاك ، أو حكماً من أحكامه ، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجة حكم النور ، فى أنك تفصل بها بين الحق والباطل كما تفصل بالنور بين الأشياء ؛ وإذا قلت فى الرجل القليل المعانى : هو معدوم ، أو هو والعدم سواء ؛ فلست تأخذ له شبها من شىء ، ولكنك تنفيه وتبطل وجوده ؛ كما أنك إذا قلت : ليس هو بشىء ، أو ليس برجل كان كذلك »

(٦) أثر المتكلمين فى النقد :

وقد كان للمتكلمين أثر كبير ، خالد فى نقد الكلام والكشف عن محاسنه ومساوئه حين عرضوا للكلام فى إعجاز القرآن وألفوا فيه الكتب . وحين عرضوا للبلاغة ودونوها ، وإن حملت كتبهم أسماء أخرى غير النقد : اقرأ للإمام أبى بكر الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » تعليقه على قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسِقطِ اللِّوَى بين الدَّخول فَحَوْملِ
فتوضح فالمِقراة لم يعف رسمها لما نسَجتها من جنوب وشمألِ

تر أنه إلى إمامته الكلامية إمام فى الأدب والنقد ، يعرف كيف يميز الخبيث من الطيب ويدرك أسرار البلاغة فى الكلام إدراكا تتقطع دونه أنفاس البلغاء : قال فى صفحة ٧٥ : « الذين يتعصبون له (امرىء القيس) أو يدعون محاسن الشعر ، يقولون : هذا من البديع ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العهد والمنزل والحبيب ، وتوجع واسترجع فى بيت ، ونحو ذلك . وإنما بينا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن إن كانت ، أو غفلتنا عن مواضع الصناعة إن وجدت ؛ تأمل أرشدك الله ، وانظر هداك الله : أنت تعلم أنه ليس فى البيتين شىء قد سبقَ فى ميدانه شاعراً ، ولا تقدم به صانعاً ، وفى لفظه ومعناه خلل ، فأول ذلك أنه استوقف من يبكى لذكر الحبيب ، وذكراه لا يقتضى بكاء الخلِى ؛ وإنما يصح طلب الإسعاد فى مثل هذا ، على أن يبكى لبكائه ويرقّ لصديقه فى شدة بُرحائه ، فاما أن يبكى على حبيب صديقه وعشيق رفيقه ، فأمر محال ؛ فإن كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضا عاشقا ، صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر ، لأنه من السخف ألا يغار على حبيبه ، وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه والتواجد معه فيه . ثم فى البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الأماكن : من الدَّخول ، وحومل ، وتوضح ، والمقراة ، وسقط اللوى ؛ وقد كان يكفيه أن يذكر فى التعريف بعض هذا ؛ وهذا التطويل إذا لم يفد كان ضربا من العى . ثم أن قوله ـ لم يعف رسمها ـ ذكر الاصمعى من محاسنه أنه باق فنحن نحزن

على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا ، وهذا بأن يكون من مساويه أولى ، لأنه إن كان صادق الود فلا يزيده عفاء الرسوم إلا جدة عهد وشدة وجد الخ »

وقال فى صفحة ٧٦ تعليقا على قوله :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسَلِ
إذا قامتا تضوَّع المسك منهما نسيم الصَّبَا يأتى بريَّا القرَنْفُلِ

« أنت لاتشك فى أن البيت الأول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة ، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وإن كان منزوع المعنى ؛ وأما البيت الثانى فوجه التكلف فيه قوله : تضوع المسك منهما ؛ ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيبا على كل حال ، فأما فى حال القيام فقط فذلك تقصير . ثم فيه خلل آخر ، لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل ، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص ؛ وقوله : نسيم الصبا . فى تقدير المنقطع عن المصراع الأول لم يصله به وصل مثله »

وقد لبس الباقلانى فى نقده ثوب الأديب الدخال ، ولم يستخدم من ألفاظ المتكلمين سوى « أنت لاتشك » مثلا ، « وأنت تعرف » ، « وهداك الله وأرشدك »

واقرأ للامام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه « دلائل الاعجاز » ص ٢٨٣ طبع المنار تعليقه على قول أبى الطيب من قصيدته اللامية فى رثاء أخت سيف الدولة

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

تر أنه إلى إمامته فى الكلام والبلاغة إمام فى النقد ، ولا بدع ، فلولا النقد ما كانت البلاغة ؛ قال بعد كلام طويل : « واعلم أن هذا هو الصحيح فى تفسير البيت ، والطريقة المستقيمة فى الموازنة بين تأنيث الخلقة وتأنيث الاسم ، لا أن يقال إن المعنى : أن المرأة إذا كانت فى كمال الرجل من حيث العقل والفضل وسائر الخلال الممدوحة ، كانت من حيث المعنى رجلا وإن عدت فى الظاهر امرأة ؛ لأجل أنه يفسد من وجهين : أحدهما أنه قال : « ولا التذكير فخر للهلال » ، ومعلوم أنه لا يريد أن يقول : إن الهلال وإن ذكر فى لفظه فهو مؤنث فى المعنى ، لفساد ذلك ، ولأجل

أنه إن كان يريد أن يضرب تأنيث اسم الشمس مثلا لتأنيث المؤنثة على معنى أنها فى المعنى رجل ، وأن يثبت لها تذكيراً ، فأى معنى لأن يعود فينحى على التذكير ويغض منه ويقول : إنه ليس بفخر للهلال . هذا بين التناقض » .

(٧) ثروة المتكلمين الأدبية :

ترك المتكلمون تراثا أدبياً كريما يتمثل فى كتب البلاغة والنقد وإعجاز القرآن ، وما ألفوه فى معانيه وألفاظه ومجازه ، وفى كتب الطبقات وما فيها من تاريخ أدبى تحليلى لكبار من حوتهم من الأعلام ؛ ذلك إلى الجانب العظيم الماثل فى المناظرات التى أخفتت صوت الخطابة فى الدولة العباسية ، وإلى أشعار أدبائهم التى كانت بين صور خالصة من الأدب المصفى فى أغراض شتى وصور أخرى حوت مبادئهم ومذاهبهم ؛ وقد حوت كتب التاريخ الكبيرة ، وكتب الفرق ، وموسوعات الأدب ، شيئاً كثيراً من هذا التراث الجليل ، وسنمثل بعد ببعض الصور .

(٨) أثر المتكلمين فى الألفاظ ومقدار حفلهم بها :

اضطر المتكلمون إلى خلق ألفاظ جديدة تعبر عما فى نفوسهم من معان اقتضتها صناعة الجدل ، ففاضت أنهار مناظراتهم ومحاضراتهم بطائفة كبيرة من ألفاظ ربما أنكرها أهل اللغة أو لم يعرفوها ، أخذوها من العلوم التى درسوا كالفلسفة والمنطق وغيرهما ، فأضافوا بذلك ثروة جديدة إلى الألفاظ أحسنوا بها إلى اللغة ؛ ومهما يكن أصل هذه الألفاظ ، ومهما تكن قيمتها عند أهل اللغة ؛ فلا سبيل إلى إنكار أنها ثروة ومدد تحتاج اليه اللغة العربية ، إذ كان غناها فى الألفاظ لا يعدل غناها فى المعانى .

فأما مبلغ حفلهم فى مناظراتهم ومحاضراتهم بالألفاظ وتنميقها واختيارها ، فذلك ما تقرر أنه لم يكن يعنيهم بقدر ما تعنيهم المعانى يضعونها فى الألفاظ التى تواتيهم ، جزلت أو سهلت ، علت أو انخفضت ؛ وذلك لا يبدو غريبا من قوم كانوا يطلبون للكلام أو يطلبونه كلما عرض عارض أو اقتضى مقتض .

(٩) أثرهم فى المعانى والأساليب :

فأما أثر المتكلمين فى المعانى فيبدو واضحاً فى الغوص عليها وابتكارها ودقة الاشارة إليها ، وفى ترتيبها ترتيباً منطقياً ، وفى تقديم المقدمة بين يدى النتيجة ، وفى الفرق فى الاستنباط ، وقد صار لهم ذلك ملكة بكثرة ماجادلوا واطلعوا فى كتب الأوائل .

(١٠) نثرهم وشعرهم :

إذا وازن الأديب بين نثر المتكلمين وشعرهم تبين فرقاً بين الأول والثانى ؛ فهم فى الأول أرسخ قدماً ، وأعز جانباً ، وأكثر تراثا ، وأغزر معنى ، وأشرف قصدا وبحسبهم أن يكون منهم إمام المنشئين وسيد المترسلين وشيخ الصناعة ، أبو عثمان بحر بن عمرو الجاحظ . وأن يكون منهم أبو الحسين ابن العميد شيخ الطريقة المعروفة باسمه فى الكتابة ؛ وهذا لا يمنع من أن لشعرائهم شعراً فى فنون مختلفة له روعة وفيه جمال .

« للبحث بقية » محمد موسى عفيفى



بشر بن المعتمـــر

بقلم حسن علوان

المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

علينا قبل أن نذكر شيئاً عن بشر بن المعتمر ، أن نلم إلماماً وجيزاً بطائفة المعتزلة ، لأن بشراً إمام من أئمتها ، فنمر مروراً سريعاً ، على المبادىء العامة التى اشتركوا فيها ، والمشاكل التى أثاروها وتعرضوا لحلها ، ونعرف ماقامت عليه بيناتهم من السطوة العقلية ، وقوة الجدل ، وامتلاك ناصية البلاغة ، وفهم أسرار الكلام ، وتأثرهم بالفلسفة اليونانية ، وتأثيرهم فى سياسة الدولة العباسية زمناً بعيداً ، وجهادهم العنيف فى الدعوة إلى آرائهم ، وتقرير مذاهبهم ، وإطلاق العقل من قيوده إلى أبعد حدوده ، وحرية الرأى ، ومقارعتهم خصومهم من أهل الفرق الأخرى فى غير هوادة ولا لين .

أما المعتزلة عامة فقد تناولوا القول فى أصول خمسة : هى « التوحيد ، والعدل، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » . فقالوا فى التوحيد : إن الله (عز وجل) لا كالأشياء ، وإنه ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ، ولا جزء ولا جوهر ، بل هو الخالق للجسم ، والعرض والعنصر ، والجزء والجوهر ، وإن شيئاً من الحواس لا يدركه فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وإنه لا يحصره المكان ، ولا تحويه الأقطار ، بل هو الذى لم يزل ولا زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حد ، وإنه الخالق للأشياء ، المبدع لها لا من شىء ، وإنه القديم ، وإن ماسواه محدث[1] ، وأوضحوا معنى التوحيد فى جلاء ، وشرحوا قوله تعالى: « ليس كمثله شىء » أقصى شرح وأعمقه ، وأوّلوا كل الآيات الدالة على الجهة ، وعلى الأعضاء ، وعلى مشابهة المخلوقات[2] ، مثل قوله تعالى : « الرحمنُ على العرش

(١) الجزء الثانى مروج الذهب صفحة ١٩٠ فى أثناء الكلام عن يزيد الناقص

(٢) ضحى الاسلام الجزء الثالث صفحة ٢٦

استوى ». وقوله: « يخافون ربهم من فوقهم » وقوله: « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » تأويلا ينزه الخالق جل شأنه، عن مشابهته المخلوقات فى شىء من العرض أو الجوهر، وقد أداهم ذلك إلى القول بأن صفات الله: من قدرة وإرادة وعلم وحياة وسمع وبصر وكلام، هى وذاته شىء واحد، أى أنها لاتوجب شيئاً آخر غير الذات الواحدة، وإذا كان الله وصفاته وحدة لاتقبل التغيير، فمحال أن يكون القرآن وهو الكلام الذى نقرؤه بألسنتنا، ونسمعه بآذاننا، كلامَ الله أى صفة من صفاته، واتفقوا على أن سُوَرَه وآياته وحروفه قد خلقها الله، وأوصلها إلى النبى صلى الله عليه وسلم، عن طريق جبريل، وهو ليس كالكلام الذى ينسب إلينا، وينشأ من عملنا. واستيقظت لهذا الرأى فتنة شغلت العقول، وأثارت الجدل، واستهوت الخليفة المأمون، فأراق لحمايتها والدفاع عنها الدماء، وعذّب الأبرياء، وشاعت فى عصره وعصر المعتصم والواثق بعده، وسميت بفتنة خلق القرآن، وصاحبها « القاضى أحمد بن أبى دؤاد، ممن نشأ فى العلم، وتضلّع بعلم الكلام، وصحب فيه هياج بن العلاء السلمى، صاحب واصل بن عطاء، أحد رؤساء المعتزلة؛ وكان ابن أبى دواد رجلا فصيحاً . . . وكان معظماً عند أمير المؤمنين المأمون، فدسّ إليه القول بخلق القرآن وحسنّه عنده، فصار يعتقده حقا مبيناً، إلى أن أجمع رأيه فى سنة ثمانى عشرة ومائتين هـ، على الدعاء إليه. وأشخص إليه العلماء والفقهاء ومشايخ الحديث، فمن أجاب نجا، ومن امتنع عن الجواب قتل أو عُذّب، فقتل المأمون محمد بن نوح، وعذب المعتصم أحمد بن حنبل، وقتل الواثق أحد بن نصر الخزاعى ونعيم بن حماد » (١)

وقالوا فى العدل: « إن الله لايحب الفساد، ولا يخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه، بالقدرة التى جعلها الله لهم، وركبها فيهم (٢) »، وقالوا: إن العبد قادر، خالق لأفعاله، خيرها وشرها، مستحق على مايفعله ثواباً وعقاباً، فى

(١) عن مفتاح السعادة الجزء الثانى صفحة ٣٩

(٢) الجزء الثانى من مروج الذهب صفحة ١٩٠

الدار الآخرة، والرب تعالى منزه أن يضاف إليه شر وظلم، وفعل هو كفر ومعصية، لأنه لو خلق الظلم كان ظالما، كما لو خلق العدل كان عادلا »(١)

وقالوا فى الوعد والوعيد: إن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة، وأن من مات عن كبيرة استحق الخلود فى النار، وأن المؤمن إذا مات طائعا تائبا استحق الثواب والنعيم. وقالوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: إنه من واجبات المؤمنين، كل على حسب استطاعته: بالسيف أو اللسان أو المال، وأن عليهم مجاهدة المسلم العاصى، والكافر على السواء.

وقد أرادوا « بالمنزلة بين المنزلتين » من يرتكب الكبائر من الذنوب، كمن يترك إقامة ركن من أركان الإسلام، أو يقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، فقد أطلقوا عليه وعلى مثله اسم الفاسق. ولم يطلقوا عليه اسم المؤمن أو الكافر

هذه المبادىء الخمسة هى الدستور العام للمعتزلة، ولا يستحق اسم الاعتزال إلا من اعتنقها، أما إذا زاد عليها من الفروع، كان معتزليا منسوبا إلى طريقته، كالواصلية، والبشرية، والنظامية، وهم أتباع واصل وبشر والنظام، لأنهم اعتنقوا المبادىء الخمسة، وزادوا فى اعتناق الفروع التى قال بها إمام كل فرقة.

ولقد ثارت فى علم الكلام مسائل، كالقضاء والقدر، والجبر والكسب فى إرادة الخير والشر، والايمان والتوبة، وشرائط الإمامة، وهل المرجع فيها إلى النص والإجماع؟ واحتكم المعتزلة فيها إلى العقل، وبسطوا سلطانه على النصوص المنزلة فأولوها على حسب ما يهدى إليه العقل، وتهيب مخالفوهم من الفرق الأخرى، أن ينازلوهم فى ميدان الجدل، لقوة حجتهم، وعمق فكرتهم، وشدة إفحامهم، حتى تحاشوهم، وأصبح فرسان حلبة المناظرة والجدل منهم دون سواهم، ورأوا « أن العقل البشرى قد منح من السلطة والسعة، ما يمكنه من إقامة البرهان، حتى على ما يتعلق بالله. . . فلا زلل ولا خطأ عندهم متى صح البرهان، فلنستعمل البراهين. فى أدق الأدور وأصعبها وأعقدها،

---

(١) الجزء الأول صفحة ٥٥ من الملل والنحل للشهرستانى على هامش الجزء الأول من كتاب الفصل لابن حزم

فى استطاعة العقل الوصول الى الحق فيها [١] ، وقد لجوا فى الجدل إلى أبعد حدوده ، وأقاموا المناظرات ، واستضاءوا كما قدمنا بنور العقل ، وتزودوا بالمنطق ، والبيان ، ودرسوا الفلسفة اليونانية ، وأحاطوا علماً بآراء الفرق المخالفة لهم ، وبرعوا فى فهم أسرار الكلام ، والاحتجاج بمأثور القول على ما يعزز آراءهم ، ويقوى حجتهم ، ويمكنهم من القيام بالدعوة للإسلام ، والتغلب على المخالفين لهم .

أما قدرتهم على الجدل ، فهى ثابتة لهم بشهادة الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، وهو كما تعلم من ذوى الرأى ، والمنتصرين للعقل ؛ قال : « كنت رجلا أعطيت جدلا فى الكلام ، فمضى دهر فيه أتردد . وبه أخاصم ، وعنه أناضل ، وكان أكثر أصحاب الخصومات بالبصرة ، فدخلتها نيفاً وعشرين مرة ، أقيم سنة وأقل وأكثر ، وكنت قد نازعت طبقات الخوارج من الأباضية وغيرهم وطبقات المعتزلة ، وسائر طبقات أهل الأهواء ، وكنت بحمد الله أغلبهم وأقهرهم ، ولم يكن فى طبقات أهل الأهواء أحد أجدل من المعتزلة » [٢]

وبالرغم من أن أبا حنيفة يحمد الله على أنه كان يتغلب على أهل الجدل ، ويقهر أصحاب الخصومات ، ويعترف بأن المعتزلة أجدل أهل الأهواء ، فإنه على ما يظهر ، كان يفحم أمامهم ، ويضيق صدره بقوة حجتهم ، فيرميهم بقسوة القلوب ، وغلظ الأفئدة ، لأنهم لا يسيرون على سنن المتقدمين من التسليم بظاهر النصوص أو إغفال العقل ، تحاشيا للخوض فيما يجرهم إليه الجدل من شبه ومشاكل ؛ فيقول عنهم : « إنى رأيت من تنحل بالكلام ، وتجادل فيه ، ليس سيماؤهم سيماء المتقدمين ، ولا منهاجهم منهاج الصالحين ، رأيتهم قاسية قلوبهم ، غليظة أفئدتهم ، لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة [٣] » .

وإذا كان الجدل لا بد أن يعتمد على حدة الذهن ، والتزود بالأسباب

(١) جـ ٣ ضحى الاسلام صفحة ٣٩
(٢) جـ ٢ مفتاح السعادة صفحة ٢٤
(٣) جـ ٢ مفتاح السعادة صفحة ٢٩

والعلل ، والإمعان والتعمق فى دقائق المعانى ، والتفنن فى ضروب الخطاب ، وسرعة الاستشهاد ، ليصول بلسانه حيث شاء ، ويعبر عن ضميره بأجلى العبارات؛ فإن المعتزلة قد بلغوا من كل ذلك منزلة لم يلحق غبارها سواهم ، ولم يختص بها غيرهم ، فقد درسوا الفلسفة ، واقترضوا منها ما يوافق آراءهم ، ويلائم أهواءهم ، فعززوا به حججهم ، وقووا براهينهم ، واعتزوا بأنفسهم ، وتمسكوا بمتانة الخلق ، والاعتزاز بالنفس ؛ ومتانة الخلق من أهم الوسائل التى تميز شخصية الإنسان فى رأيه وأسلوبه ومذهبه

أما متانة الخلق فيهم ، وصونه من أن تعبث به أمور الدنيا ، فإليك شهادة أبى جعفر المنصور ، داهية العباسيين وعالمهم ، فى شيخ المعتزلة ومفتيها ، عمرو ابن عبيد تلميذ واصل بن عطاء ، فقد قال عنه ما دحا له : « نثرت الحب للناس فلقطوا غير عمرو [١] »

وقد كان لهم من الهيبة والاعتبار ، ماجعل أبا جعفر على جبروته ودهائه ، وعزته بنسبه وسلطانه ، يسمع لعظاتهم فى خشوع واستعبار ، على مافيها من خشونة ومواجهة بالحقائق المرة ما كان أبو جعفر ليقبلها ، لولا مايَعْرِف من شدة تقوى المعتزلة وورعهم ، وقوة تأثيرهم فى الناس ، فقد دخل عمرو بن عبيد هذا على أبى جعفر ، « فأمر أن تفرش له لبود بقربه . وأجلسه إليه بعد ماسلم ثم قال : يا أبا عثمان ، عظنى بموعظة ، فوعظه بمواعظ ، فلما أراد النهوض قال : أمرنا لك بعشرة آلاف . قال : لاحاجة لى فيها . قال أبو جعفر : والله لتأخذنّها . قال : لا والله لا آخذها . وكان المهدى حاضراً فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ! فالتفت عمرو إلى أبى جعفر فقال : من هذا الفتى ؟ قال : هذا محمد ابنى وهو المهدىّ ، وهو ولىّ عهدى . قال : أما والله لقد ألبسته لباساً ماهو من لباس الأبرار ، (لأن العباسيين كانوا يتخذون السواد لباسهم) ولقد سميته باسم ما استحقه بعمل ، ولقد مهّدت له أمنع مايكون عنه . ثم أقبل عمرو على المهدى فقال : نعم يابن أخى إذا حلف أبوك أحنثه عمك ، لأن أباك أقوى على

---

(١) الجزء الأول من الملل والنحل صفحة ٣٢

الكفارات من عمك. فقال له المنصور: هل لك من حاجة يا أبا عثمان؟ قال: نعم. قال: ماهى؟ قال: ألا تبعث إلى حتى آتيك. قال: إذاً لانلتق! قال: هى حاجتى! ثم ودعه ونهض، فلما ولى أتبعه المنصور بصره، وأنشا يقول:

كلكم طالبِ صيدْ   كلكم يمشى رُوَيدْ
غيرَ عَمرِو بن عُبيدْ (١)

أرأيت كيف يخاطب شيخ المعتزلة أمير المؤمنين المنصور، وكيف يهون من شأن ابنه المهدى، وكيف يزهد فى ماله ويعف عنه، وكيف يتمنى عمرو ابن عبيد ألا يلقى المنصور فلا يسخط عليه، وكيف يشيعه بنظرة الإجلال؟ إنه العلم يرفع أقدار الرجال، والزهد يكسب نفوسهم عزة. نشأ شيوخ المعتزلة فى هذا الطراز، فأثروا فى سياسة الدولة الأموية والدولة العباسية، من حدود المائة الأولى إلى حدود المائة الثالثة الهجرية، وكانوا إلى ذلك أئمة البيان، وأعلام البلاغة، وكفى أن تعرف أن منهم الجاحظ، والنظام، والزمخشرى، وابن أبى الحديد؛ أولئك العلماء الذين أثرت بفضلهم العربية، وزخرت بحارها، بما خلفوا من مؤلفات واسعة النطاق فى البلاغة والأدب والعلم.

ونستطيع أن نجمل القول فى المعتزلة بأنهم من ذوى الرأى الذين أفسحوا من سلطة العقل، ورجعوا فى كل أمورهم إلى مشورته، ودرسوا الفلسفة دراسة المتبصر، وأمدوا بها علم الكلام، وأحاطوا فهماً لأسرار اللغة، واستظهاراً لمأثورها، وتناولوا بالتفسير والتشريح والتحليل آيات القرآن والأحاديث، وامتدت آراؤهم فى جو السياسة فحلقت به وأثرت فيه حيناً من الدهر، وكان لايباريهم أحد فى قوة الحجة، وقد وضعوا أصول علم الكلام والجدل والمناظرة والبلاغة، وملئوا الدنيا دويا وعلما، وخلقوا الفرصة للعلماء المخالفين لهم، فألفوا الكتب في الرد عليهم ومجادلتهم ونقض آرائهم، فكان الأدب مديناً لهم مادامت العربية وما دام لها أدباء.

وهنا ملاحظة رأيت أن أدلى بها قبل أن أتجاوز الكلام عن المعتزلة عامة،

(١) المسعودى الجزء الثانى صفحة ٢٤٢

إلى الكلام عن بشر بن المعتمر خاصة ، وهى أن علماء المعتزلة تفرقوا فى الأقاليم كما تفرق علماء النحو ، فكان هناك معتزلة بغداد ، ومعتزلة البصرة ، كما كان علماء الكوفة وعلماء البصرة فى النحو ، وكان الجدل يستحر بين طائفتى المعتزلة ، كما كان يستحر بين البصريين والكوفيين من النحويين ، غاية الأمر أن الباحث المتبصر سينتهى إلى القول بأن معتزلة بغداد كانوا أقدر على الجدل ، وأقرب إلى الفلسفة ، وأعظم سلطاناً وأعلى مقاما عند الخلفاء ، وأميل إلى الصرامة والتزمت من معتزلة البصرة ، الذين كانوا أميل إلى الأدب والبلاغة ، وأكثر إنتاجاً وتاليفاً ، وأقرب إلى روح التسامح والمرح ، وأبقى ذكراً فى سجل التاريخ ، ولعلك تطمئن إلى هذا الرأى إذا عرفت أن بشر بن المعتمر وأحمد بن أبى دوّاد وثمامة بن أشرس من معتزلة بغداد ، وأن واصلا والنظام والجاحظ من معتزلة البصرة

وسنتبع القول فى رئيس المعتزلة ببغداد :

بشر بن المعتمر

هو أبو سهل « بشر بن المعتمر » الهلالى ، كان مولى لبنى هلال بن عامر ، ذكره الجاحظ فقال عنه : إنه « كان خاصاً بالفضل بن يحيى ، فقدم عليه رجل من مواليه ، وهو أحد بنى هلال بن عامر ، فمضى به إلى الفضل ليكرمه بذلك ، وحضرت المائدة ، فذكروا الضب ومن يأكله ، فأفرط الفضل فى ذمة ، وتابعه القوم بذلك ، ونظر الهلالىّ ، فلم ير على المائدة عربيا غيره ، وغاظه كلامهم ... » [1]

وهذا الخبر وإن دل على وفاء بشر لمواليه من العرب ، وبرّه بهم ؛ إنما يدل أيضا على تنقص الفضل ومن معه من أبناء الفرس من شأن العرب ، فى معرض استهجان عادة كانت شائعة بين بدو الجزيرة أمام أحد أبنائها وهى أكل الضب ، حتى تغيظ العربى ، وأدار بصره فيهم ، فلم يجد بينهم عربيا غيره .

وقد زعم ابن منظور أنه مولى لبنى النضر فقال : « بشر بن المعتمر النضرى ،

---

(١) الجزء السادس من الحيوان صفحة ٢٨

أبو سهل ، كان أبرص ، ويذكر أيضا أنه كان « أحد رؤساء المتكلمين ، وكان راوية ، ناسبا ، له الأشعار ، فى الاحتجاج للدين ، وفى غير ذلك ، ويقال : إن له قصيدة فى ثلثمائة ورقة ، احتجّ فيها ، وقصيدة فى الغول ، وذكر الجاحظ أنه لم ير أحداً أقوى على المزدوج ، والمخمس منه » (١) « وأنه كان فى ذلك أكثر وأقدر من أبان اللاحق » (٢) ويذكر المرتضى « أن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجيبيه » (٣) أى كانوا من تلاميذه . ويعزز ما جاء فى اللسان من أن له قصيدة فى ثلثمائة ورقة ما جاء فى مرجع آخر من أن « له قصيدة أربعين ألف بيت ، ردّ فيها على جميع المخالفين » (٤) . وقال عنه أبو القاسم البلخى : « إنه من أهل بغداد ، وقيل من أهل الكوفة » والظاهر أنه ولد وترعرع فى الكوفة ، ثم ارتحل إلى بغداد ، وبها نشر مذهبه فى الاعتزال ، وتتلمذ له من تتلمذ ، مثل أحمد بن أبى دواد وثمامة بن أشرس وأبى موسى المزداد ، وكان شيخه من المعتزلة ، معمر بن عباد السلمى ، وعده ابن المرتضى من طبقة النظام وأبى الهذيل والجاحظ .

ولم يكن أثيراً لدى الرشيد ، أو حظيا عنده ، مع أنه رئيس معتزلة بغداد قاطبة ، وله مكانة لا تجحد فى العلم والحجة والأدب ، وقد يعزى هذا إلى أنه كان مختصا بالفضل بن يحيى البرمكى ، أو لاتهامه بأنه من الرافضة ، أو لتشيعه لسيدنا على ، أو لبرصه ؛ والبرص من العاهات المنفرة ممن يصاب به . وسواء كان هذا أو ذاك ، فإن واحدة مما تقدم لتكفى للحيلولة بينه وبين ما كان ينتظر لمثله من حظوة وتكريم عند الرشيد ، وكانت وفاته سنة ٢١٠ هـ

مذهبه

لم تبسط المراجع التى استلهمنا منها الرأى عن بشر القولَ فيه ، ولم تخلع عليه من حلل اللفظ مثل ما خلعت على تلاميذه ، إلا أن الواقع أنها كلها نعتته بالزعامة ، ورجعت القول فى أصول المسائل إليه ، فقد نسب إليه القول بأن الله

(١) الجزء الرابع من اللسان صفحة ٢٦٨ و ٢٦٩
(٢، ٤) أمالى المرتضى الجزء الأول صفحة ١٣١
(٣) راجع الانتصار صفحة ١٩٤

قادر على لطف لو فعله بالكافر لآمن طوعاً ، وأنه لو تفضل بخلق العقلاء فى الجنة لكان أولى .

وهو صاحب القول بنظرية التولد ، وفحواها أن الأفعال التى تنتج متولدة من فعل الإنسان ، هى أيضاً من فعله ، فإذا مزجت سائلا بآخر ، فنتج للمزيج لون جديد يخالف لون كل من السائلين قبل المزج ، يقال إنك الذى فعلت المزج ، وفعلت اللون الحادث من المزج ؛ وإذا أصاب العين رمد لم تبصر معه ، فأزال الطبيب الرمد ، يقال إن الطبيب هو الذى أوجد السلامة فى العين ، وأوجد ما يترتب عليها من الإبصار ، وجملة القول ، أنه يصح من الإنسان أن يفعل الألوان والطعوم والروائح والرؤية والسمع وسائر الإدراكات على سبيل التولد إذا فعل أسبابها ، وكذلك قوله فى الحرارة والرطوبة واليبوسة ،[1]

ويرى أن الله يغفر الذنوب الكبائر لمن يجترحها بشرط أن يتوب عنها ولا يعود إليها ، « فإنه قبِل توبتَه بشرط ألا يعود »[2] فإن رجع فى توبته ، أخذه الله بما ارتكب أولا وآخراً ، لأن التوبة إنما تستوجب الغفران إذا كانت رادعة عن العودة إلى الإثم والمعصية ، وله غير ذلك أقوال أخرى فى علم الكلام انفرد بها ، ولم نر ضرورة ملزمة للتعرض إلى ذكرها ، وإنما أوردنا من أقواله ما يعزز القول بأنه كان من أئمة المعتزلة وذوى الرأى فيهم .

ومن الأقوال التى نسبت إليه ماورد ذكرها فى كتب الفلاسفة فتأثر بها وأدمجها فى مسائل علم الكلام ، كمسألة التولد ، فإنها من صميم مسائل الفلسفة ، وقد تأثر بها بشر حينما تقرر عند المعتزلة القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه ، فزاد عليها بأنه يخلق أيضاً ما يتولد من هذه الأفعال . وقد ذكر عبد القاهر البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق »[3] المسائل التى نسبت إلى بشر ، وأسماها فضائح ، ثم عرض إليها ابن الخياط المعتزلى فى كتاب « الانتصار »[4] بالتأييد

---

(١) الفرق بين الفرق صفحة ١٤٣

(٢) الملل والنحل على هامش الفصل صفحة ٨٣

(٣) صفحة ١٤١ — ١٤٥ ، حيوان ٦ (٤) حيوان ٦ صفحة ٦٢ — ٦٥

وأبان وجه الرأى فى كلام بشر، ونفى اللوم عنه، فارجع إليهما إن أردت المزيد.

وحكى ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة، أن بشرا كان مع اعتزاله متشيعا لسيدنا على، وكان يقول - وتابعه فى ذلك سائر معتزلة بغداد - بتفضيل علىّ على سيدنا أبى بكر، إلا أنه يحكم بصحة خلافته، لأن عليا بايعه غير مكره.

وقد ألّف بشر التصانيف فى الردّ على معتزلة البصرة، كأبى الهذيل، والنظام، وأبى بكر الأصم، كما ألف الكتب أيضاً فى الرد على الرافضة، والمرجئة، والخوارج.

وقد كان قاسيا فى تصويره لأبى الهذيل، فقد صبه فى قالب الرجل الذى لا يدين بمبدإ. ولا يدافع عن معتقد، ورماه بحب الظهور، والظفر برضا الجمهور، قال الجاحظ: «وكان بشر يقع فى أبى الهذيل، وينسبه إلى النفاق، فقال وهو يصف أبا الهذيل: لأَنْ يكون لا يعلم وهو عند الناس من العلية، أحب إليه من أن يكون من العلية وهو عند الناس من السفلة، ولأن يكون نبيل المنظر سخيف المخبر، أحب إليه من أن يكون سخيف المنظر نبيل المخبر، وهو بالنفاق أشد عجبا منه بالإخلاص، ولَباطل مقبول أحب إليه من حق مدفوع»[1]

أدبه:

لم يكن بشر من أئمة المعتزلة فحسب، ولكنه كان أرواهم للشعر[2] - كما حدث الجاحظ - «وكان شاعراً. وأكثر شعره على المسمَّط[3] والمزدوج» كما

(١) أمالى المرتضى ١ ص ١٣٢

(٢) حيوان ٦ ص ١٣٥

(٣) الفهرس لابن النديم صفحة ٢٣٠ - والمسمط من الشعر: ما قفى أرباع بيوته، وسمط فى قافية مخالفة، ويقال: قصيدة مسمط وسميطة كقول امرىء القيس:

مرابع من هند خلت ومصايف ... يصيح بمغناها صدى وعوازف

وغيرها هوج الرياح العواصف ... وكل مسف ثم آخر رادف

بأسحم من نوء السماكين هاطل

اﻫ من جزء ٩ لسان صفحة ١٩٣

كان من أهل الجدل، وأصحاب المقالات فى البلاغة والأدب، عالما بالأنساب، حافظا للسير والأخبار، دارسا لطبائع الحيوان، ملما بما كان يشحن أذهان العرب من الأساطير والخرافات.

وسنعالج القول فى شعره ونثره ومناظراته، لعل هذه الأمور الثلاثة إذا أرضينا فيها البحث أن تكشف عما له من أثر فى الأدب، وإن كان ما لدينا من نصوص شعره ونثره ومأثور قوله، أقل مما كنا نطمع فى الوصول إليه لنجعله أداة البحث وندير الرأى حوله:

شعره:

لم يتخذ بشر الشعر ليصوِّر به عاطفة تجيش فى صدره، أو ليزين به فى مراتع العبث والمجون التى كانت شائعة فى عصره، أو ليتزلف به فى مدح خليفة حتى يستندى كفه، وإنما اصطنعه ليقارع به خصومه فى الرأى، ويحتج به عليهم، ويدافع عمن يميل إليهم؛ ولعله استجاب إلى الشعر دون النثر، ليستعين بسهولة حفظه، وحسن جرسه، وموسيقية نظمه، على ظهور حجته على خصمه، وشيوع قوله، وسهولة روايته، وبقائه فى الأذهان.

ولهذا يسهل علينا إيجاد السبب لرغبته فى الشعر المزدوج والمخمس خاصة، وإيثارهما على القافية المضطردة، فإن الشعر المزدوج أو المخمس مما ييسر على الشاعر النظم، ويطلقه من قيود القافية الواحدة، و يرخى له عنان القول، حتى قيل إ نظم قصيدة واحدة فى أربعين ألف بيت، أوفى ثلثمائة ورقة، على إحدى الروايات. وإن علماء المعتزلة كانوا يستمدون من العقل حججهم وبراهينهم، وكانو يسلكون فى التدليل على آرائهم مسالك ضيقة، فلوسار بشر فى برهاناته على التزام قافية واحدة، لشرَّد منه هذا التقييد كثيرا من المعانى، فيسقط البرهان، وتخفى معالم الدليل، أما التحلل من قيود القافية الواحدة، فإنه يمكّنه من إيضاح حجته، والتغلب على خصمه، وكان بشر فى هذا الصدد أهدى إلى الصواب من أبى العلاء الذى جاء بعده، والتزم فى فلسفته واجتماعياته ونقده ما لا يلزم من القافية، فجاء بالغريب، وفتك بكثير من المعنى فى سبيل التكلف والتعسف.

ولا تطمع أن تجد فى شعر بشر غذاءً لعاطفتك ، أو ترويحا لنفسك ، فإنه كما قدمنا لم يسلك مسالك أهل العاطفة والخيال ، ولم يتجه بشعره كما تشتهى الغرائز ويوحى جمال الكون وأسرار الطبيعة ، ولكن معظم شعره من النوع التعليمى ، الذى يخاطب العقل ، ويهدى إلى الحجة ، ويبرأ من خصومه من أهل الفرق :

فهذه مقطوعة من شعره ، يطعن فيها على هشام بن الحكم شيخ الرافضه ، ويبرأ منهم ومن جهم بن صفوان ، ويفضل عليهم شيخه عمرو بن عبيد ، ويقال إنه قالها لما حبسه الرشيد لاتهامه بقول الرافضه :

ما بالُ مَنْ ينتحلُ الإِسلاما متخذاً إمامه هشاما

فنحن لا ننفك نلقى عارا نفِرُّ من ذكرهمُ فرارا

ننفيهِمُ عنا ولسنا منهمُ ولاهمُ منّا ولا نرضاهمُ

إمامُهمْ جَهْمٌ وما لجهمِ وصحب عمْرو ذى التقى والعلم

لسنا من الرافضةِ [1] الغُلاة ولا من المرجئة الجفاةِ

لا مفرطين بل نرى الصدِّيقا مُقدَّماً ، والمرتضى الفاروقا

وهذه أبيات أخرى من شعره المزدوج ، يمدح بها سيدنا عليا ، ويذكر فضله على الخوارج ، ويمثلهم ببعض الحشرات الخبيثة ، وفيها يورد بعض الحكم والأمثال ، وهى : [2]

ما كان من أسلافهم أبو الحسَنْ ولا ابنُ عباسٍ ولا أهلُ السُّنَنْ

غُرٌّ مصابيحُ الدجَى مناجِبُ أولئك الأعلامُ لا الأعارِبُ

كمِثل حُرْقوص ومن حرقوص بَقْعة قاع حولها قَصِيصُ [3]

(١) هم طائفة من الشيعة رفضت إمامة زيد بن على لأنه لم يبرأ من أبى بكر وعمر

(٢) نقلا عن الحيوان الجزء السادس صفحة ١٥٥

(٣) الحرقوص : دويبة صغيرة مثل القراد ، وقيل هو من البراغيث . والبقعة (بفتح الباء) : مكان يستنقع فيه الماء . والقصيص : جمع مفرده قصيصة : وهى شجرة تنبت فى أصلها الكمأة ويتخذ منها الغسل

ليس من الحنظل يُشتارُ العسلْ ولا من البحور يُصطاد الورلْ (١)

هيهات ! ما سافلة كعاليه ما معدن الحكمةِ أهلُ الباديه

ولبشر قصيدتان رائيتان ، إحداهما مضمومة القافية والثانية مكسورتها ، وتقع الأولى فى ستين بيتا ، وتقع الثانية فى سبعين بيتا ، ذكرهما الجاحظ فى الجزء السادس من كتاب الحيوان ، وقال فى مقدمة ذلك : « أول ما نبدأ - قبل ذكر الحشرات ، وأصناف الحيوان والوحش - بشِعرِى بشر بن المعتمر ، فإن له فى هذا الباب ، قصيدتين ، قد جمع فيهما كثيراً من هده الغرائب والفوائد . ونبه بهذا على كثير من الحكمة العجيبه ، والمواعظ البليغه » (٢) ثم شرحهما شرحا وافيا ، واستطرد فى الشرح على عادته إلى سرد طباع الحيوان ، والاستشهاد بالشعر والنثر ، وذكر بعض القصص الماجنة أحيانا ، والخرافية أحيانا أخرى .

والحق أن بشراً قد دل بهاتين القصيدتين على غزارة علم وسعة اطلاع وكثرة حفظ لأنواع الحيوان والحشرات وتفهم طباعها ومعرفة خصائصها ، ولم يفته فى آخر القصيدة الأولى أن يذكر الرافضة والإباضية والنابتة وينحي عليهم بالطعن والثلب ، كقوله :

إنى وإن كنت ضعيف القوى فاللهُ يقضى وله الأمر

لست إباضياً غبيًّا ولا كرافضىٍّ غرّه الجفرُ

كلاهما وسع فى جهل ما فعاله عندهما كفر

لسنا من الحشو الجفاة الألى عابوا الذى عابوا ولم يدروا

قلوبهمْ شتى فما منهم ثلاثة يجمعهم أمر

إلا الأذى أو بهت أهل التقى وإنهم أعينهم خُزْر

فهو فى هذه القصيدة والتى تليها يذكر الأعاجيب من طباع الحيوان والحشرات ، وهذه أبيات من قصيدته الأولى أيضاً نذكرها على سبيل المثال :

---

(١) الورل : دابة صحراوية خفيفة الحركة ليس شىء من الحيوان أقوى على أكل الحيات وقتلها منه . اه حيوان الجاحظ

(٢) صفحة ٩١

وحكمة يبصرها عاقل ليس له من دونها ستر
جرادة تخرق متن الصفا وأبغث يصطاده صقر
سلاحهُ رُمْح فما عنده وقد عراه دونه الذعرُ
والدب والقرد إذا علّما والفيلُ والكلبةوالبغرُ (١)
يحجم عن فرط أعاجيبها وعن مدى غاياتها السحر
وظبية تخضمُ (٢) فى حنظل وعقرب يعجبها التمر
وعضرفوط (٣) ما له قبلة وهدهد يكفره بكر

فهو يبدى عجبه من حكمة الخالق لهذه الدواب والطيور ، فقد جعل الجرادة على صغر حجمها قادرة على خرق الحجر ، وجعل الطير المسمى الأبغث ـ وبدنه أعظم من بدن الصقر . وهو أشد منه ومنقاره كسنان الرمح ـ يستخزى للصقر ويهرب منه ، فالمسألة فى ذلك ليست فى عظم الجسم وقوته ، ولكن الخالق ركز فى الصقر هيبة جعلت الأبغث الضخم القوى يخشاه ويفر منه ، ثم يذكر الحيوان القابل للتعلم ، وهو القرد والدب والفيل والكلب وصغار الغنم ، وأنها تأتى إذا علّمت بالعجب العجاب ، ثم يمضى فيذكر أن من طباع الظبية حب الحنظل ، ومن طباع العقرب حب التمر ، فاعجب كيف أن الظبية تمضغ الحنظل وتستلذه وتستحليه على مرارته . ويعود فيذكر أن العضرفوط والهدهد من طبعهما أن أن يهيما على وجهيهما ، وفى أثناء هذا يشير إلى مسألة فى علم الكلام ، وهى أن بكراً هذا كان يقول فى هدهد سليمان ، إنه ترك موضعه وسار إلى بلاد سبأ ، ثم أطرف سليمان بخبر بلقيس ، ولكن إحسانه فى الثانية ، لا يعفيه من الذنب فى فى الأولى ، ولا يكون ذنبه الذى ارتكبه بترك موضعه ، إحساناً بعثوره على

---

(١) البغر : صغار الغنم

(٢) تخضم : تقطع وتمضع بأضراسها ، والخضم يكون فى قطع اللين ، أما القضم فهو قطع اليابس .

(٣) العضرفوط : دويبة يظن أنها مطية الجن

بلقيس والوقوف على حال قومها ، فحكم على الهدهد بالنفاق والكفر ، فعرَّض به بشر وانتقده ، لأنه رأى أن البهائم والطيور ترتكب الذنوب وتأثم .

وفى القصيدة الثانية يميل إلى التنبيه إلى العظة والحكمة التى أودعها الله فى الوحوش والحشرات وما فيها من آية دالة على قدرة الله ، ويمجد العقل خير تمجيد ، ويذكر أنه الهادى فى العسر واليسر ، والحاكم الذى يستنبط الغائب من الشاهد ، فيقول مثلا :

والحشراتُ الغُبْرُ منبثة — بين الورى والبلد القفر
وكلها شر ، وفى شرها — خير كثير عند من يدْرِى
لو فكَّر العاقلُ فى نفسه — مدة هذا الخلق فى العمر
لم يَرَ إلا عجباً شاملا — أو حجة تنقشُ فى الصخر
فكم ترى فى الخلق من آية — خفيّة الجُسمان فى قعر
أبرزها الفكرُ على فكرةٍ — يحار فيها وضحُ الفجر
لله دَرُّ العقل من رائدٍ — وصاحب فى العسر واليسر
وحاكم يقضى على غائب — قضيةَ الشاهد للأمر
وإن شيئاً بعضُ أفعالِه — أن يفصل الخير من الشرِّ
لذو قوى قد خصه ربه — بخالص التقديس والطهرِ

على أن بشراً على غزارة علمه فى معرفة طبائع الحشرات والحيوان وصفات أجسامها ، قد تأثر فى بعض ما نظمه عن الحيوان بما كان يشيع فى عصره من أقوال لاتستند إلى علم أو تجربة ، فهو يذكر فى قصيدته الثانية التى نحن بصدد إبداء الملاحظات عليها ، أن الجمل ليست له مرارة ، وأن خصيته وشقشقته لاتوجدان عند حدوث الموت والنحر ، وأن الفرس لاطحال له ، وأن جوف الثور فيه عظم ، فيقول :

والمُـقْرَمُ (١) المعلم ما إنْ له — مرارة تسمعُ فى الذكر

---

(١) المقرم كمكرم : البعير لا يحمل عليه

وخصية تنصل من جوفه عند حدوث الموت والنحر
ولا يرى بعدهما جازرٌ شقشقة مائلة الهدر
وليس للطَّرف طحالٌ وقد أشاعــه العالِمُ بالأمر
وفى فؤاد الثور عظم وقد يعرفه الجازِرُ ذو الخبر

وقد علق الجاحظ على هذه الأبيات بكلام نورد إليك بعضه لما فيه من فكاهة مليحة، قال: « لقد تنازع بالبصرة ناس فأطبقوا جميعاً على أن الجمل إذا نحر لا توجد له خصية ولا شقشقة، فلم أجد ذلك عَمل فى قلبي مع إجماعهم على ذلك، فبعثت إلى شيخ من جزارى باب المغيرة فسألته عن ذلك فقال: بلى، لعمرى إنهما ليوجدان إن أرادهما مريد، وإنما سمِعَت العامة كلمة وربما مزحنا بها فنقول: خصية الجمل لا توجد عند منحره، أجل والله ما توجد عند منحره وإنما توجد فى موضعها (١) » اه بتصرف

أما بعد فإننا نكتفى من الحديث عن شعر بشر بما أوردناه، ومن أراد أن يشبع رغبته من دراسة هاتين القصيدتين فليرجع إلى الجزء السادس من كتاب الحيوان للجاحظ.

نثره:

ليس لدينا الآن من نثر بشر، أكثر من صحيفته الذائعة، التى لم نر أمهات الكتب القديمة فى الأدب جاءت خلواً منها، كما أن لدينا عبارات قصيرة عثرنا عليها منثورة فى أثناء الكلام عن البلاغة أو القلم، ولكنها لا تمد الكاتب بما يرغب فيه من دقة البحث والتحليل. فلنورد صحيفته، ثم نعود إلى التحدث عنها بما يعن لنا فى إيجاز، قال الجاحظ فى البيان والتبيين: (٢)

مر بشر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة. فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من

---

(١) حيوان ٦ ص ١٤٩
(٢) الجزء الأول صفحة ١٠٤

النظارة . فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحاً . ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن نفسك تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسباً ، وأحسن فى الاستماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ . وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، والتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا ، وخفيفا على اللسان سهلا . وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه ، وإياك والتوعّر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك . ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما ، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما . وكن فى ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفا ، وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامى والخاصى . فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، على أن تُفهم العامة معانى الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام . . . فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها وفى نصابها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها ،

نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها ؛ فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد . وإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا مطبوعا ، ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك . فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة ؛ وتعصى عليك بعد إجالة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك ، أو سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة ، إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرق . فإن تمنع عليك بعد ذلك غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك ، وأحفظها عليك ، فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب ، والشىء لا يحن إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات ، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة . كما تجود به مع المحبة والشهوة فهكذا هذا . ، قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لى : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان .

فقد رسم الوسائل التى يجرى عليها مريد الخطابة ، وأرجعها فى جملتها إلى ما يأتى :

(١) تخير الوقت المناسب ، حين تتمتع النفس بالنشاط وفراغ البال .

(٢) التحذير من التوعر ، الذى يؤدى إلى التعقيد ، وهو يؤدى إلى ضياع المعانى ، ورداءة الألفاظ .

(٣) التماس اللفظ الشريف للمعنى الشريف

(٤) موافقه الكلام للحال وما يجب لكل مقام من المقال .

(٥) إن البليغ التام هو الذى يبلغ من بيان اللسان ما يفهم به العامة معانى الخاصة فى الألفاظ الواسطة

(٦) خير لمن يكره اللفظ على غير موضعه ، ويتعصى عليه القول بعد إجالة الفكر ، أن يتركه حتى يعاوده نشاطه ، فإن رجع إليه وامتنع عليه القول بعد ذلك ، كان الأولى به أن يترك الكتابة ويحترف صناعة أخرى يكون له إليها ميل

وهـذه الإرشادات القيمة التى ابتكرها بشر ابتكاراً ، تصلح أن تكون دستوراً لمن يريد الكتابة أو الخطابة على السواء ، بل هى وسائل توصل إلى حذق الكتابة أكثر من الخطابة ، إلا أنهـا تدل على أن لبشر قدما راسخة فى النقد ، وأنه ذو بصر فى فن الأدب كتابة وخطابة شأنه فى الشعر ، وللخطابة مقوّمات ودواع أخرى غير ما ذكر بشر ، وهذا الكلام يبين أن بشراً درس الخطابة دراسة علمية ، ولكننا لم نسمع أنه كان من خطباء عصره . ويغلب على الظن أن هـذه الصحيفة أثر من الدراسة الشخصية لبشر ، أى أنه لم ينقل منها شيئا عن أصول الخطابة عند اليونان ، لأن بشرا جرى فى مساق الكلام عن الخطابة ، على غير الطريق الذى سلكه أرسطو فى كتاب الخطابة ، كما أن التقديم الذى أورده الجاحظ لهذه الصحيفة ، من اعتراف إبراهيم بن جبلة بشدة احتياجه لدراسة الصحيفة أكثر من تلاميذه ، يدل على المكانة الأدبية التى كانت لبشر فى بغداد ، وأنه كما كان فيها زعيم المعتزلة ، قد كان له زعامة فى الأدب

ولم أقرأ لبشر من النتاج الأدبى الفنى شيئاً مطولا غير صحيفته تلك ، ويخيل إلى أنه كان يميل إلى وضع القوانين للفنون المختلفة شأن الأئمة والزعماء ، فكتابته كشعره تشريع أو تعليم .

ولقد كان بشر مطيلا فى صحيفته تلك ، ومسهباً فى ذكر وجوه الرأى فيها ، ولكنه فى موضع آخر يقصر ويوجز كل الإيجاز ، فى موضوع مشابه لموضوع الصحيفة ، أى متعلق بالكتابة والخط والقلم ، فقد قال « القلب معدن ، والحلم جوهر ، واللسان مستنبط ، والقلم صانع ، والخط صنعة [1] » ، فأورد فى سطر واحد ، الكلام عن أمور خمسة ، فضرب المثل فى التطويل والإيجاز ، فدل بذلك على طواعية قلم ، ورسوخ قدم .

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٨

جدله ومناظراته :

اتخذ المعتزلة ـ كما أسلفنا ـ الجدل والمناظرة سلاحا يشهرونه فى وجوه خصومهم ، ويدحضون به حججهم ، وبرعوا فى استعماله براعة دلت على عقل مفكر ، ولسان فصيح ، وعلم عزيز ، ويخيل إلى أنه لوكان نظام المحاماة فى القضايا جاريا فى عهد العباسيين ، لكسب المعتزلة كل القضايا التى يتولون الدفاع فيها ، وإليك مناظرة جرت بين بشر وأبى العتاهية ، قصد فيها بشر إلى تزييف زهد أبى العتاهية وإظهار سوء قصده ، فأخذ عليه منافذ القول ، وأخزاه وأفحمه ، ووصل إلى ما يريد أن يفهمه أبو العتاهية من رأى بشر فيه ، فيتقبله مذعنا ، دون أن يجد له حيلة فى الرد عليه ، أو نقض ما يقول ، وإليك المناظرة :

« ذكر أحمد بن إبراهيم بن اسماعيل أن بشر بن المعتمر قال يوما لأبى العتاهية: بلغنى أنك لما نَسَكْتَ جلست تحجمُ اليتامى والفقراء للسبيل ، أكذلك كان ؟ قال : نعم ؛ قال له : فما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أضع من نفسى حسبما رفعتنى الدنيا ، وأضع منها ليسقط عنها الكبر ، وأكتسب بما فعلته الثواب ، وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصة ؛ فقال له بشر : دعنى من تذليلك نفسك بالحجامة ، فإنه ليس بحجة لك أن تؤدبها وتصلحها بما لعلك تفسد به أمر غيرك ؛ أحب أن تخبرنى : هل كنت تعرف الوقت الذى كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم ؟ قال : لا ؛ قال : هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن يخرجه على قدر طبعه مما إذا زدت فيه أو نقصت منه ضر المحجوم ؟ قال : لا ؛ قال : فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين ! » (١)

وله مناظرات أخرى فى مسائل علم الكلام ، تجد بعضها فى الجزء السادس من الحيوان ، وتجد البعض الآخر فى أمالى المرتضى فارجع إليها إن شئت

حسن علو الله

---

(١) ج ٤ الأغانى ص ٧

الجاحظ

بقلم عبد الستار سلام

المدرس بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية للبنات

لا نحاول فيما نكتب عن الجاحظ أن نلم بجميع نواحيه العلمية والأدبية والفلسفية ، فذلك مالا سبيل إليه فى هذا المقام ؛ كما لا نحاول أن نحلل تلك الشخصية الفذة ، فليس من السهل تحليلها والاحاطة بجميع الأسباب والملابسات التى كان لها أثر فى تكوينها . وإنما نريد أن نلقى شعاعا من الضوء ننير به الطريق لمن أراد أن يعرف شيئاً عنه من الناشئين أو الطلاب . وعلى من أراد أن يدرسه دراسة وافية أن يرجع إلى كتبه ومصنفاته فيقرأها بتؤدة وروية ، ثم يحكم على مقتضى فهمه وإدراكه ؛ وحينئذ يتجلى له مكانة الجاحظ وعبقريته وأدبه وحكمته وعلمه وفلسفته وفصاحته وبلاغته وجده وهزله

هو نادرة البطون ، وهبة الأجيال والقرون ، فيلسوف المتكلمين ، وأحد أساطين العلم المعدودين ، ورجالات الأدب المبرزين ، صاحب التصانيف الممتعة فى كل فن ، والرسائل القيمة فى شتى الأغراض ومختلف الشئون .

أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثى الكنانى البصرى ويقطع كثير من المحققين بأنه كنانى بالنسب لا بالولاء ، ويؤيدون هذا الرأى بما جرى عليه في كتبه ومؤلفاته من شدة تعصبه للعرب وتمدحه بفضائلهم .

وكان على أدبه وفضله دميم الخلق جاحظ العينين ، والجحوظ : النتوء ، ولذلك قيل له الجاحظ ، كما كان يقال له أيضاً الحدقى لذلك

نشأته وتربيته

ولد الجاحظ بالبصرة حوالى سنة ١٦٠ هـ فى خلافة المهدى ونشأ بها ، وكانت فى ذلك الوقت كعبة العلماء وحلبة الفقهاء ومنتدى الأدباء ومباءة الرواة والمحدثين واللغويين ، وحاضرة البر والبحر ، وقرارة المربد ؛ والنهضة العلمية الأدبية لا تزال فى إبانها ، والعلوم والمعارف أقوى أسباب الاتصال بالخلفاء والوزراء والولاة ؛ فوجد بيئة صالحة للتعلم ، ومجالا واسعاً للدرس ، وحافزاً قوياً للتحصيل ،

ومواهب نادرة لا يزيدها الكد والاستطلاع إلا قوة ونماء ؛ فأكب على العلم وتفرغ له ، فلم يترك فناً من الفنون ، ولا علماً من العلوم المعروفة فى عهده إلا ضرب فيه بسهم وأخذ منه بأكبر نصيب .

ولقد أدرك طبقة أبى عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى ، وأبى الحسن الأخفش ، وعنهم وعن غيرهم من شيوخ العلم ورواة الأدب أخذ اللغة والأدب والنحو

ثم لازم أستاذه أبا إسحاق إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى المشهور ، وعليه تخرج فى علم الكلام ومذاهب الاعتزال

وكثيراً ما كان يذهب إلى مربد البصرة وهو إذ ذاك أشبه بسوق عكاظ فى الجاهلية ، يلتقى فيه الشعراء والخطباء والرواة والنسابون ويعرضون ثمرات قرائحهم ونتاج أفكارهم ، فيأخذ الفصاحة عنهم شفاهاً

ولقد أولع بالكتب وقراءتها أو استظهارها ؛ قال أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ؛ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر »

وذكر المبرد « أنه ما رأى أحرص على العلم من ثلاثة : الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، وإسماعيل بن إسحاق القاضى » ثم قال : « فأما الجاحظ فإنه كان إذا وقع بيده كتاب قرأه من أوله إلى آخره أى كتاب كان »

وكان يحفظ كثيراً مما يقرأ ، ويستوعب كل ماقرأ أو سمع فهماً وإدراكاً ، فلا يكاد ينتهي من قراءة كتاب حتى يكون قد ألم بما فيه

وقد خالط كثيراً من مترجمى الفرس والسريان ، وقرأ جميع ما ترجم فى أزمان المنصور والرشيد والبرامكة والمأمون ، فأحاط بجميع الثقافات المختلفة : من عربية وفارسية ويونانية وهندية ؛ فكان لذلك أثر واضح فى ثقافته وإنتاجه ، فقد مزج الفلسفة بالأدب والفكاهة ، كما غلب عليه مذهب المعتزلة فى الكلام

ولقد أقام الشطر الأول من عمره بالبصرة باحثاً مستطلعاً ، وكان إذا أعوزه

بحث أو استقراء أو استكمال معرفة انتجع بعض المدائن الإسلامية المعروفة ، للقاء العلماء ومباحثة الرواة والأدباء ، ثم يعود وقد ملأ وطابه بما أراد من علم وأدب ؛ ولعل ذلك من أسباب كتابته فى السياسة والاجتماع

وكانت إقامته فى البصرة إقامة المترفين ؛ لعلمه وأدبه وذكائه وفطنته ، مما حببه إلى الولاة والأعيان ورؤساء الموالى ، فأغدقوا عليه العطايا والمنح ، بسبب ما كان يصنفه لهم من الرسائل والكتب التى كان يؤيد فيها مذاهبهم وينقض آراء مخالفيهم؛ فيرضيهم بذلك من ناحية ، ويدل على فضله وأدبه وقدرته من ناحية أخرى .

وقد سأله ميمون بن هرون حينما رآه يتقلب فى النعمة : « ألك ضيعة بالبصرة؟» فتبسم وقال : « إنما أنا وجارية لى ، وجارية تخدمها ، وخادم وحمار . . .

« . . . أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبى دؤاد فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد »

ولما جاوز الخمسين من عمره ، كثر انتجاعه إلى بغداد أواخر عهد المأمون ، وكل عصر المعتصم والواثق ، وشطراً من زمن المتوكل ؛ وكان يقيم بها ويتصدر للدرس والمناظرة ، فيلتف حوله العلماء والأدباء ، ويؤمه الطلاب على اختلاف الملل وتباين النحل ، فيرتوون من مناهله ، ويغترفون من بحاره

وكان ينتجع المأمون ووزراءه وكتابه وكبار رجال دولته ، ثم انقطع فى الانتجاع إلى محمد بن عبد الملك الزيات مدة وزاراته الثلاث ؛ وكان يقيم بسر من رأى ؛ وبعد موت ابن الزيات عاد إلى البصرة وفلج بها ، واستمر مدة مفلوجاً ، وكثيراً ما كان يحمل إلى بغداد ليستمتع به ؛ وقد توفى فى إحدى هذه الرحلات سنة ٢٥٥ هـ

عقيدته وأثرها فى أدبه

كانت ملازمة الجاحظ لأستاذه النظام من أسباب نشأته على غراره فى القول بسلطان العقل والاحتكام إليه فى كل شىء ، ووجوب الشك والتجربة قبل الاعتقاد

واليقين ؛ ولقد انتصر لهذا المذهب ببلاغته وبيانه وكتبه ورسائله ، حتى صار لسان المعتزلة فى زمنه

وكان لتقدم النهضة العلمية وازدياد حركة التأليف والترجمة وامتداد الزمن به ، ما هيأ له أسباب الإلمام بالفلسفة اليونانية أكثر مما هيىء لأستاذه النظام ؛ ولذلك تجده قد تغلغل فى الكلام ومزجه بكثير من آراء الفلاسفة اليونانيين ، وانفرد فيه بمقالة وافقه عليها كثير من متكلمي زمانه سموا الجاحظية

ولم يكن فى عهده من يدانيه معرفة واطلاعاً ، لأنه أحاط بجميع ثقافات عصره ، على حين كان العالم لا يبرز إلا فى ناحية واحدة من نواحى العلم والمعرفة : فاللغوى واقف عند حد اللغة ، والأديب لا يتعرض للفلسفة ، والمؤرخ لا يبحث فى الدين ، والفيلسوف لا يضطلع باعباء الأدب ومباحثه

أما الجاحظ فقد اضطلع بأعباء الثقافات كلها ، فكان يروى الأدب وينقده نقد البصير ، وينقل آراء الفلاسفة ويزنها بميزان العقل ، فما استساغ عقله قبله ، وإلا هزأ به وبرهن على خطئه وفساده ؛ ولقد كان من أثره فى الأدب أنه حدد موضوعه ـ وكان قبله شكلا تقريبا ـ وأغزر معانيه ؛ فاتسعت أغراضه ، وتشعبت مباحثه ، ودقت مقاصده .

وأما أثره فى الفلسفة فقد مزجها بالأدب وصاغها صياغة أدبية تقربها إلى الذهن ، وربط أقوال الفلاسفة بأقوال الأدباء ، فإذا بالشعراء يتناولون معانى المتكلمين فى أشعارهم ، بل يعتنقون بعض مذاهبهم الدينية وينتصرون لها . وكان له من أسلوبه الفضفاض ومترادفاته الطلية ما يكفل جلاء الغامض وتقريب البعيد ؛ فأصبحت الفلسفة غذاء للنفس والعقل معاً ، ولقد كانت قبل الجاحظ فى واد والأدب فى واد آخر ، والهوة سحيقة بينهما

علمه وأدبه

قلنا إن الجاحظ قد أحاط بجميع أنواع الثقافة المعروفة فى زمنه ، من إسلامية وفارسية ويونانية وهندية ؛ ولذلك اتفق الرواة والمحققون على أنه لم يكن فى عهده رجل أوسع منه معرفة ولا أمتع أدباً ، ولا ألطف بحثا ، ولا أظرف فكاهة ،

ولا أبلغ عبارة ، ولا أكثر تصنيفاً ، ولا أوضح حجة وبرهانا .

فهو عالم أديب ، وفيلسوف متكلم ، وكاتب مترسل ، وراوية صادق ، ومحاضر فكه ، ومصنف بارع ؛ ويمتاز بأنه أول من وضع أسس كتب الأدب الجامعة ، بتصنيفه كتاب البيان والتبيين ؛ وأول من أسهب القول فى اللطائف والفكاهات ، وأول من وضع كتب المحاضرات الجامعة لكثير من فنون الأدب الكثيرة ، وأول من جمع بين طرفى الجد والهزل ، وعرف عن الحيوان والنبات والموات وأحوال الناس ونظم معيشتهم وعاداتهم وأخلاقهم ما لم يعرفه أحد قبله .

ولذلك يعتبر أحد نوابغ الدنيا الذين لا يجود الدهر بمثلهم إلا بعد أجيال وقرون ، ولقد كان على دمامة خلقه خفيف الروح ، حلو الفكاهة ، طيب الحديث ؛ وكان من الذكاء والفطنة ودقة الحس وصدق الفراسة بحيث لا يشاركه فى ذلك سواه ؛ فقد روى ابن خلكان عن بعض البرامكة أنه قال : « كنت تقلدت السند فأقمت بها ماشاء الله تعالى ، ثم اتصل بى أنى صرفت عنها ـ وكنت كسبت بها ثلاثين ألف دينار ـ فخشيت أن يفجأنى الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فيه ، فصغته عشرة آلاف أهليلجة ، فى كل أهليلجة ثلاثة مثاقيل ، ولم يمكث الصارف أن أتى ، فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة ، فخبرت أن الجاحظ بها وأنه عليل بالفالج ، فأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه فأفضيت إلى باب دار لطيف فقرعته ، فخرجت إلى خادم صفراء ؛ فقالت : من أنت ؟ قلت : رجل غريب وأحب أن أسر بالنظر إلى الشيخ . فبلغته الخادم ماقلت ؛ فسمعته يقول : قولى له : وما تصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل ؟ فقلت للجارية : لا بد من الوصول إليه . فلما بلغته قال : هذا رجل قد اجتاز البصرة وسمع بعلتى فقال أحب أن أراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ . ثم أذن لى ؛ فدخلت وسلمت عليه ، فرد رداً جميلا وقال : من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له ؛ فقال : رحم الله تعالى أسلافك وآباءك السمحاء الأجواد ؛ فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنة ، ولقد انجبر بهم خلق كثير ؛ فسقياً لهم ورعياً . فدعوت له وقلت : أنا أسألك أن تنشدنى شيئاً من شعرك . فأنشدنى :

لئن قدمت قبلى رجال فطالما مشيت على رسلى فكنت المقدما

ولكن هذا الدهر تأتى صروفه فتبرم منقوضاً وتنقض مبرما

ثم نهضت؛ فلما قاربت الدهليز قال: يافتى، أرأيت مفلوجا ينفعه الإهليلج؟ قلت: لا. قال: فإن الإهليلج الذى معك ينفعنى، فابعث لى منه. فقلت: نعم، وخرجت متعجبا من وقوعه على خبرى مع كتمانى له، وبعثت مائة إهليلجة» — ولكنى لا أنسب ذلك إلى صدق الفراسة، بل يغلب أن يكون قد أخذ من حديث الرجل سره أو عرف قبلا ما يعمد إليه أمثاله عادة فى مثل حالته فطلب إليه ما طلب.

وكان الجاحظ قليل الاعتداد بما يجرى عليه الناس من تقاليد وعادات ورسوم؛ ولعل ذلك يرجع إلى اعتداده بنفسه واحتكامه إلى عقله فى كل ما يأخذ به نفسه من عادة أو يصدر عنه من قول وعمل، مما اوقع فيه بعض المتورعين أو الحاسدين، فاتهموه فى عقيدته ورموه بكثير من المثالب

فصاحته وأسلوبه:

كان لمعارف الجاحظ الواسعة وثقافته الجامعة وإلمامه بما حوته الكتب الإسلامية والدخيلة من العلوم والفنون والطبيعيات والألهيات والفلسفة والحكمة والأدب، أكبر الأثر فى نفسه أولا وأسلوبه ثانيا.

فقد مزج كل معارفه بعضها ببعض، بعد أن نسقها ونظم أشتاتها واستخلص منها طائفة خاضعة لإرادته، يستنبط منها ما أراد ويستخدمها كيفما يشاء؛ ثم اتخذ له طريقة طريفة فى التصنيف تحبب القراء فى المطالعة وتغريهم بالاستطلاع، ولم تكن تلك الطريقة مألوفة، بل ابتكرها ابتكارا وانتحلها انتحالا، فنسبت إليه وعرف بها فى كتابته وتصنيفه؛ وتقوم تلك الطريقة على حسن اختيار الموضوعات الشهية التى لم يجنح إليها الكتاب من قبل، أو الموضوعات التى لا يخطر على البال التأليف فيها ـ وسهولة العبارة وانسجامها وكثرة التراكيب المترادفة التى تنطق بقدرته على المزاوجة والترادف والاستطرد لأدنى مناسبة، والخروج من الجد إلى الهزل ومن العلم إلى الأدب والفكاهة، مما يذهب بسآمة القارىء ويكسبه قوة ونشاطاً؛ ثم التغلغل فى البحث حتى يصل إلى الغاية التى يريدها والنتيجة التى قصد إليها.

وقد اقتدى به بعض كتاب عصره، فاعتبر إمام الكتاب فى العصر العباسى الثانى.

كتب الجاحظ ومؤلفاته

ليس بين كتاب العربية من أنتج إنتاج الجاحظ فى التصنيف والتأليف؛ ولقد كان موفقاً فى كتبه ومؤلفاته، فما وضع كتاباً إلا وأقبل الناس على اقتنائه وقراءته ودراسته، ولا يلبث أن يذاع وينشر فى المدائن والأقطار العربية الاسلامية، ثم يصبح حديث الأندية العلمية والمحافل الأدبية وموضوع درس عميق فى حلقات الدروس بالمساجد والمدارس، وموضوع إعجاب بالجاحظ وإكبار لعلمه وأدبه؛ ولقد ساعده على هذا الإنتاج معارفه الواسعة، وذهنه الصافى، وقريحته الفياضة؛ فألف فى كل فن، وصنف فى كل غرض؛ فقد كتب فى الدين والسياسة والاجتماع والأدب والحيوان والنبات والأخلاق وغير ذلك من الموضوعات ما يربى على مائتى كتاب

وأهم تلك الكتب كتاب البيان والتبيين، ويظهر أنه صنفه فى أخريات حياته؛ وهو أول كتاب جامع للأدب، وفيه كثير من الاستطراد الذى يغلب عليه فى كل مصنفاته

ثم كتاب الحيوان، وفيه أكبر دليل على قوة عقله وسمو إدراكه وتحريه الحق والصواب فيما ينسب إلى الحيوان من غرائز وطباع؛ ويظهر أنه قرأ كتب أرسطو فى علم الحيوان ولكنه لم يأخذ قوله قضية مسلمة، بل كان يعمد إلى التجربة والمشاهدة، وكثيراً ما يهزأ برأيه وينسب إليه القصور مرة والكذب أخرى

وكتاب الطفيليين والبخلاء:

قال المسعودى: «وكتب الجاحظ مع انحرافه (أى عن التشيع لأن المسعودى كان يتشيع) تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنه نظمها أحسن نظم، ووصفها أحسن وصف، وكساها من ألفاظه أجزل لفظ؛ وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة؛ وله كتب حسان، منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها؛ لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى. وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء وسائر كتبه فى

نهاية الكمال ، ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه »

ويقول ابن العميد :

« كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً »

رسائله

للجاحظ رسائل ممتعة كثيرة تدل على فصاحته وتفننه فى اختراع المعانى ، وقدرته على أن يجعل لكل رسالة موضوعا علمياً يسهب فيه ويطنب ، ويتهم وينجد ، ويغوص فيه إلى الأعماق فيأتى بدرره ولآلئه ؛ ولا يزال هذا شأنه حتى يتناوله من جميع أطرافيه تناولا لا يترك شاردة ولا واردة من مباحثه وأغراضه حتى يستوعبها بحثاً واستقراء ؛ فهو بذلك إمام الكاتبين وقدوة الباحثين

وإنك لترى الصغير من الأمور يتناوله الجاحظ بالكتابة ، فإذا به قد خلق فيه عظيما ، واشتق منه جليلا ، فغير رأيك واعتقادك ، ورسمه فى ذهنك رسما يخالف صورته الأولى فى نفسك ؛ وعلى العكس من ذلك إذا أراد تصغير العظيم ، فإنك لا تلبث أن تشك فى صدق معرفتك وخطأ فكرك . ولا شك أن ذلك وليد علمه وأدبه وقدرته على الحجة والاقناع

ومن قرأ رسالته فى الحسد ، ورسالة « التربيع والتدوير » ، ورسالته فى الغناء وغير ذلك من الرسائل يجدها كلها ناطقة بصحة ما قلناه

وقد يوجز فإذا بايجاز اللفظ وإطناب فى المعنى ، وإذا بالعبارة القصيرة تنطق بمعان كثيرة ؛ فقد كتب مستنجزاً وعداً :

« أما بعد فقد رسفنا فى قيود مواعيدك ، وطال مقامنا فى سجون مطلك ؛ فأطلقنا (أبقاك الله) من ضيقها وشديد غمها بـ (نَعَم) منك مثمرة أو « لا » مريحة »

فقد جمع فى تلك الأسطر الثلاثة كل المعانى التى يمكن أن تقوم بالذهن فى هذا الموضوع ، مع صدق التمثيل ومرارة التأنيب وتصوير الألم ، وطلب الفصل إما بلا مريحة أو نعم مثمرة .

وفى هذا القدر كفاية .

عبد الستار سلام

أسلوب الجاحظ

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

المدرس بكلية الآداب

« هذه هي المحاضرة التى ألقاها الاستاذ عبدالوهاب حمودة المدرس بكلية الآداب ، فى أسبوع الجاحظ الذى أقامته الجامعة المصرية فى الشهر الماضى بقاعة الجمعية الجغرافية الملكية ؛ ونحن ننشرها هنا احتفاء بها ، ولصلتها بمنهج الادب للسنة التوجيهية الذى ننشره

« والأستاذ حمودة من أبناء دار العلوم الذين لهم مكانة ممتازة بما يقدمون فى الأدب العربي من مباحث جديدة وآراء سديدة .

« وقد كان لابناء دار العلوم فى أسبوع الجاحظ هذا ، وفى أسبوع المتنبي الذى أقامته الجامعة فى العام الماضي ، جولاتهم الموفقة فى الكشف عن نواح جديدة فى الادب العربي تذكر لهم بالثناء والتقدير . » «التحرير»

أسلوب الجاحظ مرآة صافية لطبعه ، وصورة ناطقة لمزاجه ، ورسم وضَّاح لألوان ثقافته .

سجّل فيه خطرات عقله ، ودوّن فيه سبَحات ذهنه ، وسكب فيه مكنونَ نفسه ، وحفظ فيـه أنماطَ حياته ؛ فلا تكاد تقرأ فصلا فى رسالة من رسائله ، إلا تمثل لك بعينيه الجاحظتين تنظران إليك بنظرات فيها جدٌ مشعشع بالهزل ، وحدة مشوبة بالظرف ، تحتهما إبتسامة ساخرة حلوة أحيانا ، ومريرة موجعة أحيانا أخرى

عرف الجاحظ فى أسلوبه بخصائص لم يسبق إليها ، وبأخرى سبقه غيره إليها ؛ فهو فى الأولى مبتدع مخترع ، وفى الثانية مقلد مُتّبع .

أما الخصائص الأولى التى له فيها فضلُ السبق وفخرُ الابتداع فهى :

الخاصة الأولى

مزجه الحقيقةَ الجافة بالفكاهة الحلوة ، والجدِّ المسئم بالضحك المؤنس ، والبرهان المقنعَ بالتهكم الموجع . سبب ذلك هيّن يسير :

(١) كان الجاحظ قصيرا ، جاحظ العينين ، أسود الوجه ، دميم الخلقة ، شيطانيّ المنظر ؛ وهو يعلم من نفسه كلّ هـذا . ومن دأب أمثال هؤلاء — دميمى الخلقة الذين ينغمسون فى غُمار الحياة — أن تكثر فيهم الدُّعابة ، وتشيعَ فيهم الفكاهة ، لأنهم عرضة لها فى كل حين ؛ فلا بد لهم إذن من سلاح قريب يتقون به ما يصيبهم من السخرية ، ويُديرون به الفكاهةَ والدعابةَ على من يقصدهم

وما عهدنا بالمرحوم حافظ إبراهيم ولا بإمامِ العبد ولا بخليل نظير وأضرابهم — ببعيد . مِن كل مَن لم ينجُ من فدية الأدب التى يفرضها على أبنائه ، والتى يقول عنها بعض الكتاب : إنها حق للفن على الفنان ، يأخذه حينا من نَسله ، وحينا من حواسه وخَلْقه ، على أن يعوِّضه عنها خفة فى الروح ، وحلاوة فى النادرة ، وجمالا فى النكتة ، وحدةً فى الذهن

وهذه هى كل أركان السخريةِ السائغةِ ، وعمدُ التهكم المُسْكِتِ .

أتى إلى الجاحظ يوماً ثقيل فقال له : قد سمعتُ أنلك ألفَ جواب مسكت ، فعلمنى منها . قال الجاحظ : نعم . فقال له الثقيل : إذا قال لى شخص : يا ثقيل الروح ! فأىُّ شىء أقوله ؟ فقال له الجاحظ : قل له : صدقتَ يا هذا ولم تكذب !

وروى ابنُ عساكرَ أن الجاحظ قال : رأيت جارية ببغداد فى سوق النخاسين يُنادَى عليها ، فدعوتُ بها وجعلت أقلبها ، فقلت لها : ما اسمكِ ؟ قالت : مكة . قلت : الله أكبر ! قد قـُرب الحج . أتأذنين أن أقبِّلَ الحجر الأسود ؟ قالت : إليكَ عنى ، أولم تسمع اللهَ يقول : « لم تكونوا بالغيه إلاَّ بشِق الأنفس » ؟

وقال مرة : ما أخجلنى أحد مثلُ امرأة رأيتها فى مدينة العسكر ببغداد ، وكانت طويلةَ القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها ، فقلت : انزِلى كلى معنا . فقالت : اصعَد أنت حتى ترى الدنيا .

هكذا كانت روح العصر : دعابة فاشية حتى فى نسائه ، وقلة مبالاةٍ مع خفةٍ فى الروح ، ولطف فى الحس ، وطلاقة فى التفكير

(ب) وكان الجاحظ يستخدم هـذا النوع من التهكم لونا من ألوان الحجة ، وضربا من ضروب البرهان ، وطريقا من طرق الإقناع ؛ وذلك هو أسلوبه الذى سلكه فى رسالة « التربيع والتدوير » ؛ فإنه أراد أن يكشف القناع عن جهل أحمد بن عبد الوهاب ، ويبينَ غرورَه وطولَ ادعائه لأصناف العلم ، ويصوّرَ عيوبه التى انغمس فيها ، ويبدىَ سوءاته التى عرف بها ؛ فاتخذ لذلك أسلوبَ التهكم ، وطريقَ الهزل ؛ متفننا مبدعا ؛ فلا يكاد يخرج فى السخرية بالرجل من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، حتى يمزقه تمزيقا ، فيصغره فى عيون الناس أولا ، ثم يصغره فى عين نفسه ثانيا .

فبينما هو يسخر من آداب نفسه ، وصفات عقله ، ومحاسن علمه ؛ إذا به ينتقل إلى الاستهزاء بجماله الفاتن ، وحسنه البارع ، فيقول :

« ... وهل تقع الأبصار إلا عليك ؟ وهل تصرَف الإشارة إلا إليك ؟ وأى أمرك ليس بغاية ؟ وأى شىء منك ليس فى النهاية ؟ وهل فيك شىء يفوق شيئا أو يفوقه شىء ؟ أو يقال : لو لم يكن كذا لكان أحسن ، ولو كان كذا لكان أتم ؟

« وهل للغوانى مثل غيرك ؟ وهل للماتح رجز إلا فيك ؟ وهل يحدو الحادى إلا بذكرك ؟ » .

وما هى إلا فقر حتى تتبدل الحال من وصف الجمال إلى الاستهتار والاعتذار ، ثم ينتقل إلى المعاياة بالأسئلة ، والمقايسةِ بالعظماء من المتقدمين ، والمعاجزة بالمعاصرين المشهورين ، على سبيل الهزء والسخرية ؛ فيقول :

« ... فياعقيدَ الفلك ، كيف أمسيت ؟ ويافوة الهيُولى ، كيف أصبحت ؟ ويانسر لقمان ، كيف ظهرت ؟ ويا أقدمَ من دوس ، ويا أسنَّ من لُبَد ، حدثنى : كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سيل العرم ، ومذ كم مات عُوج ، ومتى تبلبلت الألسن ، وما حبس غرابَ نوح ، وكم لبثتم فى السفينة ! وأشهد أنك تحاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتعاقله ؛ ثم تظارفه وتطاوله ، وتغنى مع مخارق ، وتنكر فضل زلزل ، وتستجهل النظام ، وتستبرد الأصمعى ، وتبارز أبا الحسن علىّ ... ! »

وهكذا يسير فى رسالته ، بأسلوب هو واضع أسسه ، وناسج بردته
ونرى هنا من المناسب أن نقول : إن كثيرا من المتأدبين يظنون أن ابن زيدون هو أول من استخدم الأسلوب التهكمىّ فى رسائله ، كما فى رسالته الهزلية ، ولكن من الحق أن ابن زيدون لم يكن مخترعا ، بل مقلدا محاكيا ؛ فالجاحظ أستاذه ، وابن زيدون تلميذه ؛ غير أن الجاحظ لم يسفّ فى الهجاء ولم يمضّ به ، بل كان قوله كله تهكما ، يضحك منه حتى المكتوب إليه ، وليس فيه من الشدة والقسوة ما يبعث فى نفس القارئ الرحمة على من كتب إليه ،أو الحنق على الكاتب له ؛ بل كل ما يرمى إليه الجاحظ أن يشرك القارىء فى ضحكه ، ويقاسمه فى سخريته

ومن أسباب جمع الجاحظ بين الجد والهزل فى أسلوبه ، حرصه على أن يفهم الناس عنه ، واحتفاله برضى العامة عليه ، وإقبالهم على قراءة ما يكتب ، ورغبتهم فى سماع ما يُلقِى ، وهو العليم بطبائع الناس وغرائزهم ، وأهوائهم وأذواقهم ؛ فقصد أن ينسيهم برقة دعابته ، وحلاوة فكاهته ، إسرافه فى أسلوبه ، وإسهابه فى جدّه ؛ وهو الذى يقول فى كتاب الحيوان (ج ٦ ص ٦) : « على أنى ربما وشّحتُ وفصّلت فيه بين الجزء والجزء ، بنوادر كلام ، وطُرَف أخبار ، وغرر أشعار ، مع طرَف مضاحِكَ ؛ فإنى رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة ، والأغانىَ الحسنةَ ، والأوتارَ الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها ؛ وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيرا »

وقال فى صدر كتاب البخلاء (ص ٥) : ولك فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تَبيُّنُ حجةٍ طريفة ، أو تعرُّفُ حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت فى ضحك منه إذا شئت ، وفى لهو إذا مَلِلت »

***

الخاصة الثانية :

من خصائص أسلوب الجاحظ تأثره كثيراً بأساليب الخطابة والمنطق . ومظاهر ذلك التأثر بادية فى وجوه عدة منها : التكرار الذى به يفصح عن المعنى الواحد بعدة عبارات ، وهو نفسه يرى هذا التكرارَ من خصائص الخطابة

حيث يذكر فى كتابه البيانِ والتبيين (ص ٥٨ ج ١) :

« وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعانى عيبًا »

وهذا عينه هو الذى ذكره أرسطو فى كتاب الخطابة (الفصل الحادى عشر من الكتاب الثالث ص٣٣٧) ترجمة تيودور بكلى مع تحليل هُوبز ، تكلم أرسطو فى هذا الفصل على الفرق بين الأسلوب الكتابى والأسلوب الخطابى ، فذكر من تلك الفروق ما ترجمته :

« إن التكرار معيب فى الكتابة ، على حين هو ضرورى وخاصة من خصائص الخطابة ، لأنه فيها نوعٌ من الإسهاب ، وفى الأسلوب الكتابى تفكك الجمل وعدم ربطها سيئة من سيئات الكتّاب ؛ وهو فى الخطابة حلية من حلاها ، لأنه يساعد على التمثيل فى الالقاء والإسهاب فى البيان »

ومن الغريب أننا نشاهد هاتين الخاصتين فى أسلوب الجاحظ ، فهو يكرر كثيراً ، ويفصل أحياناً إذا كان المقام مقام عاطفة وانفعال ؛ يقول مثلا فى رسالة « الحاسد والمحسود » :

« وإن كان المحسود عالماً قال الحاسد : هو مبتدع ، ولرأيه متبع ، حاطبُ ليل ، ومتبع نيل ، مايدرى ما حَملَ ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل .

« ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً وإن كنت مصيباً ؟ أو يرشدك إلى صواب وإن كنت مخطئاً ، أو نصح لك فى غيبه عنك ، أو قصَّر فى عيبه لك ؟

« هو كالكلب الكلب ، والنمر الحرب ، والسم القشب ، والفحل القَطم ، والسيل العرم ، إن مَلَكَ قتلَ وسبى ، وإن مُلِكَ عصى وبغى ، حياتك موته وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ، يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكذب فيك كل عدل مرضى ، لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك ، عدوك بطانته ، وصديقك علاوته »

أليس الجاحظ فى كلامه هذا أشبهَ شىء بالخطباء الذين يمتد نفسُهم الخطابىّ فتراهم يندفعون فى الكلام اندفاعاً ، فيظهر حينئذ السجع القصير الفقرات ، والجمل

المتقطعة الصلات ، شأن الخطباء إذا انهمروا كالسيل ، يصبون على خصومهم صنوف الويل ؛ فهناك ترى الوثبات العاطفية ، وتسمع الرنات الموسيقية ، ويكثر التكرار ، ويَشيع المترادِف ، فتزداد المعانى روعة ، والألفاظ انسجاما

ولكن ما للجاحظ قد غلى مرجله فى هذه الرسالة ، رسالة الحاسد والمحسود ، وتغلبت عليه العاطفة ، وهو فى رسائله الأخرى عالم جدلى ، ومتكلم منطقى ؟ الجواب على ذلك هو أن الجاحظ نفسه تذوّق مرارة الحسد من معاصريه ، وتشكى هذا الداء من مناظريه

« فقد ذكرَ أنه كان يؤلف الكتاب الكثيرَ المعانى ، الحسنَ النظم ، فينسبهُ إلى نفسه فلا يرى الأسماعَ تُصغِي اليه ، ولا الإراداتِ تيمم نحوه ؛ ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة ، وأقل فائدة ، ثم ينحَلـُه عبد الله بن المقفع ، أو سهلَ ابنَ هرون ، أو غيرهما من المتقدمين ، ومَن قد طارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيُقبلون على كـُتبها ، ويسارعون إلى نسخها . لا لشىء إلا لنسبتها إلى المتقدمين ، ولِما يداخلُ أهلَ هذا العصرِ من حسدِ مَن هو فى عصرهم ، ومنافسته على المناقب التى يخص بها ويُعنَى بتشييدها »

فهو إذا وصف الحاسد فإنما يصف الواقع ويعبر عن النفس

اسمع إليه وهو يقول فى وصفه : « وما لقيتَ حاسداً قط إلا تبين لك مكتومُهُ بتغير لونه ، وتخاوص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإعراضِ عنك ، والإقبال على غيرك ، والاستثقالِ لحديثك ، والخلافِ لرأيك » أفلا يصح بعد هذا أن نقول : إن الجاحظ من أنصار الأدب الواقعي ؟ لأنك لا تجد فى أسلوبه مبالغة ولا احتفاء بزخرفة التشبيهات ووشىِ الاستعارات ، وإذا أردنا أن نتبين الفرق بين تأثر الجاحظ بخطابة أرسطو فى أسلوبه ، وبين كاتب آخرَ لم يتأثر بها ، فلنقرأ ما كتبه ابن المقفع فى الحاسد أيضاً حيث يقول :

« ليكن مما تصرِفُ به الأذى والعذاب عن نفسك ، ألا تكون حسوداً ؛ فإن الحسد خلق لئيم ، ومن لؤمه أنه يوكَّلُ بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء الخلطاء ، فليكن ما تقابل به الحسدَ أن تعلم أن خيرَ ما تكون حين تكون مع

من هو خير منك ؛ وأن غُـنماك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك فى العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك فى الجاه فتصيبَ حاجتك بجاهه ، وأفضل منك فى الدين فيزدادَ صلاحُك بصلاحه . ، وهكذا .

فما أشبه ابن المقفع بحكيم يستمد من عقله حكمته ، وفيلسوف يزن أفكارَه وآراءه فى تؤدة وتروٍّ ؛ كأنه مرزبانٌ من مرازبة الفرس فى طيلسانه الفضفاض وقلنسوته المكوّرة

ومن مظاهر تأثر الجاحظ أيضاً بالخطابة ، شيوع الاستدلال بما يعرف فى الخطابة بالقياس المضمر. ثم بما يعرف بالتمثيل .

نجد ذلك واضحاً جلياً فى رسائل الجاحظ وأسلوب استدلاله

والقياس المضمرُ عندهم - كما جاء فى البصائر النّصيرية - هو ماحذفت مقدمته الصغرى أو الكبرى أو نتيجته ؛ إما لظهورها، وإما للاستغناء عنها. ومواد هذا القياس : المشهورات ، والمقبولات، والمظنونات .

أما التمثيل فهو إثبات حكم جزئى لجزئى آخر لمشابهة بينهما ، وهو ما يسميه الفقهاء قياساً .

فالقياس المضمر قد عرفه الجاحظ واستخدمه فى رسائله ، والتمثيل كذلك عرفه واستخدمه فى رسائله .

أما معرفته للقياس المضمر فقد نقله الجاحظ. وسماه المذهب الكلامى .

فالمذهب الكلامى فى البديع يجمع البديعيون على أنه من وضع الجاحظ وتسميته ، وقد اعترف بذلك ابنُ المعتز وابن أبى الأصبع وابن حجة وغيرهم

أقول : والمذهب الكلامى هو بعينه القياس المضمر ، إذ عرّفوه بأن يورد المتكلم كلامه على طريقة أهل الكلام ، وطريقة أهل الكلام أن تكون الحجة بعد تسليم المقدمات فيها مستلزمة للمطلوب . ولكن لا يشترط هنا الاستلزام العقلى ، بل هو مبنى على المشهورات والمظنونات ، وهى يكتفى بها فى الأمور الخطابية المفيدة للظن ، والمؤدية إلى الإقناع . هذا هو تعريفهم للمذهب الكلامى

الذى عرفه الجاحظ ، وهو أول من سماه ؛ غير أن الجاحظ يقول : إن المذهب الكلامى ليس منه فى القرآن شىء ؛ ووافقه ابن المعتز ، ورد عليه ابن أبى الأصبع وقال: إن القرآن مشحون به ، من ذلك قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »

ففى هذه الآية إشارة إلى قياس استثنائى ذكرت شرطيته وحذف منه الاستثنائية والمطلوب ؛ لظهورهما . وملازمة الفساد بتعدد الآلهة من الأمور المشهورة الصادقة بحسب العرف ، وهى يكتفى بها فى الأمور الخطابية .

ومثلوا له أيضا بقوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » ، وتمام الدليل أن يقال : لكنكم ضحكتم كثيراً وبكيتم قليلا فلم تعلموا ما أعلم .

إذا عرفنا ذلك ، وعرفنا أن الجاحظ استخدمه فى أسلوبه وهو ينكر وجوده فى القرآن ، فمن أين أتى به الجاحظ ؟

الجواب عن هذا السؤال سهل متى انتقلنا إلى كتاب الخطابة لأرسطو ، فوجدنا المذهب الكلامى كما عرفه الجاحظ وسماه ، هو بعينه القياس المضمر الذى ذكره أرسطو وعرفه .

وقبل أن نترجم كلام أرسطو ، نذكر أمثلة للجاحظ من رسائله فيها قياس مضمر أو مذهب كلامى على رأيه .

ذكر الجاحظ فى كتاب العثمانية :

« والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علىّ ، قتله الأقران ، وخوضه الحروب ، وليس له فى ذلك كبير فضيلة ، لأن كثرة القتل والمشى بالسيف إلى الأقران ، لو كان من أشد المحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلا على الرياسة والتقدم — لوجب أن يكون للزبير وأبى دجانة ومحمد بن مسلمة ماليس لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلا » .

ويقول أيضا فى كتاب حجج النبوة :

« ولو كان صاحب السلعة يرى فى سلعته ما يرى صاحب الدرهم ، وكان صاحب الدرهم يرى فى الدرهم ما يرى فيه صاحب السلعة ، ما اتفق بينهما شراء أبداً ، ولا بيع أبدا ... »

ثم يقول بعد ذلك : « وإذا وقع التبايع ، وقع الترابح ، وإذا وقع الترابح ، وقع التعايش . . » وغير ذلك مما لانريد أن نطيل فيه .

أما عبارة أرسطو فى كتاب الخطابة ، فقد قال فى الفصل الثانى من الكتاب الأول:
« إن البراهين التى تستخدم فى الخطابة تقوم على أمرين :
« الأمر الأول القياس المضمر Enthemem
« الأمر الثانى التمثيل ، والمنطق تقوم براهينه على الأقيسة أولا ، وعلى الاستقراء ثانياً .

« وما القياس المضمر إلا نوع من الاستدلال القياسى ، وما التمثيل إلا نوع من الاستدلال الاستقرائى ، غير أنه محذوف فى كليهما ما هو غير ضرورى للسامع ، وما هو زائد عن الحاجة غير لازم ؛ ومفروض أن للسامع دراية به ، كل ذلك تجنباً للإسهاب المضيع للوقت ، وإرضاء لكبرياء السامع بتركه يسد بنفسه النقص الذى حدث بحذف الأمور التى يسهل عايه فهمها وإدرا كها ؛ وفى هذا تودد للسامعين ، وتحبب إلى نفوسهم ، وهو باب من أبواب الإقناع الخطابى . »

هذا هو كلام أرسطو وكلام شراحه

و لماذا يكون القول بأن الجاحظ عرف كتاب الخطابة لأرسطو واسترشد به قولا غريباً ؟ ومنطق أرسطو قد عرف بين المسلمين من عهد ابن المقفع ، وكانت الخطابة جزءاً من المنطق — كما ذكر ذلك ابن خلدون ودائرة المعارف الإسلامية ، وأبو نصر الفارابى فى كتابه إحصاء العلوم . وقد ذكر الجاحظ (صاحبَ المنطق) مراراً فى كتابه الحيوان وفى كتابه البيان والتبيين . بل فى رسالته التى عنوانها الرد على النصارى ، وذكر أيضا فى كتابه الحيوان أن من العلوم التى ترجمت علم المنطق

وبعد هذا وذاك ، فهناك ظاهرة قوية تدل دلالة واضحة على تأثر الجاحظ بخطابة أرسطو ، أو على الأقل تدل على استرشاده ببعض قواعدها ، وذلك أن الجاحظ كثيراً مادعا الكتاب إلى العناية بالسامعين ، وهو المبدأ الذى يدعو

إليه أرسطو فى خطابته. ذكر ذلك الجاحظ فى البيان والتبيين ص ٣ ج ٢ ، وذكر ذلك أرسطو فى الفصل الأول من الكتاب الأول ص ٨ ؛ بل لقد غالى الجاحظ فى المبدأ ، واستحسن من الخطيب أن يسوق النادرة فى ثوبها الذى فيه رويت ، وبأسلوبها الذى به نقلت ؛ ولو كانت ملحونة مشوهة

يقول فى ص ٨١ ج ١ البيان والتبيين

« ومتى سمعت (حفظك الله) بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ؛ فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها »

وهنا يعترضنا سؤال محرج فى ظاهر القول ، مشكل فى بادىء الرأى ، وهو : إذا كان ذلك كذلك ، فلماذا أنكر الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين أن يكون لليونان خطابة ، حيث يقول : « ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكىء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ، ومعانيه وخصائصه » فللجواب عن هذا السؤال فى نظرنا نقول :

أولا : إن الجاحظ حين قال ذلك القول كان بصدد الرد على الشعوبية الذين قالوا عند طعنهم على العرب : « والخطابة شىء فى جميع الأمم ؛ فهذه يونان ورسائلها وخطبها وحكمها » فموقف الدفاع عن العرب والرد على الشعوبية ألجأه إلى أن ينكر أن فى اليونان خطابة

ثانياً : إنه لم يطلع على نصوص خطابية لليونان ، وإنما اطلع على أصول وقواعد للخطابة : فهو على حق حين ينكر ما لم يره

ثالثا : إنه رمى صاحبَ المنطق بالعِىّ فى القول ؛ لأن الترجمة التى قرأها لكتبه ترجمة سقيمة فى أغلب الظن ، تدل حقاً على أن صاحبها بكىء اللسان، وهو

نفسه قد انتقد التراجم والمترجمين فى كتاب الحيوان حيث يقول : « ومتى كان ابن البطريق وابن ناعمة وابن المقفع . مثل أرسطو ؟ ثم ما لنا لا نقف عند قول الجاحظ السابق عن أرسطو : « مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ، ومعانيه وخصائصه ، فأين عرف الجاحظ عن أرسطو ذلك إذا لم يكن عرفه من كتاب الخطابة الذى فصل أرسطو فيه حقا الكلام تفصيلا ، وبين فيه خصائص المعانى تبيينا ، ووضح الأساليب توضيحا ؟

وهناك أدلة أخرى تقوى عندنا فكرة أن الجاحظ تأثر تأثرا قويا بخطابة أرسطو ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن كتان البيان والتبيين صدى لتلك الخطابة ؛ لأنه ألف فى عصر لم تكن فيه إلى الخطابة حاجة . إذ كانت سوقها قد كسدت وسوق الكتابة قد نفقت؛ فالرأى الذى أرتئيه وأطمئن إليه ، هو أن الجاحظ قد عرف أرسطو ومنطقه ، والخطابة جزء منه ، إلا أن معرفته بها غامضة مبهمة ، إذ لم تكن إلا عن قراءة لكتب أرسطو فى دكاكين الوراقين ، ثم مفارقة لها بعد ذلك ؛ هذا إلى أنه نفسه يعلن فى صراحة أن كتب المنطق وغيرها من معارف اليونان لم تترجم ترجمة صحيحة واضحة ، وأنها لو عرضت على العربى البليغ لا يفهمها حق الفهم (ص٤٥ ج ١ الحيوان)

« ألا ترى أن كتابَ المنطق الذى قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاءِ الأعراب لما فهموا أكثره » .

***

الآن وقد طال بنا السَّفر فلم نذكر مثالا للتمثيل الذى استخدمه الجاحظ فى رسائله ، نقول :

كان الجاحظ يستخدم التمثيل إذا أعوزه الدليل ، وضاقت عليه سبلُ الحجة ، وكان الموضوع فى ذاته تافهاً وهو يريد أن يَرفع من شأنه ويعليَ من قدره . من ذلك رسالته فى فخر السود على البيض . بديهى أن تفضيل السود على البيض ليس بالأمر الهين اليسير ، وليست براهينه طيعة قريبة المنال ، فطرفا المناظرة ليسا من درجة واحدة

هذا والجاحظ لا ننسى انه أسود وجدّه أسود، فهو لا بد متنقص للبيض، متعصب للسود، فماذا يصنع إلا أن تسعفه مهارته الفنية فى الجدل، وثقافته الواسعة، وعلمه الغزير؛ فتراه يقول:

«... إن لقمانَ الحكيمَ منهم، ومنهم سعيد بن جبير، وبلال الحبشى الذى يقول فيه عمر بن الخطاب: إن أبا بكر سيدُنا وأعتق سيدنا، وهو ثلث الإسلام؛ ومنهم المِقداد، وهو أول من عدا به فرسه فى سبيل الله.

«وقالوا: (أى السود) ونحن أهول فى الصدور، وأملأ للعيون، كما أن المسودة أهول فى العيون وأملأ للصدور من المبيضة، وكما أن الليل أهول من النهار، ودهم الخيل أبهى وأقوى، والبقر السود أحسن وأبهى، وجلودها أنفع وأثمن وأبقى، وكل حجر وكل جبل إذا كان اسود، كان أصلب صلابة وأشد يبوسة، والأسد الأسود لا يقوم له شىء، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع؛ والسواد ملازم للعين، وإذا اعتلت فخيف عليها لم يكن لها دواء خير من القعود فى الظلمة وفى يد صاحبها خرقة سوداء؛ فالسواد للأبصار، وخيرما فى الإنسان البصر».

فأنتم ترون أن الجاحظ فى هذه الرساله كان مشغولا برصف الأدلة، ونحت الأمثلة، فلم يفكر فى موسيقا الألفاظ، ولا وزن العبارات، لأنه يريد أن يغمر خصمه بالأدلة والأمثلة، خشية أن يتغلب عليه، أو أن يفلت الموضوع من يده، لأن طرفه ضعيف وهل هناك من يفضل السود على البيض، إلا أسود متعصب؟

***

ثالثا — من خصائص أسلوب الجاحظ قصر الفقرات، واتزان العبارات، والموسيقا والازدواج؛ فنثر الجاحظ لا يلذ العقل وحده، وإنما يلذ العقل والشعور والأذن. وأ كثر ما يشاهد ذلك فى رسائله الإخوانية، أو فى مفتتح كتبه وصدرِ تآليفه، وهو أحياناً يتعمد هذا الاتزان وإن لم يتكلفه.

***

الخاصة الرابعة

الاقتنان فى الأسلوب : من خبر إلى استفهام ، ومن استفهام إلى تعجب ، ومن تعجب إلى أمر. وهذه الخاصة والتى قبلها أثر من آثار الأسلوب القرآنى ؛ قال تعالى :

« إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفَوْنَ علينا . أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ اعملوا ما شئتم ، إنه بما تعملون بصير . » خبر ، فاستفهام ، فأمر ، فخبر .

ويقول الجاحظ فى رسالة الحاسد والمحسود :

ولقد كان أخوة يوسف علماءَ حلماء ، ولدهم الأنبياء ، فخانوا العهود ، وألقوْه فى غَيابَة الجب ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ؛ فبظلمهم يوسُفَ ظلموا أباهم ؛ طمعاً أن يخلوَلهم وجهُ أبيهم ، وظنوا أن الأيامَ تُسلِيه ، وحبّهلم من بَعده عنه يلهيه ؛ فأسالوا عبرته ، وأحرقوا قلبه ، فإذا أحسستَ (رحمك الله) من صديقك بالحسد ، فأقلِلْ ما استطعت من مخالطته ، فإنهُ أعونُ الأشياء لك على مسالمته ؛ وحَصِّن سرّكَ منه ، تسلمْ من شذى شره ، وعوائق ضُره ؛ وإياك والرغبة فى مشاورته ، فتمكن نفسك من سهام مشاررته .

فما هذا العَناء ، وما هذا الداء العَياء ، كأنك لم تقرأ المعوّذة . أتطلب (ويحك) أثراً بعد عين ، أو عِطراً بعد عروس ، أو تريد أن تجتنى عِنَباً من شوك ، أو تلتمسَ حَلْبَ لبن من حائل ؟ إنك إذن لأعيا من باقل ، وأحمقُ من الضبع . إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك ، وتَعوَجْ بعد ماقوّمناك ، وتبلّدُ بعد ماثقفناك ؛ فنعوذ بالله من الخِذلان ، إنه لا يأتيك ، ولكنه يناديك ؛ ولا يحاكمك ، ولكنه يوازنك ، أحسن ماتكون عنده حالا ، أقل ما يراك مالا ، وأكثر ما تكون عيالا ، أعظم ما تكون ضلالا ؛ وأفرح ما يكون بك ، أقرب ماتكون بالمصيبة عهداً ، وأبعد ماتكون من الناس حمداً ، . . .

وهنا تتغلب عليه طبيعته الساخرة المتهكمة ، فيميلُ إلى الضحك والاستهزاء فيقول :

« فإذا كان الأمر على هذا ، فمجاورة الأموات ، ومخالطة الزمْنَى ، والاكتنانُ بالجدران ، ومص المصران ، وأكل القِردان — أهون من معاشرة مثله ، والاتصالِ بحبله ! »

***

الخاصة الخامسة

من خصائص أسلوبه الاستطراد ؛ وذلك أثر من آثار اطلاعه الواسع ، وثقافته المتعددة

***

الخاصة السادسة

استقصاؤه وتغلغله فى وصف مايُعنى بشرحه أو الاحتجاجِ له ؛ فهو يتتبع المعنى ويقلبه على وجوهه المختلفة ، ويَظَل يولده حتى لايترك فيه قولا لقائل

كتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

« . . . فإن كنتُ اجترأتُ عليك (أصلحك الله) فلم أجترئ إلا لأن دوامَ تغافلِك عنى شبيهٌ بالإهمال ، الذى يورث الإغفال ؛ فإن كنتَ لاتهب عقابى (أيدك الله) لخدمة سلفت لى عندك ، فهبه لأياديك عندى ؛ فإن النعمة تشفع فى النقمة . وإلا تفعل ذلك لذلك ، فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . . »

أما الخصائص التى يَشرَكه فيها غيره ، فهى : السهولة ، والاعتراض بمثل قوله : (أبقاك الله) ، (أعزك الله) . ثم الإسهاب ، ثم السجع ؛ لأن هذه كلها من صفات الأسلوب الكتابى فى عصر الجاحظ : نشاهدها عنده كما نشاهدها عند غيره .

وبعد فأسلوبُ الجاحظ من نوع أدب الفكر لا أدبِ الشعور والعواطف ، قِوامه الترتيب المنطقى ، والتنسيق العقلى ، والتنويع الفكرى ؛ فهو يمهد لكل شىء ، ثم يستنبط من تلك المقدمات ؛ ثم يُردف ذلك بجمل مترادفة ؛ ليزداد المعنى وضوحاً ، وتزدادَ الفكرة بياناً . هذا فى رسائله العامة ، أما فى رسائله الإخوانية ، أو حين يخاطب الخاصة ، فتأنق وتزويق ، ونقاء للألفاظ ، وحرص على الموسيقى ، وتوازن فى الجمل ، وسلاسة فى العبارات ، وسجع قصير الفقرات ؛ فهو أديب العلماء ، وعالم الأدباء . ولنختم محاضرتنا بقبس من رسالته إلى ابراهيم بن المدبر حيث يقول :

« ماضاءَ لى نهارٌ ولا دجا ليل مذ فارقتك ، إلا وجدت الشوقَ إليك ، قد حزَّ فى كبدى ؛ والأسف عليك ، قد أسقط فى يدى ؛ والنزوعَ نحوك ، قد خان جلدى ؛ فأنا بين حشاً خافقة ، ودمعةٍ مُهَراقة ، ونفس قد ذبُلت بما تجاهد ، وجوانح قد بَليت بما تكابد ؛ وذكرت وأنا على فراش الارتماض ، ممنوعٌ من لذة الاغتماض ، قولَ بشار :

إذا هتف القُمرى نازعنى الهوى ... بشوق ، فلم أملك دموعى من الوجد
أبى الله إلا أن يفرّق بيننا ... وكنا كماء المزن شِيبَ مع الشهد
لقد كان ما بينى زماناً وبينها ... كما كان بين المسك والعنبر الوردى

عبد الوهاب حمودة



أحمد بن أبى دؤاد

بقلم أحمد هاشم عطية

المدرس بالمدرسة التوفيقية الثانوية

هو أبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد بن فرح بن مالك الإيادى ، رجل من نزار ، قاضى القضاة زمن المعتصم والواثق فى الدولة العباسية ، وأحد أساطين المتكلمين والبصر بالفقه والكلام ومسائله والأدب وأخبار الناس ، وكان أخل المتكلمين إقداما على القول بأن القرآن مخلوق ، تراكا للهو ، ذا مروءة عربية وتعصب لمذهبه .

ولد سنة ١٦٠ هـ بالبصرة كما ذكره الخطيب البغدادى وابن خلكان ، وقيل إن أصله من قرية بقنسرين ، وتوفى سنة ٢٤٠ هـ فى خلافة المتوكل ببغداد

وسواء أولد بالبصرة أم بقرية من قنسرين ، فإنه تلقى العلم والفقه على العلماء بالبصرة ، وصحب هياج بن العلاء السلمى ، وزرقان غلام الهذيل المحدث ، وأخذ عن واصل بن عطاء علم الكلام ، وتضلع من علم الكلام فصار إلى الاعتزال ، وحمل المأمون على القول بخلق القرآن. وجلس لامتحان العلماء فى هذه المقالة إلى أيام الواثق

وكان نادرة عصره فى علوم الفقه والكلام والأدب، وفيه يقول أبو العيناء : «ما رأيت رئيسا قط أفصح ولا أنطق من ابن أبى دؤاد» وكان شاعرا مجيدا، وفصيحا بليغا ، عالما بالأنساب والسير وأخبار الناس . ذكروا أن المأمون سأل جلساءه عمن بايع ليلة العقبة من الأنصار ، فلم يدر أحد عدتهم ، فعدهم أحمد واحدا واحدا بأسمائهم وكناهم وأنسابهم؛ فقال المأمون : إذا استجلس الخليفة فاضلا فمثل أحمد . فقال ابن أبى دؤاد : إذا جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين الذى يفهم عنه ويكون أعلم بما يقوله منه . روى له دعبل الخزاعى فى كتابه الذى جمع فيه أسماء الشعراء أبياتا حسانا ؛ وكان ابن أبى دؤاد يقول : ثلاثة ينبغى أن يبجلوا وتعرف أقدارهم : العلماء ، وولاة العدل ، والإخوان ؛ فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ، ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته . وكان

الضحاك الشاعر المشهور يقول لبعض المتكلمين : ابن أبى دؤاد عندنا لا يعرف اللغة ، وعندكم لا يحسن الكلام ، وعند الفقهاء لا يحسن الفقه ، وهو عند المعتصم يعرف ذلك كله .

وكان ابتداء اتصاله بالمأمون أنه قال : كنت أحضر مجلس القاضى يحيى بن أكثم مع الفقهاء ؛ وإنى عنده يوماً إذ جاءه رسول المأمون ، فقال له: يقول لك أمير المؤمنين : انتقل إلينا أنت وجميع من معك من أصحابك . فلم يحب أن أحضر معه ، ولم يستطع أن يؤخرنى، فحضرت مع القوم ، وتكلمنا بحضرة المأمون، فأقبل المأمون ينظر إلى إذا شرعت فى الكلام ، ويتفهم ما أقوله ويستحسنه ، ثم قال لى : من تكون ؟ فانتسبت له ؛ فقال: ما أخرك عنا ؟ فكرهت أن أحيل على يحيى فقلت : حبسة القدر وبلوغ الكتاب أجله . فقال المأمون : لا أعلن ما كان لنا من مجلس إلا حضرته . فقلت : نعم . ثم اتصل الأمر . وقيل : قدم يحيى بن أكثم قاضياً على البصرة من خراسان من قبل المأمون فى آخر سنة ٢٠٢ هـ ، وسنه نيف وعشرون سنة ، فاستصحب جماعة من أهل العلم والمروءات ، منهم أحمد بن أبى دؤاد ، فلما قدم المامون بغداد فى سنة ٢٠٤هـ قال ليحيى: اختر لى من أصحابك جماعة يجالسونى ويكثرون الدخول إلى ، فاختار منهم عشرين فيهم ابن أبى دؤاد ، ثم قال : اختر منهم . فاختار خمسة فيهم ابن أبى دؤاد ، واتصل أمره

وأسند المأمون وصية إلى أخيه المعتصم قال فيها : « وأبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد لا يفارقك الشركة فى المشورة فى كل أمرك ؛ فإنه موضع ذلك كله ، ولا تتخذن بعدى وزيراً . » فلما ولى المعتصم الخلافة جعل ابن أبى دؤاد قاضى القضاة ، وعزل يحيى بن أكثم ، وخص به أحمد ، وكان لا يفعل فعلا باطناً ولا ظاهرا إلا برأيه . والذى أصار ابن أبى دؤاد إلى ما صار إليه هو موافقة مذهبه لما كان يذهب إليه المأمون من آراء المعتزلة ، وأن المأمون كان معروفاً بمحبته للعلم والعلماء وشغفه بالحكمة والحكماء ، بل لم ير فى أبناء الملوك من تعشق العلوم الحكمية على حداثة سنه مثله ، فما دخل عليه مرة إلا وألفى فى مجلس من العلماء والأدباء ، وقد ورث ذلك عن أبيه الرشيد ، واقتدى به أو أربى عليه ، فطارت شهرته

فى العلم والفلسفة ، إلى أن حظى بقربه أحمد بن أبى دؤاد ، فوجد فيه المأمون طلبته ، ورأى أحمد فى المأمون ضالته للظهور بمذهب المتكلمين ، وجعله مذهباً رسمياً للدولة بعد أن كان هذا المذهب فى البصرة نظرياً ، وأتم ما بدأ به ثمامة بن أشرس ، من حمل المأمون على أن يعتقد هذا المذهب اعتقاد حقا ، وحمله على إظهار القول بخلق القرآن ، وعلى دعوة الناس إلى ذلك ، وعلى تعذيب المخالفين والتنكيل بهم ، فما جاءت سنة ٢١٨ ﻫ حتى كتب المأمون إلى نائبه على بغداد إسحق بن إبراهيم كتاباً جاء فيه :

« وقد عرف أمير المؤمنين ، أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاء بنور العلم وبرهانه ـ أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه ؛ وقد قال تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » فكل ما جعله فقد خلقه . كما قال : « وجعل الظلمات والنور » وقال : « نقص عليك من أنباء ما قد سبق » فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وقال : « أحكمت آياته ثم فصلت » والله محكم آياته ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه ؛ ثم انتسبوا إلى أهل السنة ، وأنهم أهل الحق والجماعة ، وأن من سواهم من أهل الباطل والكفر ، فاستطالوا بذلك وأغروا به الجهال ؛ حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب ، والتخشع لغير الله إلى موافقتهم ، فنزعوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا من دون الله وليجة إلى ضلالهم . . .

إلى أن قال :

« فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ، المنقوصون من التوحيد حظاً ، أوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الناطق فى أوليائه والهائل على أعدائه من أهل دين الله . ولعمر أمير المؤمنين إن أكذب الناس من كذب على الله ووحيه ، وتخرص الباطل ولم يعرف الله حق معرفته . فاجمع من بحضرتك من القضاة فاقرأ عليهم كتابنا ، وامتحنهم فيما يقولون ، واكشفهم عما يعتقدون فى خلق

الله وأحداثه ، وأعلمهم أنى غير مستعين فى عمل ولا واثق بمن لا يوثق بدينه ، فإذا أقروا بذلك ووافقوا فمرهم بنص من بحضرتهم من الشهود ومسألتهم عن علمهم فى القرآن وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق ، واكتب لنا بما يأتيك من قضاة أهل عملك فى مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك » .

هذا كتاب المأمون فى المحنة ، وقد ذيله بأشخاص كبار فقهاء بغداد وأئمة الأثر والرواية . وتم الأمر بالمحنة التى طال ضررها . واشتهر من بين رجالها الإمام أحمد ابن حنبل رضى الله عنه . وما كان للمأمون أن يكتب كتابه هذا ويحمل الناس على غير ما يعتقدون وإكراههم على أمر لم تمض به سنة ولم يجدوا فيه برهاناً من أنفسهم ، مع أن الإكراه على أصل الأصول وهو الدين الخالص قد أباه الشرع ونهى عنه فى غير موضع من التنزيل الكريم ، قال جل وعلا : « لا إكراه فى الدين » ، ويقول جل شأنه : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ، ولكن سكرة الدولة وانقلاب الرأى عقيدة بالتسليم والتقليد ، وعظم الطول والقدرة ، كل أولئك يحول دون الإنصاف والاعتدال غالباً

وإذا كان شعور السلف بما يترتب على الإطالة فى هذه المقالة من الخطر الشديد على الدين والقرآن ـ قد دعا إليه انتشار الزندقة وظهور الملاحدة وتهجم كثير من أهل الشبهات على نواحى القرآن بالتأويل الباطل والتعليل المردود ، فلنحن أحق منهم بإغلاق هذا الباب وسداد هذه الثغرة ، لأن ما كان فى زمنهم من الفساد وسوء التأويل إذا قيس إلى ما فى زماننا يعد كالمتلاشى الزائل ، وأولى بنا أن نصرف عنان القول إلى ما هو أجدى علينا ، من مطارحة الثقافات المتنوعة التى تقوم بشئون الاجتماع من تهذيب وتربية وتعليم ودارسة الآداب المختلفة والعلوم العملية النافعة ، ولكن ابن أبى دؤاد بلغ به التعصب لمذهبه ـ مع ما اتصف به من وفرة العقل وكبر الفهم ـ أنه كان يغرى الخلفاء بمن خالف مذهبه . ويسعى لديهم بما يعجل نكالهم وقد أثر عنه من ذلك ما شوه وجه حياته ، وكسف شمس فضائله ؛ فقد أغرى المعتصم بحميد بن سعيد وهو من وجوه المعتزلة ، لمخالفته إياه فى بعض مذهبه ، وقال إنه شعوبى زنديق ، فحبسه المعتصم . ثم بانت له

براءته ، أو للواثق من بعده ، نخلى سبيله ، وأخرج أحمد ابن حنبل من محبسه أيام المعتصم إلى مجلس جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة وعلى رأسهم ابن أبى دؤاد ، فلما استقر بهم المجلس ، قال ابن أبى دؤاد : أليس لا شىء إلا قديم أو حادث ؟ قال ابن حنبل : نعم . فقال ابن أبى دؤاد : أوليس القرآن شيئاً ؟ قال ابن حنبل : نعم . فقال ابن أبى دؤاد : فالقرآن إذاً حادث ؟ قال ابن حنبل : ليس أنا بمتكلم ... إلى أن قال : وحكم كلام الله تعالى كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن يكون علمه محدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً ومحدثا . فقال ابن أبى دؤاد : أليس قد كان الله يقدر أن يبدل آية مكان آية ، وينسخ آية بآية ، وأن يذهب بهذا القرآن ويأتى بغيره ، وكل ذلك فى الكتاب مسطور ؟ قال ابن حنبل : نعم . فقال ابن أبى دؤاد : روينا فى تثبيت ما نقول الآثار ، وتلونا عليك الآية من الكتاب ، وأريناك الشاهد من العقول التى بها لزم الناس الفرائض وبها يفصلون بين الحق والباطل ، فعارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث . فلم يتكلم ابن حنبل ، فأمر المعتصم بضربه وحبسه ، فلما ولى الواثق الخلافة ذكر ابن حنبل وأمر فجىء به يرسف فى قيوده ؛ ذكر الخطيب البغدادى فى تاريخ الواثق وترجمته قال : سمعت طاهر بن خلف يقول : سمعت محمد بن الواثق الذى يقال له المهتدى بالله يقول : كان أبى إذا أراد أن يقتل رجلاً أحضرنا ذلك المجلس ، فبينما نحن عنده ذات يوم إذ أتى بشيخ مصفود مقيد ، فقال أبى : إيذنوا لأبى عبد الله . يعنى ابن أبى دؤاد وأصحابه ، فدخل الشيخ مصلاه ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال : لا سلم الله عليك ! فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، بئسما أدبك به مؤدبك ! قال تعالى : وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها . والله ما حييتنى بها ولا بأحسن منها . فقال ابن أبى دؤاد : يا أمير المؤمنين ، الرجل متكلم . فقال له أبى : كلمه . فقال ابن أبى دؤاد : ياشيخ ، ما تقول فى القرآن ؟ قال الشيخ : أنصفنى فى السؤال . فقال له : سل . فقال الشيخ : ما تقول أنت فى القرآن ؟ قال ابن أبى دؤاد : مخلوق . فقال الشيخ : هذا شىء علمه النبى (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومن أتى بعدهم من أجلاء الصحابة ، أم شىء لم يعلموه ؟ فقال ابن أبى دؤاد : لم يعلموه . فقال ابن حنبل : سبحان الله اشىء لم يعلمه

النبى (صلى الله عليه وسلم) ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على ولا الخلفاء من بعدهم وتعلمه أنت! فقطع بابن أبى دؤاد وخجل ، وقال لابن حنبل : أقلنى . فقال الشيخ: والمسألة بحالها؟ قال :نعم . قال : فما تقول فى القرآن؟قال ابن أبى دؤاد: مخلوق. قال ابن حنبل : هذا شىء علمه رسول الله(صلى الله عليه وسلم)وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومن بعدهم من الخلفاء. أم لم يعلموه ؟ قال ابن أبى دؤاد: علموه ولم يدعوا الناس إليه . قال الشيخ : أفلا وسعك ما وسعهم ؟

قال محمد : ثم قام أبى ، فدخل مجلس الخلوة واستلق على قفاه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهو يقول : هذا شىء لم يعلمه النبى(صلى الله عليه وسلم)ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على ولا الخلفاء من بعدهم ولم يدعوا الناس إليه ؛ أفلا وسعك ما وسعهم ؟ ثم دعا عماراً الحاجب فأمره أن يرفع القيود عن الشيخ ويعطيه أربعمائة دينار ويأذن له فى الرجوع ، وسقط من عينه ابن أبى دؤاد، ولم يمتحن بعد ذلك أحداً ، رحمة الله تعالى عليه ، ولما ولى المتوكل أحيا السنة وأمات البدعة ، وعزل ابن أبى دؤاد ، ثم ولده من بعده ، وضيق عليهما، وكتب للأمصار برفع المحنة وإظهار السنة ، وأخمد المعتزلة وكانوا فى قوة ونماء إلى أيامه .

وكان ابن أبى دؤاد على جانب كبير من المروءة العربية المتمثلة فى سخائه الذى امتلك به قلوب الناس ورجال الأدب والعلم ، فالتف الناس حوله وهتفوا باسمه ، كما هتف الناس قبل ذلك للبرامكة الذين أعلوا شأن الفرس بما أغدقوه على الناس وبما وسعوهم به من أنواع الكرم ، فأضاف إلى علمه جوده ، فكان بذلك جديرا بما نال من الحظوة والمكانة لدى الخلفاء ، وقوى نفوذه ،وكان بحكم عربيته يتعصب للعرب ويدفع عنهم ـ ما وجد إلى ذلك سبيلا ـ عنت الفرس والأتراك ؛ فقد خلص أبا دلف العجلى من يد الأخشيد وقد كاد يقتله ، وخلص خالد بن يزيد ابن مزيد الشيبانى من يد المعتصم ، ووقف السفراء على بابه وفيهم أبو تمام ، وطال وقوفهم ، فلما دخلوا عليه قال لأبى تمام: أحسبك عاتبا . فقال أبو تمام : إنما يعتب على واحد وأنت الناس جميعا ، فكيف يعتب عليه ؟

ومرض ابن أبي دؤاد فعاده المعتصم في داره ، ونذر المعتصم إن شفى الله

ابن أبى دؤاد أن يتصدق بعشرة آلاف دينار ، فقال أحمد : اجعلها فى أهل الحرمين. فقال المعتصم : نويت أن أتصدق بها ههنا وأن أطلق لأهل الحرمين مثلها .

وقيل للمعتصم : كيف تعوده وأنت لا تعود إخوتك وأجلاء أهلك ؟ فقال : وكيف لا أعود رجلا ما وقعت عينى عليه قط إلا ساق إلى أجرا ، أو أوجب لى شكرا ، أو أفادنى فائدة تنفعنى فى دينى ودنياى ؛ وما سألنى قط حاجة لنفسه ؟ وقال ابن حمدون : خرج علينا الواثق يوما . وكان من الأدب والمعرفة بالمنزلة العليا، وهو يقول: لقد عرض عرضة من عرضه لقول الخزاعى، يريد به دعبلا:

خليلى ماذا أرتجى من غنى امرىء طوى الكشح عنى اليوم وهو مكين؟
وإن امرأ قد ضن عنى بمنطق يسد به من خلتى لضنين

فانبرى أحمد يسأله كأنما نشط من عقال ، فى رجل من أهل اليمامة ، فأطنب وأسهب ، وذهب فى القول كل مذهب ؛ فقال الواثق : يا أبا عبد الله ، لقد أكثرت فى غير كبير ولا طيب . فقال : يا أمير المؤمنين إنه صديقى

وأهون ما يعطى الصديق صديقه من الهين الموجود أن يتكلما

فقال له الواثق : وما قدر اليمامى أن يكون صديقك ، وإنما أحسبه من عرض معارفك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنه شهرنى بالاستشفاع إليك ، وجعلنى مرأى ومسمعا بين الرد والإسعاف ، فإن لم أقم لهذا أكن كما قال أمير المؤمنين آنفا :

خليلى ماذا أرتجى ... الخ

فقال الواثق : بالله يا محمد بن عبد الملك إلا عجلت لأبى عبد الله حاجته ليسلم من هجنة المطل كما سلم من هجنة الرد .

وقال له الواثق يوماً ضجرا بكثرة حوائجه : قد أخليت بيوت الأموال بكثرة طلباتك للائذين بك والمتوسلين إليك : فقال : يا أمير المؤمنين ، نتائج شكرها متصلة بك ، وذخائرها موصولة لك ، وما لى من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بخلود المدح . فقال الواثق : والله لا منعناك ما يزيد فى عشقك ويقوى فى همتك فينا ولنا . وأمر فأخرج له خمسة وثلاثين ألف درهم

وكان ابن أبى دؤاد من أحسن الناس تأتياً ، وكان يقول : ربما أردت أن

أسأل أمير المؤمنين الحاجة بحضرة ابن الزيات فأؤخر ذلك إلى وقت مغيبه ، لئلا يتعلم حسن التلطف منى .

وكان بين ابن أبى دؤاد ومحمد بن عبد الملك الزيات عداء مستحكم ، حتى إن شخصاً كان يصحب ابن أبى دؤاد ويختص بقضاء حوائجه منعه الوزير ابن الزيات من التردد إليه ، فبلغ ذلك القاضى ، فجاء إلى الوزير وقال له : والله ما أجيئك متكثراً بك من قلة ، ولا متعززاً بك من ذلة ، ولكن أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجبت لقاءك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلك ، ثم نهض من عنده

وكان الواثق أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات إلا قام له . فكان ابن أبى دؤاد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلى ، فقال ابن الزيات فى ذلك

صلى الضحى لما استفاد عداوتى وأراه ينسك بعدها ويصوم
لا تعدمن عداوة مسمومة تركتك تقعد تارة وتقوم

ثم أغرى ابن الزيات الشعراء بهجوا بن أبى دؤاد ، فقال فيه إبراهيم ابن العباس الصولى :

عفت مساو تبدت منك واضحة على محاسن أبقاها أبوك لكا
فقد تقدمت أبناء الكرام به كما تقدم آباء اللئام بكا

وقال فيه حميد بن سعيد :

لقد أصبحت تنسب فى إياد بأن يكنى أبوك أبا دؤاد
فلو كان اسمه عمرو بن معدى دعيت إلى زبيد أو إياد
لئن أفسدت بالتخويف عيشى لما أصلحت عيشك فى إياد
وإن تك قد أصبت طريف مال فبخلك باليسير من التلاد

ولدعبل فى هجاء ابن أبى دؤاد

إن هذا الذى دؤاد أبوه وإياد قد كثر الأبناء
ساحقت أمه ولاط أبوه ليت شعرى عنه فمن أين جاء
جاء من صخرتين ثمت صلودين عقامين ينبتان الهباء
لا سفاح ولا نكاح ولا ما يوجب الأمهات والآباء

ولما طال ذلك العداء واستمر هذا الإغراء، عمد ابن أبى دؤاد إلى ما عمد إليه ابن الزيات، فأغرى الشعراء به، فهجاه بعضهم بقصيدة عدد أبياتها سبعون بيتاً، وبلغ خبرها القاضى أحمد فقال:

أحسن من سبعين بيتا هجا ... جمعك معناهن فى بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة ... تغسل عنه وضر الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك؛ ويقال إن أحد أجداد القاضى كان يبيع القار فقال:

يا ذا الذى يطمع فى هجونا ... عرضت بى نفسك للموت
الزيت لا يزرى بأحسابنا ... أحسابنا معروفة البيت
قيَّرتم الملك فلم تنقه ... حتى غسلنا القار بالزيت

ولما حبس ابن الجهم مدح ابن أبى دؤاد عدة مدائح، وسأله أن يقوم بأمره ويشفع فيه، فلم يفعل وقعد عنه، فمن مدائحه

يا أحمد بن أبى دؤاد إنما ... تدعي لكل عظيمة يا أحمد
أبلغ أمير المؤمنين ودونه ... خوض الردى ومخاوف لا تنفد:
أنتم بنو عم النبى محمد ... أولى بما شرع النبى محمد

فأعرض عنه ابن أبى دؤاد، فلما فلج شمت به ابن الجهم وهجاه بقوله:

يا أحمد بن أبى دؤاد دعوة ... بعثت إليك جنادلا وحديدا
ما هذه البدع التى سميتها ... بالجهل منك العدل والتوحيدا
أفسدت أمر الدين حين وليته ... ورميته بأبى الوليد وليدا

إلى أن قال:

وإذ تبسم ضاحكا شبهته ... شرقا تعجل شربة مردودا

ولما ولى ابن أبى دؤاد المظالم مدحه جماعة من الشعراء فى عصره؛ قال أبو تمام:

لقد أنست مساوىَ كل دهر ... محاسنُ أحمد بن أبى دؤاد
وما سافرتُ فى الآفاق إلا ... ومن جدواك راحلتى وزادى

فقال له ابن أبى دؤاد: هذا المعنى تفردت به أو أخذته؟ فقال أبو تمام: هو لى، وقد ألممت فيه بقول أبى نواس:

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة ... لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

وقال فيه أبو تمام :

إلى أحمد المحمود أمت بنا السرى نواعب فى عرض الفلا ورواسم
له من إياد قمة المجد حينما سمت ولها منه البنى والدعائم
ولو علم الشيخان أدّ ويعرب لسُرّت إذا تلك العظام الرمائم
تلاقى بك الحيان فى كل محفل جليل وعاشت فى ذراك العمائم
إذا أنت ضيعت القريض وأهله فلا عجب إن ضيعته الأعاجم
فقد هز عطفيه القريض توقعا لعدلك مذ صارت إليك المظالم
ولولا خلال سنها الشعر ما درى بناة الندى من أين تؤتى المكارم

وهو القائل فى ابن أبى دؤاد من قصيدة أخرى :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

ومدحه مروان بن أبى الجنوب بقوله :

لقد حازت نزار كل مجد ومكرمة على رغم الأعادى
فقل للفاخرين على نزار ومنهم خندف وبنو إياد
رسول الله والخلفاء منا ومنا أحمد بن أبى دؤاد
وليس كمثلهم فى غير قومى بموجود إلى يوم التنادى
نبى مرسل وولاة عهد ومهدىٌ إلى الخيرات هادى

ولما سمع أبو هفان المهزمى هذا الشعر قال :

فقل للفاخرين على نزار وهم فى الأرض سادات العباد :
رسول الله والخلفاء منا ونبرأ من دعى بنى إياد
وما منا إياد إن أقرت بدعوة أحمد بن أبي دؤاد

فقال ابن أبى دؤاد : مابلغ منى أحد مابلغ هذا الغلام المهزمى ، لولا أنى أكره أن أنبه عليه لعاقبته عقاباً لم يعاقب أحد بمثله ؛ جاء إلى منقبة كانت لى فنقضها عروة عروة .

وكان ابن أبى دؤاد كثيراً ما ينشد هذين البيتين ولم يذكر أنهما له أو لغيره ، وهما :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما   نجح الأمور بقوة الأسباب

فاليوم حاجتنا إليك وإنما   يدعى الطبيب لشدة الأوصاب

وحدث المرزبانى عن أحمد بن أبى دؤاد أنه لما قال أبو نواس فى الأمين :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة   قم سيدى نعص جبار السموات

تفزع ابن أبى دؤاد وجعل يقول : لعنه الله ! لعنه الله ! وأحسن ابن أبى دؤاد فى لعنه إياه على هذا الكلام .

ولما أنشد على بن الجهم قصيدته التى مدح بها المتوكل جاء فيها :

وصاح إبليس بأصحابه   حل بنا مالم نزل نحذر

مالى وللغر بنى هاشم   فى كل دهر منهم منذر

عظم ذلك على ابن أبى دواد ، فأطرق ، فقال ابن الجهم : يا أبا عبد الله ، ماسمعت مديحاً للخلفاء مثل هذا . قال : ولا غيرى ، ولا توهمت أن أحداً يجترىء على مثله

ومن أجوبته : قال دخلت على الواثق فقال : مازال قوم اليوم فى ثلبك ونقصك . فقلت : يا أمير المؤمنين ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . فالله ولى جزائه ، وعقاب أمير المؤمنين من ورائه ، وما ضاع امرؤ أنت حافظه ، ولا ذل من كنت ناصره ، فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين ؟

قال : يا أبا عبد الله :

وسعى إلى بعيب عزة نسوة   جعل المليك خدودهن نعالها

وكان أبو العيناء الضرير يقول : ما رأيت فى الدنيا أقوم على أدب من ابن أبى دؤاد ، ما خرجت من عنده يوما قط فقال : ياغلام خذ بيده ، بل قال : ياغلام اخرج معه . فكنت أنتقد هذه الكلمة عليه فلا يخل بها ولا أسمعها من غيره

وأصيب ابن أبى دواد بالفالج فى أول خلافة المتوكل ، وذهب شقه الأيمن لست خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٣٣ هـ بعد موت عدوه محمد بن الزيات ، وولى المتوكل ولده محمد بن أحمد ابن أبى دؤاد المظالم ثم عزله سنة ٢٣٦ هـ وأمر

بالتوكيل عن ضياعه، وأخذ منه مائة ألف وعشرين ألف دينار، وجوهراً بأربعين ألف دينار، وتوفى أحمد فى المحرم سنة ٢٤٠ هـ بعد وفاة ولده بشهر أو نحو ذلك؛ فلما مات وطلع سريره قام إليه ثلاثة من الشعراء، فقال أحدهم:

اليوم مات نظام الملك واللسن ومات من كان يستعدى على الزمن
وأظلمت سبل الآداب إذ حجبت شمس المكارم فى غيم من الكفن

وتقدم الثانى فقال:

ترك المنابر والسرير تواضعا وله منابر لو يشا وسرير
ولغيره يجبى الخراج وإنما يجبى إليه محامـــد وأجور

وتقدم الثالث وهو العطوى فقال:

وليس فتيق المسك ريح حنوطه ولكنه ذاك الثناء المخلف
وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه أصلاب قوم تقصف

أحمد هاشم عطية

المراجع . . .
ابن خلكان جزء أول
الأغانى جزء ٥، ٧، ٨، ١٢، ١٤، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١ ـ الموشح للمرزبانى ـ زهر الآداب للحصرى ـ العقد الفريد ـ كتاب الاعتزال للقاسمى ـ الخطيب البغدادى ـ هبة الأيام .

ثمامة بن اشرس

للأستاذ على السباعى

المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

هو أبو معن ثمامة بن أشرس النميرى (١) أحد ناشرى الاعتزال ، ورأس طائفة نسبت إليه تسمى الثمامية ، ولد بالبصرة ؛ وليس بذى بال أن يعين المؤرخون فى أية محلة من محلاتها ولد ، ولا فى أى يوم وجد ، ما داموا قد أحاطونا علما بعصره ومن أدرك ، وأوقفونا على آثاره وما ترك . وقد حدثونا أنه بعد نشأته فى البصرة ، مدرسة العلم والأدب ، ومهد اللغة والاعتزال فى القرنين الأول والثانى ؛ صعد منها إلى بغداد ، موطن الغنى والجاه ، ومباءة العلماء والأدباء ، ومصدر الشهرة وذيوع الصيت ؛ فالتقى فيها ببشر بن المعتمر رئيس المعتزلين فى بغداد ، فأخذ عنه كما كان أخذ عن أبى الهذيل العلاف فى البصرة . ومن زملائه فى الطلب ببغداد ، موسى المزدار ، وأحمد بن أبى دؤاد ، والجعفرين : جعفر ابن مبشر ، وجعفر بن حرب؛ ويظهر أن من زملائه فى البصرة الجاحظ. واستنباط بعضهم أنه من شيوخ الجاحظ لأنه يقول : حدثنى ثمامة ، أخبرنى ثمامة ؛ أو لأنه نقل عنه كثيرا فى كتابيه البيان والتبيين والحيوان - ليس بقوى مدعم بالبراهين ، لأن العلماء المعاصرين ينقل بعضهم عن بعض من غير أن يكون

---

(١) نسبة إلى قبيلة بنى نمير المشهورة؛ ومن شعرائها الراعى ، وأبو حية النميرى ؛ وقد هجاها جرير بقصيدته الدامغة ، ولكن هجاءه لم يذهب بشرفها ولم يحط من مكانتها ؛ فقد كانت إحدى جمرات العرب ؛ والجمرة : القبيلة تصبر لقراع القبائل لا تحالف أحداً ولا تنضم إلى أحد اعتزازاً بقوتها؛ وإلى ذلك يشير أبو حية :

لنا جمرات ليس فى الأرض مثلها كرام وقد جربن كل التجارب

نمير وعبس يتقى نفيانها وضبة قوم بأسهم غير كاذب

والنفيان : معناه رشاش السحاب ، شبه به من يتطرف من الجيش

أحدهم أستاذا للآخر، ولأن ثمامة مشهور بالاعتزال. وشيخ الجاحظ فى ذلك النظّام.

وحين اشتهر أمره فى بغداد، وعرفته مجالس العلم والمناظرة مجادلا ظاهر الحجة، قوى البديهة، مسكت الجواب، ذا حكايات ظريفة، ونوادر طريفة - رحبت به مجالس الوزراء، وفتحت له أبواب الخلفاء، فاختلف إليهم وأصبح من الندامى والسمار، بل فى منزلة المستفتى المستشار، أنس به الرشيد وقربه إليه، ثم غضب عليه لزندقته وظهور كذبه فى أمر أحمد بن عيسى بن زيد(١) فأمر بحبسه - كما يقول الطبرى - فى سنة ١٨٦ وأسلمه إلى سجان يدعى سلاما الأبرش وأشار إليه بالتضييق عليه وتعذيبه فسجنه — كما يعترف ثمامة — فى بيت ضيق خرب مملوء بأجحار الهوام والجرذان، وليس به من المنافذ إلا ما يدس منه الطعام، وقد استعطف الرشيد بأبيات فعفا عنه وقربه وجعله نديمه، لما رأى من نضج عقله، وحسن أدبه، وحلاوة حديثه.

واتصل بالمأمون بعد الرشيد فحظى بمكانة لا تسامى، وجعله منه بمنزلة الاستاذ الخبير، والناصح المستشار، وقد عرض عليه الوزارة مرتين فأباها، لا زهداً فى المنصب وقناعة بما يملك، وإنما توقياً لأخطار الوزارة، وبعداً عن غيرها، وسلامة من تقلب الخلفاء وتغيرهم؛ وقد أعرب هو نفسه عن ذلك فقال: لما قتل الفضل ابن سهل بعث إلى المأمون — وكنت لا أنصرف من عنده إلا إلى منزلى، ثم يأتينى رسوله فى جوف الليل فأذهب إليه — وكان قد أهلنى لمكان الفضل فى الوزارة، فلما رأيته قد ألح على فى ذلك تعاللت عليه وقلت: يا أمير المؤمنين، «إنى لا أقوم بذلك، وإنى لأضن بموضعى من أمير المؤمنين وحالى أن تزول

(١) هو من نسل الحسين بن على، كان خارجا على الخلفاء العباسيين متعباً لهم، ومات فى زمن المتوكل بعد إسحاق الموصلى فى سنة ٢٣٥ هـ، وقد قال المتوكل لما بلغه نعيه، وكان مغتما لوفاة إسحاق: تكافأت الحالتان، وقام الفتح بوفاة أحمد (وما كنت آمن وثبته على) مقام الفجيعة بإسحاق فالحمد لله على ذلك.

عنده ، فإنى لم أر أحداً تعرض للخدمة والوزارة إلا لم يكن لتسلم حاله ، ولا تدوم منزلته . ، فقال المأمون : أشر ياثمامة على برجل صالح لما أريد . فأشار عليه بأحمد ابن أبى خالد الأحول... فأنت ترى من نص عبارته أنه كان راغباً عن الوزارة ، لازاهداً كما كان يفعل نظراؤه من المعتزلين الزاهدين أمثال عمرو بن عبيد وواصل والجعفرين ، الذين كانوا يرفضون ولاية الأعمال والقضاء ، بل يأبون مقابلة الخلفاء ، ويقبضون أيديهم عن أخذ العطاء - وإنما لأنه شديد الحذر ، بصير بالعواقب ، مقدرما ينوب صاحب السلطان من خطر ؛ وكيف لايقدر ذلك وقد رأى وسمع مالاقاه الوزراء فى هذه الدولة ، بل جرب هو نفسه تقريبه ثم إبعاده ، وإجلاله ثم إهانته وسجنه ، وقد ظل ثمامة أثيراً عند المأمون ، محبوًّا بالعطاء ، مقدماً فى مجالس العلم والمناظرة ، حتى مات كما قال ابن شاكر فى كتابه المخطوط عيون التواريخ سنة ٢١٣ هـ .

معتقده :

كان ثمامة من القدرية الذين يجحدون القدر أو ينسبون إلى التكذيب بما قدر الله من الأشياء ، وقد أراد بعض متكلميهم أن ينفى هذه التسمية عنهم ، متعللا بأنهم ينفون القدر ولا يثبتونه ، ومن يثبته أولى بهذه التسمية ؛ ولكنه فى هذا التعليل بموه يلبس الباطل ثوب الحق ، لأنهم ينكرون القدر لله ويثبتونه لأنفسهم ، فهم قدريون يثبتون القدر لهم ، وتسميتهم بهذا مولدة ، إذ لم تعرف العرب القدرية بهذا المعنى ؛ ولثمامة طائفة نسبت إليه ذكرها الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل ، وذكر خلاصة مذهبه الذى انفرد به عن أصحابه فحصره فى :

(١) أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها

(٢) أن الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والبهائم وأطفال المسلمين يصيرون تراباً يوم القيامة .

(٣) أن الاستطاعة هي السلامة وصحة الجوارح وخلوها من الآفات وهى موجودة قبل الفعل

(٤) أن المعرفة متولدة من النظر ، فهى كسائر الأفعال المتولدة لافاعل لها .

(٥) أن المعارف كلها ضرورية ، ومن لم يضطر إلى معرفة الله فهو معذور مسخر للعباد كالحيوان .

(٦) أن العالم فعل الله بطباعه

وبالتأمل والاطلاع على آراء المعتزلة نجد أن الأفعال المتولدة فى مذهب كثير منهم لافاعل لها ، غير أن ثمامة توسع وأدخل فيها المعرفة وحكم بأنها متولدة من النظر ، وليس لك فيها إلا توجيه الإرادة . أى أنها ضرورية ، وذلك رأى الجاحظ وطائفته أيضاً ، ويترتب على القول بهذا أن آراء الإنسان وعقائده ليست مكتسبة ، بل هى مفروضة عليه فرضاً ، وأنها نتيجة لازمة لتكوين عقله وما يعرض من الآراء ، فمن عرض عليه دين فلم يستحسنه عقله يضطر إلى عدم الاستحسان وليس فى قدرته أن يستحسن ، ومن أسلم عن نظر فإسلامه غير مكتسب ، ومن كفر فكفره غير مكتسب ، أى لا دخل له فى كفره أو إيمانه ، وأن الأضرار التى تحدث غير مباشرة للفاعل لا عقاب عليها ولا مسئولية فيها ؛ فإذا أشعل إنسان عوداً فأحرق بيتاً وتولد عن الإحراق موت أشخاص - وعن موتهم أضرار لا يسأل من أشعل عن هذه الأضرار ، لأنه قد يكون ميتاً والميت لا يمكن نسبة شىء إليه ، ولو تأملوا فى ربط المسببات بأسبابها ، وإسناد الحوادث إلى أصولها ، لصح عندهم أن المتولدات راجعة إلى الفاعل الأول بتسلسلها عما قبلها .

وبقراءة كتاب الانتصار لابن الخياط يعلم أن مذهب ثمامة فى الكفار والمشركين الخ ، وعقيدته فى أن العالم فعل الله بطباعه - مدسوس عليه ؛ فقد قال ابن الخياط فى ص ١٧٢ :

« وأما اليهود والنصارى والزنادقة فكفار عنده مشركون عامدون للمعصية والكفر ، والكفار عنده فى النار خالدون ، وإنما قال ثمامة : إن من لم يعرف فهو معذور عند الله وهو ليس يهودياً ولا نصرانياً ولا زنديقاً إذا كان جاهلا ، ولكنه مع قوله هذا يحكم على جميع من أظهر الكفر أنه كافر فى حكم الإسلام »

وقال فى الرد على أن العالم فعل الله بطباعه فى ص ٢٢ ، ٢٣ :

« ويله من حكى هذا القول عن ثمامة ! أو ليست كتب ثمامة معروفة وقوله

مشهوراً ؟ وهل المطبوع عند ثمامة إلا الأجسام المعتملة المحدثة ؟ فأما القديم الذى ليس بجسم فسبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا ، وشيء آخر . وهو أن المطبوع على أفعاله عند أصحاب فعل الطباع هو الذى لا يكون منه إلا جنس واحد من الأفعال كالنار التى لا يكون منها إلا التسخين ، والثلج الذى لا يكون منه إلا التبريد ؛ وأما من تكون منه الأشياء المختلفة فهو المختار لأفعاله لا المطبوع عليها »

وبدهى أن من فى الكون وما فيه مختلف جد الاختلاف فى أجناسه وأنواعه حجومه ومقاديره ، ألوانه وأشكاله ، حركاته وسكناته ، فلا يمكن صدوره مطبوعاً ؛ وباطل أن يكون موجده أوجده بطباعه كما تقول ابن الراوندى وأشرك غيره معه كذباً ليكسب آراءه الوجاهة والاعتبار

ومن رد ابن الخياط على ابن الراوندى يعلم ما فى كتاب الشهرستانى من التساهل فى النقل وتحامله عليه فى وصفه بأنه « كان جامعاً بين سخافة الدين وخلاعة النفس » كيف والخلفاء كانوا يجلونه ويحترمونه ؟

مناظراته :

كان ثمامة قويا فى الجدل ، بارعا فى دحض الحجج وإسكات المناظرين ، يأخذ الطريق عليهم أحيانا فلا يدع لهم مسلكا من حسن ما استقصى وقسم ، ويسألهم أحياناً حتى إذا استوت حججهم فى أجوبتهم عمد إليها فأسقطها حجة حجة بعد أن أشهدهم على ضعفها ، وقد ناظر وزراء وقضاة وعلماء ومغمورين لا نعرف عن صفاتهم شيئاً ، وتمكن بقاطع براهينه وقوة بيانه ، وقرب منزلته من الخلفاء ، من إفحام المجادلين ؛ ولا تحسبن أنه فاز فى ميدان الجدل دائما ، فسترى أن مجنونا أسكته ، وطفلا أفحمه ، وفوق كل ذى علم عليم ، وليس بغريب أن يغلب العوام والأطفال والنساء فطاحل العلماء وفلاسفة كباراً إذا كان المعول على البداءة والاعتماد على الذكاء وقوة الملاحظة ؛ وقديما قرأنا فى كتب التاريخ أمثالا عدة توضح ذلك أجلى توضيح ، وننقل هنا بعض مناظراته لترى كيف كان يفوق فى حواره بالظفر ، أو يرمى بالبهت وقصر النظر .

(١) ناظر يحيى بن أكثم (١) فى خلق الأفعال فقال : ليست تخلو أفعال العباد من أمور : أن تكون كلها من الله ليس للعباد فيها صنع ، أو أن يكون بعضها من العباد وبعضها من الله . فإن زعمت أن ليس للعباد فيها صنع نسبت إلى الله كل فعل قبيح وكفرت ، وإن زعمت أنها من الله ومن العباد جعلت الخلق شركاء لله فى فعل الفواحش والكفر وكفرت أيضا ، وإن زعمت أنها للعباد ليس لله فيها صنع صرت إلى ما أقوله .

(٢) حكى الجاحظ أن بشر بن المعتمر كان فى مجلسه وعنده أصحابه ومعه مجبر يسألهم ويقول : أنتم تحمدون الله على إيمانكم ؟ وهم يقولون: نعم. فيقول لهم: فكأنه يحب أن يحمد على مالم يفعل وقد ذم ذلك فى كتابه . فيقولون له : إنما ذم من أحب أن يحمد على مالم يفعل ممن لم يعن عليه ولم يدع إليه . وهو يشغب عليهم - إذ أقبل ثمامة بن أشرس ، فقال بشر للمجبر : قد سألت القوم وأجابوك ، وهذا أبو معن فاسأله عن المسئلة . فقال له : هل يجب عليك أن تحمد الله على الايمان قال : بل هو يحمدنى عليه لأنه أمرنى به ففعلته ، وأنا أحمده على الأمر به والتقوية عليه والدعاء له . فانقطع المجبر ، فقال بشر : شبعت فسهّلت .

(٣) قال ثمامة أنشدنى أبو العتاهية :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقلت له: من أين قضيت بهذا ؟ فقال: من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت . فقلت له: أتؤمن بأن هذا قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنه الحق ؟ قال: نعم. قلت:

---

(١) هو محمد يحيى بن أكثم التميمى ، وقال الشهاب الخفاجى : إنه ابن أكتم بالتاء وجزم بذلك فى شرح الدرة ، ولكن الأول هو المشهور . كان قاضياً للرشيد ، ثم وزر للمأمون ، وكان من بحور العلم لولا دعابة فيه ، ومن تلاميذه الترمذى والسراج ، وتوفى سنة ٢٤٢ هـ

فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة فى دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكى ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال : يا أبا معن ، والله إن ماقلت هو الحق ، ولكننى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس . فقلت : وبمَ تزيد حال من افتقر عن حالك وأنت دائم الحرص دائم الجمع شحيح على نفسك لا تشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فترك جواب كلامى كله ثم قال لى : والله لقد اشتريت فى يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم . فلما قال هذا القول أضحكني حتى أذهلنى عن جوابه ومعاتبته ، فأمسكت وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للأسلام .

(٤) قال رجل لثمامة : إن لى إليك حاجة . قال ثمامة : ولى اليك حاجة . قال : وماهى ؟ قال : لا أذكرها حتى تضمن قضاءها . قال : قد فعلت . قال : ثمامة حاجتى ألا تسألنى هذه الحاجة . قال : رجعت عما أعطيتك . قال ثمامة : لكنى لا أرد ما أخذت الخ

(٥) قال رجل لثمامة : أنت إن شئت قضى فلان حاجتى . فقال ثمامة : أنا قدرى ، ولم تبلغ قدريتى هذا كله ؛ إنما قلت : إن شئت فعلت ولم أقل إن شئت فعل فلان

(٦) دخل أبو العتاهية على المأمون فطعن على أهل البدع وجعل يخص القدرية باللعن ؛ فقال له المأمون : أنت صاحب شعر ولغة ، وللكلام قوم. قال: يا أمير المؤمنين ، لعمرى إن صناعتى لتلك ، ولكننى أسأل ثمامة عن مسألة فقل له يجيبنى . فقال له المأمون : لا ترد هذا فلست فى الكلام من طرزه . فقال : يتفضل على أمير المؤمنين بذلك ؟ فقال : يا ثمامة ، إذا سألك فأجبه . فأخرج أبو العتاهية يده من كمه ثم حركها وقال : يا ثمامة ، من حرك يدى ؟ قال : من أمه لخناء . فقال : شتمنى والله . فقال ثمامة : ناقض والله . فقال له المأمون : قد أجاب عن المسألة ، فإن كان عندك زيادة فزده . فانصرف أبو العتاهية

وإنما قال ثمامة : ناقض والله . لأن أبا العتاهية كان مجبراً وثمامة قدرى

(٧) قال ثمامة : خرجت من البصرة أريد المأمون ، فإذا بمجنون مشدود حسن الوجه كأنه صحيح العقل ، فقال لى : ما اسمك ؟ قلت : ثمامة . قال : آلمتكلم؟

قلت : نعم. قال : لم جلست على هذه الآجرة ولم يأذن لك أهلها ؟ قلت : رأيتها مبذولة فجلست عليها . قال: فلعل لأهلها فيها تدبيراً غير البذل ... ثم قال : هنا مسألة أسألك عنها . قلت : هات . قال : ألست القائل : إن العبد لا ينفك عن نعمة يجب الشكر عليها أو بلية يجب الصبر لديها ؟ فقلت : نعم . قال : لو أصبت بما يلزمك عيباً ويصمك بالعار ، أهذا نقمة أم نعمة ؟ قال ثمامة : فتحيرت ولم أدر ما أقول ؛ فقال : وهنا مسألة أخرى . فقلت : هات . قال لى : أخبرنى متى يجد صاحب النوم لذة النوم ؟ إن قلت قبل أن ينام ، أحلت ؛ لأنه يقظان ، وإن قلت فى حال النوم ، أبطلت ، لأنه لا يعقل شيئاً ، وإن قلت بعد قيامه ، فقد خرج عنه ، ولا يوجد الشيء بعد فقدانه ، قال ثمامة : فبهت ولم أستطع جواباً . فقال المجنون : مسألة أخرى . تزعم أن لكل أمة نذيراً ، فمن نذير الكلاب ؟ قلت : لا أدرى الجواب. فقال : أما الجواب عن التقسيم فيجب أن تكون الأقسام ثلاثة : نعمة يجب الشكر عليها ، وبليتان : بلية يجب الصبر لديها ، وبلية يمكن التحرز عنها لكيلا ينضم العار إليها ، وأما الجواب عن النوم ، فمحال أن يدرك النائم لذة النوم ، وأما النذير ، فقد أخرج من كمه حجراً وقال : إذا عدا عليك كلب فهذا نذيره . ورمانى بالحجر فأخطأنى ، فلما رآه قد أخطأنى قال : فاتك النذير أيها الكلب الحقير ! فتركته وانصرفت : ولم أر مجنوناً بعده .

(٨) قال الجاحظ : قال ثمامة : دخلت إلى صديق لى أعوده ، وتركت حمارى على الباب ، ولم يكن معى غلام ، ثم خرجت فإذا فوقه صبي ، فقلت : لم ركبت حمارى بغير إذنى ؟ قال : خفت أن يذهب فحفظته لك . قلت : لو ذهب كان أحب إلى من بقائه . قال : فإن كان هذا رأيك فى الحمار فاعمل على أنه قد ذهب وهبه لى واربح شكرى . فلم أدر ما أقول .

والمناظرتان الأخيرتان غلب فيهما ثمامة وانقطع عن الإجابة

مجونه :

من يتتبع مناقشات ثمامة ونوادره لا يسعه إلا أن يحكم عليه بأنه كان قليل الاكتراث ، لا يحافظ على سمت العلماء ووقارهم ، فلم يمنعه الحياء أن ينطق بالعوراء

أمام المأمون فى مناقشته أبا العتاهية ، ولم يستتر حين كان يرتكب ما يوجب استهجانه ونقده ، ولم يبال بالعامة فى شىء ؛ وله فى تحقيرهم وعدم الاعتداد بهم الكثير ؛ ولقد كان يحسبهم قطيعاً يساق بالعصا ويتبع كل ناعق ، وبلغ من استخفافه بهم أنه حرض المأمون أن يلعن معاوية ، ويكتب بذلك كتاب يقرأ على العامة فى يوم الدار ؛ وهم المأمون بذلك لولا أن أشار عليه يحيى بن أكثم فقال : « الرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، وألا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصح فى السياسة وأحرى فى التدبير ، فمال المأمون إلى رأى يحيى ، فقال ثمامة : وما العامة ؟ والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها ، وقد سواها الله بالأنعام فقال : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وحكى للمأمون مشهداً رآه فأضحكه ، وإنا لذاكرون بعض نوادره لنؤيد ما إليه قصدنا بهذا العنوان

(١) خرج من منزله بعد المغرب وهو سكران ، فإذا هو بالمأمون قد ساق إليه وحاذاه ، وقد ركب فى نفر ؛ فلما رآه ثمامة عدل عن طريقه ، وبصر به المأمون فساق إليه وحاذاه أيضاً ، فوقف ثمامة ، فقال له المأمون : أنت ثمامة ؟ قال : إى والله . قال : سكران أنت ؟ قال : لا والله . قال : أو تعرفنى ؟ قال : إى والله . قال : فمن أنا ؟ قال : لا أدرى والله ! فضحك المأمون وانثنى عن دابته حتى كاد يقع

(٢) قال ثمامة : مررت بإبراهيم الموصلى فزيزيد حوراء وهما مصطبحان وقد أخذا بينهما صوتاً يغنيانه ، هذا بيتاً وهذا بيتاً ، وهو :

أيا جبلى نعمان بالله خليا ... سبيل الصبا يخلص إلى نسيمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت ... على نفس مهموم تجلت همومها

قال ثمامة : فو الله ما خلت أن شيئاً بقي من لذات الدنيا بعد ما كانا فيه أليس فى قوله استصواب للسكر وحث عليه واستنكار لبقاء لذات الدنيا بعد السكر والغناء ؟ وفى ذلك من الاستهتار والمجانة ما فيه .

(٣) ومن نوادره وأجوبته المسكتة معاً أن قالوا له حينما احترقت داره : « ما أسرع خلف الحريق ! » فقال : « فأنا أستحرق الله »

(٤) وما رواه الحسن بن رجاء أن سلاما الأبرش سجان هرون الرشيد جلس يقرأ عشية فى المصحف : « ويل يومئذ للمكذِّبين » فقال له ثمامة من السجن : إنما هى للمكذَّبين . وجعل يشرح له ويقول : المكذَّبون هم الرسل ، والمكذبون هم الكفار . فقال سلام : « قد قيل لى إنك زنديق ولم أقبل » ولما رضى الرشيد عن ثمامة وأطلقه سأل جلساءه عن أسوإ الناس حالا فقال : كل واحد شيئاً أما ثمامة فقال : « أسوأ الناس حالا عاقل يجرى عليه حكم جاهل » قال ثمامة : فتبينت الغضب فى وجه الرشيد، فقلت : يا أمير المؤمنين « ما أحسبنى وقعت بحيث أردت » قال : لا والله ، فاشرح . فحدثته بحديث سلام ، فجعل يضحك حتى استلقى وقال : صدقت ، والله لقد كنت أسوأ الناس حالا

أدبه

ليس تحت أيدينا ـ بحسب ما وسعنا البحث ـ من الأدلة الناطقة بعلو كعب ثمامة فى الأدب شىء يذكر ، فلم نقرأ له مقطوعات شعرية رائعة تشهد له بسمو الخيال أو البراعة فى الابتكار . ولم نقف له على رسائل دبجها قلمه وأساتها يراعته ، ولم نحفظ عنه خطبا رددتها المحافل وتناقلها الرواة ؛ ولكننا نقرأ شهادات من معاصريه تقر بأنه كاتب بليغ وأديب ضليع ومناظر بارع ، وتصف ألفاظه ومعانيه بصفات البلاغة مجتمعة والفصاحة كاملة ، ولعل آثاره التى بنوا احكامهم عليها اندثرت فيما اندثر من نتاج القرائح وثمرات الأفكار ؛ إما حقداً عليه لمنزلته من الخلفاء وتمكنه من تجريح المناظرين أمامهم ، وإما لأنها كانت تشتمل على مذاهب لا ترضاها العامة وقد نالت منه ما نالت فبادلته بالتحقير إخفاء لأثره وتضييعا لنتاجه ، وإما لأنها كانت تتضمن قوارص ومخازى تحز فى الخصوم وتعيب جلساءه ، ولم يصل إلينا إلا نتف من أخباره ونوادره ، وطرف من مناقشاته ، وإنها مع قلتها لتبين لنا مقدار تأثر الأدب بعلم الكلام وتجلى قوته البلاغية ، والجاحظ ممن يقرون له بالأدب ويعترفون ببلاغته ؛ وحسبك بإقرار الجاحظ واعترافه شهادة

قال الجاحظ : يقول ثمامة : « كان جعفر بن يحيى البرمكى أنطق الناس . قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض

ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة » وقال ثمامة أيضا : « ما رأيت أحداً كان لا يتحبس ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولا يتلمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه - أشد اقتداراً ولا أقل تكلفا من جعفر بن يحيى » يقول الجاحظ بعد هذا القول : « وهذه الصفات التى ذكرها ثمامة فوصف بها جعفر بن يحيى كان ثمامة ابن أشرس قد انتظمها لنفسه، واستولى عليها دون جميع أهل عصره ؛ وما علمت أنه كان فى زمانه قروى ولا بلدى بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف، ما كان بلغه ؛ وكان لفظه فى وزن إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك ؛ قال بعض الكتاب :

« معانى ثمامة الظاهرة فى ألفاظه ، الواضحة فى مخارج كلامه ، كما وصف الخريمى شعر نفسه فى مديح أبى دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة إزاء القلوب كركب وقوف »

انتهت شهادة الجاحظ ، وهى تعترف فى صراحة ووضوح بأن منزلة ثمامة من البلاغة منزلة من تملكوا زمامها وتصرفوا فيها بما يعجب ويطرب .

ومما يدل على بلاغته وفصاحته النبذ التى نذكرها بعد :

(١) سأل المأمون يحيى بن أكثم وثمامة بن أشرس وعلى بن عبيدة الريحانى عن العشق ما هو ؟ فقال على بن عبيدة : العشق ارتياح فى الخلقة ، وفكرة تجول فى الروح ، وسرور منشؤه الخواطر ، له مستقر غامض ، ومحل لطيف المسالك ، يتصل بأجزاء القوى وينساب فى الحركات .

وقال يحيى : العشق سوانح تسنح للمرء تؤثرها النفس ويهيم بها القلب . قال ثمامة : يا يحيى ، إنما عليك أن تجيب فى مسألة فى الطلاق أو عن محرم يصطاد ظبياً ، أما هذه فمسألتنا . فقال المأمون : ما العشق يا ثمامة ؟ قال :

إذا تقادحت جواهر النفوس بوصف الشاكلة ، أحدثت لمع برق ساطع تستضىء به نواظر العقول ، وتشرق له طبائع الحياة ، فيتولد من ذلك البرق نور

خاص بالنفس متصل ، بجوهريتها ، يسمى عشقا . وقيل : إنه قال : « العشق جليس ممتع ، وأليف مؤنس ، وصاحب مالك ، وملك قاهر ، مسالكه لطيفة ، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة ؛ ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراءها ، وأعطى عنان طاعتها وقياد ملكها وقوى تصرفها ؛ توارى عن الأبصار مدخله ، وغمض فى القلوب مسلكه » فقال له المأمون : أحسنت يا ثمامة ؛ من يصف العشق يصفه مثلك ، فإنك طبيبه الحاذق . وأعطاه ألف دينار . وأنت ترى فى تعريفه الأول مذهبه من التولد والاتصال والامتزاج ، وتراه فى تعريفه الثانى يستقصى الصفات والآثار على طريقة المتكلمين والفلاسفة حين يصفون أو يشرحون

(٢) روى الجاحظ عن ثمامة يصف تلاعب الجرذان وقتالها حين حبسه الرشيد فى بيت ضيق ملىء بأجحارها :

« لم أر قط أعجب من قتال : كنت فى الحبس وحدى ، وكان فى البيت الذى أنا فيه جحر فأر يقابله جحر آخر ، فكان الجرذ يخرج من جحره فيرقص ويتوعد ويصوب بذنبه ويرفع صدره ويهز رأسه ، فلا يزال كذلك حتى إذا برز الآخر ، دخل فى جحره وصنع الآخر مثل ذلك ؛ فلا يزالان كذلك فى الوعيد وفى الفرار وفى التحاجز وفى ترك التلاقى ، إلا أنى فى كل مرة أظن الذى يظهر لى من جدهما وشدة توعدهما أنهما سيلتقيان لشىء أهونه العض والخمش ، ولا والله إن التقيا قط ؛ فعجبت من وعيد دائم لا إيقاع معه ، ومن فرار دائم لا ثبات معه ، ومن فرار لا يمنع العودة ، ومن إقدام لا يوجب الالتقاء ، ليس هو إلا الصخب والتشبث . فلم يعد كل واحد منهما حتى يدخل جحره ، وما زالا كذلك حتى أتى الله تعالى بالفرج وخلى سبيلى .

(٣) كتب ثمامة إلى الرشيد من الحبس :

عبد مقر ومولى شت نعمته ... بما تحدث عنه البدو والحضر
أوقرته نعما أتبعتها نقما ... طوارقا فبها فى الناس يشتهر
ولم تزل طاعتى بالغيب حاضرة ... ما شانها ساعة غش ولا غير

فإن عفوت فشيء كنت أعهده . أو انتصرت فمن مولاك تنتصر

ولم نر له فيما وصلت إليه أيدينا من المصادر شعراً غير هذا ، ولم يحدثنا من كتب عنه أنه شاعر ؛ وما قدمناه عن ثمامة لا يجعل صلته بالأدب وثيقة ذات بال ، فترجمته فى علم الكلام أليق وأولى .

على السباعى

المصادر :

البيان والتبيين للجاحظ ، الحيوان له أيضا ، الأغانى ، أمالى المرتضى ، عيون التواريخ لابن شاكر المخطوط بدار الكتب ، تاريخ الخطيب البغدادى ، معجم الأدباء ، الفهرس لابن النديم وتكملته ، تاريخ الطبرى ، الانتصار لابن الخياط .



حافظ الراوية

للأستاذ محمد هاشم عطية

فى هذه الفترة من نهضتنا الحاضرة لم يقتصر شاعرنا الكبير على ما أذاعه من آثار عبقريته فى أشعاره الخالدة ، ولكنه استطاع أن يستأثر بنصيب غير قليل من تلك المعونة الطيبة التى كانت موجهة من كل ناحية لأحياء اللغة ونشر آدابها العالية ، ومحاولة الاسترداد لبعض ماسلبته من مجدها القديم فى عصورها الزاهرة ، ففى أوائل هذا الجيل تطلعت الأنظار إلى الشعر العربى ، وأصغى أبناء العربية إلى ما تدوى به منابر الأمصار الكبرى فى بلاد المشرق ، ومايسيره فحول شعرائها من شوارد القريض ، حتى أوشكوا أن يعيدوا إلى الأذهان ما كان للشعر والشعراء فى دور الأمراء ، وقصور الملوك ، أيام ازدهار الخلافة . واستبحار العمران العربى فى الدولة ، وفى ذلك الوقت كان الناس لا يزالون يتخذون مجالسهم فى صحون الدور ، ومناظر المنازل ، وتقوم الليالى الساهرة فى كثير من قصور السروات على بغاة الحديث والسمر ، الذين يتطرفون بما كان يدور فى هذه المجامع الراقية من المجاذبة والبوادر المرتجلة ، والطيب المأثور عن أمثال حافظ ، والبابلى ، والمويلحى ، أولئك الذين كان اجتماع ثلاثتهم فى وقت واحد يعد حقاً منقبة نادرة فى تاريخ مصر الحديث ، حتى سعى المتأدبون والظرفاء إلى حلقاتهم ، وطلبوهم فى مظانهم ، وتَنَفَّقُوا عندهم بكل موهبة ، وتطيبوا لهم بكل فن ، وتنبه الناس فى تقليدهم الأدبى إلى مسلك البارودى ، وحافظ ؛ فى الاحتفال باللفظ ، والتوخى لجزالة المنطق ، والإيثار لجلالة العبارة ؛ وكان حافظ إمام هذه الطبقة فى الاستظهار لجيد الشعر ، والمعرفة بأوابد المتكلمين ، ومقامات البلغاء ؛ وكان طويل الملازمة لآثار عشرة من أعيان شعراء العربية أكثر من غيرهم من شعراء العصور الأخرى ، لا نعلم أنه اجتمع أمثالهم فى نحو قرنين متعاقبين من الزمان لأهل لغة من لغات العالم ، وهم :

بشار ، وأبو العتاهية ، ومسلم ، وأبو نواس ، وأبو تمام ، والبحترى ، وأبو الطيب ،

وأبو العلاء ، وابن الرومى ، والشريف الرضى ؛ - فملأ المحافل بفرائدهم ، والتنويه ببلاغاتهم ، وحمل تلاميذه والمنتحلين لمذهبه على الشغف بدراستهم ، والتفقد لمعانيهم ، وكان أكثر المتأدبين فى ذلك الوقت من نشأ هذا العصر إنما يلمون بالمتداول المشهور عن هؤلاء ، من مثل ، أو حكمة ، فى بيت أو بيتين أو أكثر من ذلك مما لا يبلغ أن يكون قصيدة ، ويدق عن فطنهم فى الجملة ما لهؤلاء العرانين من المنخول المهذب ، والموصوف المبتهل . من حر القول ، وصريح الكلام ، وقد يكون بين أيديهم فى الكتب ، وفيما يطالعونه من الدواوين ، وهم يمرون به لا يعرفونه ، ولا يقدرون على استخراجه ، إذ كان ذلك إنما يقع من عمل البصيرة القادرة ، والخاطر الثاقب ، ومن طول التلبث فى أعقاب الكلام ، ولطف الترقب لمخارج المتكلمين ، مع الاستعانة بالملكات الموهوبة ، والروية القوية ، وطول التجلد على التكرار والمراجعة ، مما كان لحافظ منه حظ قلما شركه فيه أحد من معاصريه ، فأخذ (رحمه الله) بهذه الدراسة العالية ، والمطارحة المشهودة ، يثير العزائم إلى احتمال أمانة اللغة ، ويستكثر حوله من عشاق الأدب القديم ، ويصنع فى مصر صنيع أئمة الرواة فى « بغداد » أيام كانت مدرسة الدنيا ، وعاصمة العالم فى عهود مجدها الذهبية ، بالإملاء من ذاكرته ، والقراءة من غيب صدره ، لكل جديد فائق ، ولكل بيت عين ، ولكل محبرة مطولة ، أو مقطوعة من محاسن أولئك الشعراء ، وكانت طريقته فى ذلك كما يعرفها من كانوا يداخلونه أو يعيشون بعض الوقت معه فى داره ، أنه فى الغالب يزيل تجاليد الكتب ويتخذ منها كراسات صغيرة يخف عليه تناولها فيما يتفق له من الأحوال : قاعداً ، أو قائماً ؛ أو متكئاً على وسادة ، أو مستلقياً فى فراش ، ثم يفرغ منها وقد وعاها ، وألم بما نبه السلف عليه من عيبها وجمالها ، وأضاف إلى ذلك من عنده ما يقع فى نفسه ؛ ويتكرر ذلك منه .

وكان (رحمه الله) من أدرى الناس بمناقب الكلام ، وأفرسهم بالبيت من الشعر ، فيغدو أو يروح على الناس وما يكاد يلقاه صديق ، أو يضمه مع جماعة مجلس ، حتى يبتدر الكلام ، لا يحتال على فرصة ، ولا يجتهد فى طلب مناسبة ، وقد

يواقفهم فى الطريق ، أو يعارض المارة منهم ، أو يناديهم إذا رآهم من كثب ، وكان يحمد رأيهم فى النقد ، ومعرفتهم بالأدب ، ليسمعهم ما قرأه اليوم مثلا لبشار الذى يعرفون من بائيته قوله المشهور :

وَمَن ذا الذى تُرضى سجاياهُ كلُّها كفى المرء نبلا أن تُعدَّ معايبه

ثم يعرض منها أروع ما تضمنته من تصوير الجماعة من الوحش فى البادية تشكو لجابها أو قائدها بما ظهر فى عينيها من الانكسار والفترة — ما نالها من شدة العطش والحر إذ يقول :

ولما تولى الحر واعتصر الثرى لظى الصيف من نجم توقد لاهبه
غدت عانة تشكو بأبصارها الصدى إلى الجاب إلا أنها لا تخاطبه

ثم لا يزال يعجبهم من حسنه ، ومن القدرة على تمثيله ، وهو فى خلال ذلك يلقى على ما ينشره من جهارته ، وحلاوة أدائه ، وإشباعه لإملائه ، ما يبهر العقول ، ويستخف إلى طلب المزيد . وقد يدير الحديث إلى أبى نواس ، وكان مخصوصا به ومدّاحا له ، فيكثر منه حتى يكون آخر ما يتمثل به من شعره أبيات فى خمرية له لامية ينتصر فيها لمثل الآراء المتطرفة من مذاهب الثوريين فى زماننا هذا ، وهى قوله :

سأبغى الغنى ، إما جليسَ خليفة يقوم سواء أو مخيفَ سبيل
بكل فتى لا يُستطارُ جنانه إذا نوه الزحفان باسم قتيل
لِنَخمسَ مال الله من كل فاجر أخي بِطنَةٍ للطيبات أكول
كفى حزناً أنّ الجوادَ مُقتَّرٌ عليه ، ولا معروف عند بخيل
ألم تر أن المال عون على التُّقى وليس جواد مُعدِمٍ كمُنيل

وكثيراً ما كان يقتضب هذا الترسل بالإلقاء لبادرة ، أو الانتهاز لغميزة يتضاحك بها أهل المجلس ، ويتملحون عليها ساعة . وقد يتلاحق ذلك من غير واحد منهم ، ثم يعود بهم إلى ما كانوا فيه ، أو يقومون إلى ما أعد لهم من طعام أو نزل ، وتراه فى مقام آخر يمضى إلى أبى تمام ، وكان يتولاه ويؤثره ويقدمه ، فيعدل عن مشهوراته كقصيدته .

« السيف أصدق أنباء من الكتب »

وكالأخرى :

« كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر »

إلى طواله وأعيان شعره فيتقلب بين قوافيه ، من قوله :

« عَلى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلاَعِب »

وقوله :

« غَدَتْ تَستَجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوَى غدِ »

حتى يصل إلى مثل قصيدته :

الحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ فَحذارِ مِنْ أَسَدِ العَرِينِ حَذَارِ

وهى من أعاجيب أبى تمام ، فيطيل وقفته لها ، حتى إذا وصل إلى ذم الأفشين فى قوله منها :

كم نعمة لله كانت عنده فكأنها فى غربة وإسار
كُسِيَتْ سَبَائِبَ لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء فى الأطْمَار

قرظه واستحسن اغتراب النعمة عنده :

وكنا حوله ليلة وهو يتغنى بهذه القصيدة على طريقة جماعة المتكسبين بالأشعار العامية ، فبلغ إلى قوله منها :

سود اللباس كأنما نَسجتْ لهم أيدى السَّمُوم مَدَارِعا من قار
بَكرُوا وأَسْروا فى مُتُون ضَوَامِرٍ قِيدَتْ لهم من مَرْبَطِ النَّجارِ
لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبداً على سفر من الأسفار

ثم التفت إلى الحاضرين ثم قال : « ماذا يصف الشاعر بهذه الأبيات ؟ » فقائل يصف خيلا ، وقائل يصف جيوشاً ، وآخر يقول فرساناً ، فتهانف بهم ثم قال : لا ، بل يصف مصلوبين ، أرأيتم كيف اقتيدت جذوعهم من مربط النجار . وسأله سائل عن حديث أبي تمام مع ابن الصباح الفيلسوف الكندى فى اعتراضه على ما جاء فى سينيته للمعتصم :

* ما فى وقوفك ساعة مِن بَاسٍ *

حين شبهه بأشراف العرب ، واستخف بذلك الكندى فى قوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

وما ارتجله بديهاً من قوله :

لاتنكروا ضربى له من دونه مَثلاً شرُوداً فى النَّدَى والبأسِ
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً مِنَ المِشكاة والنبراسِ

وبعد أن أجابهم عدل بهم عن هذا المشهور من القصيدة إلى قوله منها :

إنَّ المنازلَ ساورتها فُرقة أخلتْ منَ الآرام كلَّ كِناسِ
منْ كلِّ ضاحكة الترائب أرهفتْ إرهافَ خُوطِ البانة الميَّاسِ
بدرٌ أطاعتْ فيك بادِرةَ النوى خطأً وشمس أولعتْ بشِماسِ
بكرٌ إذا ابتسمتْ أراكَ وميضها نورَ الأقاحِ برملةٍ ميعاسِ
وإذا مشتْ تركتْ بقلبكَ ضعفَ ما بحليِّها مِنْ كثرةِ الوسواسِ

ولا يدع أبا تمام قبل أن ينشد قوله لأبى سعيد بن يوسف من أمراء الثغور من قصيدة أطلالهمْ سُلبت دُماها الهيفا

لكَ هضبةُ الحِلم التى لو وازنتْ أجأ إذاً ثقلت وكان خفيفاً
وحلاوة الشِّيمَ التى لو مازجتْ خلقَ الزمانِ الفَدْم صارَ ظريفاً

أما ما أذاعه حافظ للبحترى ، وأبى الطيب ، والشريف ، والمعرى ، فيضيق علينا المقام لو حاولناه ، وفيما تناولناه إشارة ، وبهذا وأشباهه سيّر حافظ هذه الأشعار فى طبقات المتعلمين ، حتى فشا فيهم يومئذ التظرف بالأدب ، والتحقق بالرواية ، وكثر الانتحال لكلام المتقدمين ، والتجمل بأدب الأوائل ؛ حتى أوشك أن يكون بين الناس من يستحقون بعد قليل أن نسميهم طبقة الرواة والمحدثين من حفاظ الأدب ونقلة الأخبار ، إلى أن كانت أواخر أيامه — رحمه الله — وفرغت نفسه من الرغبة فى الناس ، وحبسته العلل عن محاضرة المجالس

وسكت أيضاً عن قول الشعر ، واقترن ذلك بما ملئت به دروب القاهرة وأحياؤها من المشارب ، والمسارح ، وازدحمت هذه الكثرة من المجلات والصحف ، وانتهب الناس بعضهم من بعض ، وتقاضتهم مظاهر الحياة الجديدة كل ما لديهم من فراغ وعمل ؛ فبطل السمر فى الدور ، وعطلت مناظر القصور ، وانصرف الناس عن هذه المذاكرة ، وكسدت سوق المطارحة ، وعادت الوحشة من الأدب القديم تدب إلى الاجتماع ، حتى ماترى إلا قليلا من له ذاكرة واعية من الأدب ، أو ذخيرة صادقة من العلم ، وصار حقاً علينا من هذا المنبر أن نبكى فى حافظ وفاءه للعربية ، وأن نكرمه بإحياء مذهبه فى الرواية ، لنرضى الله ونرضى حافظاً فى ثراه .

محمد هاشم عطية



المدائح والتهانى والرثاء
فى شعر المغفور له حافظ بك ابراهيم

للأستاذ محمود البشبيشى
المدرس بدار العلوم

عهدت إلى لجنة الاحتفال بالكلام فى هذه الفنون الثلاثة من شعر حافظ ، وإذ كان مجال القول ذا سعة والوقت لا يتسع للبحث الضافى ـ آثرت أن أجمل الكلام إجمالا يقوم بالغرض ولا يطغى على الزمن ، ويكشف جانباً من عبقرية شاعر النيل .

المديح :ــ نشأ حافظ نشأة عسكرية ، نزاعا إلى الحرية ، فى نفسه إباء وهمة ، فكان أفق مديحه محدوداً ، لا ينثر المدائح هنا وهنالك ، فقصر مدائحه على أصدقائه ، ومن رآهم موضع نجواه ومحل آماله . ومن آزروه فى الشدة ، ومن شاطروه فكرته الوطنية وكان لهم فى نهضة مصر ومكافحة الظلم أثر ظاهر ، ومدح رب الخلافة إذ كانت يوماً ما معقد رجاء البلاد ، وكأنما أراد بذلك أن يتصل بعرش الآستانة حين أخذ عليه (شوقى) طريق الاتصال بعرش مصر ، وكان طبعياً أن يمدح سمو الخديو ، فمدحه فى مناسبات كثيرة ، ونوه فى مدائحه له بشاعريته المغبونة . وأكثر فيها من شكوى جده العاثر ، من ذلك قوله من قصيدة رفعت إلى سمو الخديو فى يوم عيد :

طف بالأريكة ذات العز والشان واقض المناسك عن قاص وعن دانى
ياعيد ، ليت الذى أولاك نعمته بقرب صاحب مصر ، كان أولانى

على أن مدائحه تتفاوت فى قوتها وتأثيرها ؛ فما كان منها لصديق أو معقد رجاء كان فياضاً بالعاطفة ، جياشا بخلجات النفس ومظاهر عرفان الجميل ، وما عدا هذا فأكثره من المدائح الفنية التقليدية البارعة ، همه فيه أن يسجل المفاخر ويصورها فى صور شعرية خلابة ، يجليها فى أحسن صورة ، ويسبغ عليها من

فنه الخصب ثوباً من الرواء والبهجة ، فتنزل من الشعر فى مكان رفيع .

ولعل من أمتع مدائحه وأحفلها بالعاطفة الصادقة قوله فى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ وصلته به ما تعلم :

أنت نعم الإمام فى موطن الرأ (م) ى ، ونعم الإمام فى المحراب
خشع البحر إذ ركبت جوار (م) يه خشوع القلوب يوم الحساب
وبدا ماؤه كخاطرك المصـ (م) ـقول أو كالفرند أو كالسراب
يتجـلى كأنه صحف الأبـ (م) ـرار منشورة ليوم الحساب
علمت من تقل فانبعثت لا (م) قصد مثل انبعاثه للثواب
فهى تسرى كأنها دعوة المضـ (م) ـطر فى مسبح الدعاء المجاب

وقوله فى صديقه عميد الأسرة الأباظية المرحوم (سليمان باشا أباظه) من قصيدة مزج فيها المديح بالتهنئة :

سليمان ، ذكرت الزمان وأهله بعز سليمان وإقبال دنياه
إذا سرت يوماً حذر النمل بعضه مخافة جيش من مواليك يغشاه
وإن كنت فى روض تغنت طيوره وصاحت على الأفنان: يحرسك الله!

التهانى : ـ نظم حافظ فى التهنئة فأكثر ، فهو يهنىء أصدقاءه ، ويهنىء دولة الخلافة ورب الخلافة ، ويهنىء سمو الخديو ، ويهنىء الأمة فى مناسبات شتى : كإقبال العام الهجرى . وشأنه فى التهنئة يقرب من شأنه فى المدائح ، فمن النوع الذى امتزج فيه جمال الفن بتدفق العاطفة ، قوله فى القصيدة السابقة يهنىء المرحوم سليمان باشا أباظه بإبلاله من مرضه :

لبست الشفا ثوباً جـديداً مباركا فألبستنا ثوباً من العز نرضاه
وكان عليك الدهر يخفق قلبه فلما شفاك الله أهدأت أحشاه
وهنئا جـديداه الزمان وأصبحت تسوق لنا الأيام ما نتمناه
سليمان ، دم مادامت الشهب فى الدجى وما دام يسرى ذلك البدر مسراه

ويلوح للناقد البصير أن حافظاً ما كان يحفل كثيراً بالتهانى الفردية ، أو بعبارة أخرى : ما كان يجد في نفسه ميلا فطرياً إليها ، ولعل هذا سر ما نراه من

التفاوت البين بين تهانئه ، فنراه حين يهنىء صديقه الحميم (سليمان باشا أباظه بالإبلال من المرض وبزواج ابنه على) يطيل فى الغرض الأول بعض الإطالة ، ويسكب عليه روحاً من عواطفه ، ثم يجتزىء فى الغرض الثانى ببيت واحد (١) لا يخلو من الضعف ، كأنى بحافظ يرى إبلال الصديق العظيم لا تقف جدواه عند المهنأ وحده ، أما الزواج فيعتبره من الشؤون الفردية الخاصة فيقف فيه عند النظرة العجلى ، وقد رأينا حافظاً إذا تناول التهانىء العامة خب فيها ووضع ، وافتن فيها وأبدع ، وأطال ما شاء له البيان المطاوع ، من ذلك تهانئه للأمة الإسلامية بالعيد الهجرى ، وللأمة العثمانية بعيد الحرية والدستور ، فقد جلاها فى صورة بديعة ، وبيان رائع ، وقواف قوية سليمة ، وشاعرية عربية صميمة ، ذلك بأنه كان يتخذ منها سبيلا واضحاً إلى بث أفكاره السياسية ، وميوله الوطنية ، وأفكاره الاجتماعية ، وحافظ شاعر سياسة ووطنية واجتماع ، قبل كل اعتبار آخر .

وقد يجنح حافظ إلى الدعابة اللاذعة فى تهانئه الفردية ، كما فعل مع صديقه المرحوم حفنى بك ناصف حينما رقى إلى منصب المفتش الأول للغة العربية ، فقد هنأه حافظ فى حفل أقيم لتكريمه بقصيدة فكاهية طويلة مطلعها :

يا يوم تكريم حفنى   أرهفت للشعر ذهنى

وفيها :

وذقت من (جاء زيد)   ومن حواشى الشمنى
ومن حواشى الحواشى   على متون ابن جنى
ما لم تذقك الليالى   قلبن ظهر المجن
مفتش وفقيـــه   وشـــاعر وابن فن

وتكاد التهانى فى شعر حافظ تتصل بالمدائح ، فحسبنا منها ما تقدم .

المراثى :

أما الرثاء فهو الفن الذى أبدع فيه حافظ أيما إبداع ، فصال فيه وجال ، وبكى

---

(١) هو قوله :

وكن لعلى بهجة العرس ، إنه   بعزك فى الأفراح تمت مزاياه

فيه واستبكى ، ووفى به لإخوانه فأكمل الوفاء ، ورثى فيه عظماء مصر من الساسة والمصلحين تخلد ذكراهم ، وأجرى على الدهر سيرهم ، واتخذ من مراثيهم منبراً يهتف من فوقه بشباب الأمة : أن سيروا إلى المثل الأعلى ، فساروا فى ضوء أولئك العظماء الراحلين ، وسلكوا طريقهم فوصلوا بمصر إلى ما وصلت إليه .

إن مصر لمدينة إلى حد كبير لذلك الشاعر الفحل الذى وفى عظماءها حقوقهم، فرثى وأحسن الرثاء ، وكرم فأحسن التكريم ، ومن يستطيع أن ينكر مراثى حافظ للأستاذ الامام والبارودى ومصطفى وفريد وسعد زغلول ومحمود سليمان وسواهم من كل هاتف بمجد مصر ، وداع إلى الاصلاح فيها ؟

وإن الأدب العربى لمدين لشاعر النيل بتلك المراثى العذبة الخالدة ، التى نفثها سحراً حلالا ، فلهج بها أبناء العربية فى مصر والشرق ، فكانت مادة بيان لا ينضب ، واتخذ منها الشعراء الناشئون مثلا يحتذى . أى بيان ذلك الذى أسعف حافظا فى رثاء الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده إذ يقول :

أيا منزلا فى عين شمس أظلنى ... وأرغم حسادى وغم عداتى
دعائمه التقوى ، وآساسه الحجا ، ... وفيه الأيادى موضع اللبنات
عليك سلام الله ، مالك موحشاً ... عبوس المغانى مقفر العرصات ؟

وأى بيان ، وأى وفاء ألهماه ، برثاء صديقه الكريم عثمان بك أباظه إذ يقول:

يا راحلا أكبرتك الحادثات ، وما ... أكبرتها عند تليين وتشديد
أبكيت حتى العلا والمكرمات وما ... جفت عليك مآقى الخرّد الخود
بنى أباظة ، لا زالت دياركم ... أفق الديار وغاباً للصناديد

وأى وفاء بعد وفاء حافظ ، وأية ديباجة خير من ديباجته ، حين يرثى صديقه العظيم سليمان أباظه باشا فيقول :

لا تحملوه على الرقاب ، فقد كفى ... ما حملت من سنة وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه ... يسرى به للروضة الفيحاء
تالله لو علمت به أعواده ... مذ لامسته لأورقت للرائى
خلق كضوء البدر ، أو كالروض ، أو ... كالزهر ، أو كالخمر ، أو كالماء

وشمائل لو مازجت طبع الدجى ما بات يشكوه المحب النائى

ومحامد نسجت له أكفانه من عفة وسماحة وإباء

ثم أى توفق فى الرثاء، وأية رصانة فى البيان فوق ما جاء به حافظ حين رثى الزعيم العظيم سعد زغلول فى بائيته المشهورة التى يقول فيها :

يا كبير الفؤاد والنفس والآ (م) مال أين اعتزمت عنا الذهابا

كيف ننسى مواقفاً لك فينا كنت فيها المهيب لا الهيابا

كنت فى ميعة الشباب حساما زاد صقلا فرنده حين شابا

لم ينازعك قارح القوم إلا كنت أقوى يداً وأعلى خبابا

عظم لو حواه كسرى أنو شر وان يوما لضاق عنه إهابا

وعلى الجملة فإن مراثى حافظ تمتاز بالوفاء واللوعة والحزن العميق كلما تناول رثاء صديق له، أو ذى منة عليه؛ وبالعاطفة الوطنية المحتدمة كلما رثى عظيما أسدى لمصر جميلا. وفى كلها رصانة وانسجام، وطبع عربى سليم، وميل إلى تسلسل المعنى حتى لتكاد مراثيه فى تماسك أجزائها تحقق ما يدعون إليه من وحدة القصيدة، كرثائه لباحثه البادية إذ يقول :

ملك النهى لا تبعدى فالخلق فى الدنيـا سير

ربَّى أبوكِ الناشئـين فعاش محمود الأثر

وسلكت أنت سبيله فى النـاشئات من الصغر

ربيتهن على الفضيـ(م) لة والتصون والخفـر

وعلى اتبـاع شريعـة نزلت بها آى السـور

فلبيتكم فضل على ال(م) أحياء أنثى أوذكر

وبعد فإن من الظواهر التى عرفتها من دراسة مراثى حافظ، قلة الحفل بالفلسفة العميقة فى البحث عن معنى الموت، والبحث عما وراء الحياة — كما كان يفعل شوقى — ومن الظواهر الشائعة فى فنونه الثلاثة، عنايته بمطالع القصائد، فتراه يركز معنى القصيدة فى مطلعها، ثم يتأنق ويتسامى فى حسن صياغته. فيرسله قوياً

شروداً ينتزع الإعجاب من سامعيه ، ويحملهم على تتبع القصيدة إلى نهايتها ، ولعل هذا من أسرار فتنة الناس بشعر حافظ .

وإليكم بعض مطالعه الرائعة :

بدأ مطولته فى مهرجان شوقى بقوله :

بلابل وادى النيل بالمشرق اسجعى — بشعر أمير الدولتين ورجعى

وتهنئته للعثمانيين بعيد الحرية بقوله :

أجل ، هذه أعلامه ومواكبه — هنيئاً لهم ، فليسحب الذيل ساحبه

وتهنئته لسمو الخديو بأداء فريضة الحج بقوله :

متى نلتها يا لابس المجد معلماً ؟ — أديناً ودنيا ؟ زادك الله أنعما !

ورثاءه لمصطفى كامل باشا بقوله :

أيا قبر ، هذا الضيف آمال أمة — فكبر وهلل والقَ ضيفك جاثيا

ورثاءه لسليمان باشا أباظه بقوله :

لا والأسى وتلهبِ الأحشاء — ما بات بعدك معجب بوفاء

ورثاءه للبارودى باشا بقوله :

ردوا على بيانى بعد محمود — إنى عييت وأعيا الشعر مجهودى

ورثاءه لمحمود باشا سليمان بقوله :

مسدى الجميـلِ بلامنٍّ يكدره — ومكرم الضيفِ أمسى ضيفَ رضوان

وأخيراً بدأ رثاء نفسه بقوله :

آذنتْ شمس حياتى بالمغيب — ودنا المورد يا نفسى فطيبى

وظاهرة أخرى فيما درست من شعر حافظ ، هى أنه لا يحفل بالمقدمات الشعرية ، بل يهجم على الموضوع لأول وهلة ، وكان يرى فى تلك المقدمات الغزلية والخمرية نوعا من التكلف والقصور ، ويرى أنها لاتليق بمدائح العظماء ، وإلى ذلك يشير فى قصيدة يهنىء بها سمو الخديو بأحد الأعياد :

أزف فيه إلى العباس غانية — عفيفة الخدر من آيات عدنان

من الأوانس جلاّها يراع فتى — صافى القريحةِ صاحٍ غير نشوان

ما ضاق أصغره عن مدح سيده ولا استعان بمدح الراح والبان
ولا استهل بذكر الغيد مدحته فى موطن بجلال الملك ريان

هذا ، وأما أسلوب حافظ فى هذه الفنون الثلاثة فهو فى جملته عربى قديم ، مطبوع سليم ، تبدو فيه سعة الاطلاع ، وغزارة المحفوظ ، وخصب الشاعرية ، ويظهر فى كثير من قصائده حسن الاحتذاء ، والتلطف فى معارضة فحول المتقدمين .

فإذا كان حافظ فى مقاصده وأغراضه عصرياً يعيش لعصره ، فهو فى أسلوبه وديباجته شاعر قديم رقيق الحواشى .

رحم الله شاعر النيل ، وخلد على الدهر ذكراه !

محمود البشبيشى



الغزل والنسيب

فى شعر حافظ

للأستاذ السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

عهدنا بالشاعر الغزل الناسب أن يحمله على الغزل والنسيب أحد أمرين:

فأما أولهما: فهو أن يولع بالحسن يتعشقه ويفتن بمظاهره فتنة تملأ عليه شعاب نفسه، ومواطن حسه. فلا يزال يسعى وراءه أنى وجده، ويعمل الحيل فى سبيل المتعة به جهد طاقته؛ مدفوعا إلى ذلك كله بطبيعة حافزة. وشهوة جامحة؛ إذ لاغنى له حينئذ أن يتغنى بهذا الحسن غناء يبين سحر آياته، ويرى مبلغ اللذة فى الاستمتاع به، كما كان يفعل امرؤ القيس جاهلية، وعمر بن عبدالله بن أبى ربيعة إسلاماً، وأمثالهما من شعراء الغزل اللاهى، عشاق الجمال وطلاب اللذائذ، الذين لم يقفوا قلوبهم على حب امرأة، وإنما وزعوا أبصارهم فى مجالس الحسن الكثيرة، وكلما عز عليهم مجلس أو غاض ماء روائه غادروه إلى غيره مسرعين.

وأما ثانيهما: فهو أن يتيم بحب امرأة، يقف عليها هواه ونفسه، وتقابل ذلك منه بالابتعاد عنه، والتمنع عليه، لا بغضا له وكراهية، بل إجابة لداعى عفة، تملأ عليها جوانب نفسها، وتقطع الطريق على ماقد ينجم من شهواتها، فإذا به يكبر هذا الداعى منها، ويقابله بعفة كعفتها، قانعاً بالزورات البريئة تقع لماما، فإذا أعوزته - وكثيراً ماتعوزه - تعلل باستعادة الذكريات فى يقظته، وطروق الطيف فى هجعته، إن صح أن يجد النوم إلى جفنيه سبيلا، فإنه فى هذه الحال يكثر أن يشكو بثه وحزنه وصبابته ووجده فى شعر ينتزعه من القلب، ويحسن فيه التعبير عن الوجدان، كما كانت حال المرقش الأكبر مع ابنة عمه أسماء فى الجاهلية، وحال جميل بن عبدالله بن معمر مع صاحبته بثينة فى الإسلام، وأشباههما من شعراء النسيب،

الباكى الذين أخلصوا فى حبهم لواحدة ، إخلاصاً زاده بعد المنال التهابا ، وكثيراً ماجرعهم كئوس المنون فى ميعة الصبا.

فإذا أخطأ الشاعر هذان الداعيان كان قوله الغزل والنسيب محاكاة من غير طبيعة ، مهما ستر من تصنعه حوك البيان ، وما صاحبنا حافظ فى غزله ونسيبه إلا من هذا الصنف الثالث المحاكى عن غير دافع من الوجدان . فما عهدناه فى حياته محباً لمحاسن المرأة الحسية ، شغوفاً بجمالها المادى ، يتتبع الحسان ويجرى وراءهن انتهاباً للذة ، أو إجابة لنداء شهوة ، حتى يكون من الغزلين اللاهين وماسمعنا عنه أنه أغرم بحب امرأة ، فصار متيما معموداً ، يبكى لوعته ، ويصف صبابته ، حتى يكون من الناسبين الباكين ، وإنما الذى عرف عنه ـ وكان الواقع ـ هو أن العلاقة بينه وبين المرأة من كلتا هاتين الناحيتين ، كانت مقطعة الأسباب ، حتى فيما أحل الله من زواج ، فإنه لم يتزوج قط ، ومن شذ وقال بزواجه شفع قوله بأن حبل الزيجة فصل بعد أربعين يوماً من عقدها ؛ لما ذكرنا من تعليل.

وإذن كان حافظ فيما صدر عنه من غزل ونسيب يقوله محاكاة عن كراهية لاطبيعة عن رغبة ، ولهذا وقع قليلا فى مطالع بعض قصائده ، ولم يقع كثيراً أو مقصوداً لذاته ، كما وقعت فنونه الأخرى التى كان لكل منها فى ديوانه شأن هام ، وبخاصة شعر الوطنية الذى طغى فيما طغى على الغزل والنسيب ، حتى لم يجعل له فى ديوانه من باب ، وهذا شىء يعرفه حافظ عن نفسه ، كما يعرفه عنه كل من قرأ شعره . سئل عن السبب فى قلة غزله فقال « إنى رجل بدأت شبابى فى الجيش ولما رجعت لحياة الحرية انقسمت روحى فى شعر الوطنية ، فلم أجد متسعاً للغزل » وقال عنه أديب معاصر : « الذى أعرفه أن حافظاً لا طبيعة فيه للغزل وفلسفة الجمال ، ثم إن التاريخ حصره فى الشاعر الاجتماعى »

على أن حافظاً برغم ما ذكرنا من عدم استعداده أن يكون شاعر غزل ونسيب ، ومن عدم قرضه لهما إلا مضطراً وفى مطالع بعض القصيد ـ لم يعجز وهو الشاعر القدير أن يحسن تصوير ما عالج على سبيل المحاكاة عن طريق التصنع والتعمل ، كما أحسن شبيهه في ذلك أبو الطيب المتنبي من قبل :

رأينا له رحمه الله ثلاثة مطالع غزلية طويلة ، لثلاث من أمهات قصائده ، حمله الداعى إلى كل قصيدة أن يبتدئها بالغزل عن غير رغبة منه ، وعلى غير عادة متبعة فى سائر قصائده :

أولاها : داليته فى مدح أمير الشعراء محمود باشا سامى البارودى التى يقول فى مبدئها :

تعمدت قتلى فى الهوى وتعمدا ... فما أثمت عينى ولا لحظه اعتدى

كلانا له عذر ، فعذرى شبيبتى ... وعذرك أنى هجت سيفاً مجردا

هوينا فما هُنّا كما هان غيرنا ... ولكننا زدنا مع الحب سؤددا

وما حكمت أشواقنا فى نفوسنا ... بأيسر من حكم السماحة والندى

نفوس لها بين الجنوب منازل ... بناها التقى واختارها الحب معبدا

والذى يعرف علاقة حافظ بالبارودى مادحا له وممدوحاً منه ، وشغف البارودى بالغزل والنسيب شغفاً جعله يقول الكثير منهما فى مطالع قصائده ، والأكثر مستقلا - لا يسعه إلا الجزم بأن حافظاً لا يمكن أن يرفع إليه مدحة يغفل ابتداءها بالنسيب ، تشبهاً به من ناحية ، ودفعاً لما عسى أن يمر بخاطره من أن حافظاً ليس يبالغ فى النسيب إذا أراد .

وثانيتها : العينية التى مدح بها صديقه الكاتب الأديب محمد بك هلال معارضاً بها عينية لأستاذه البارودى فى النسيب مطلعها :

هل من فتى ينشد قلبى معى ... بين خدور العين بالأجرع

كان معى ثم دعاه الهوى ... فمر بالحى ولم يرجع

تلك التى يقول فى مبدئها :

هجعتَ يا طير ولم أهجع ... ما أنت إلا عاشق مدعى

لو كنت ممن يعرفون الجوى ... قضيت هذا الليل سهداً معى

يا من تحاميتم سبيل الهوى ... أعيذكم من قلق المضجع

وحسرةٍ فى النفس لو قسمت ... على ذوات الطوق لم تسجع

ويا بنى الشوق وأهل الأسى ... ومن قضوا فى هذه الأربُع

عليكم من واجد مغرم تحيـة الموجَع للموجع
لله ما أقسى فؤاد الدجى على فؤاد العاشق المولع !
هـذا غليظ لم يرضه الهوى ما بين جنبي أسودٍ أسفع
وذاك فى جنبي فتى مدنف على سوى الرقـة لم يطبع

فإن المعارضة من شأنها أن تجعل المعارض ينحو الفن الذى نحاه رفيقه ، ويسدد سهامه إلى الغرض الذى نصب ؛ لأن مراعاة ذلك أحق وأولى من الاتحاد فى الوزن والقافية ، ومن هنا لم يك أمام حافظ بد أن يشبب فى مطلع قصيدته أقل ما يكون ، وقد ألف البارودى قصيدته كلها نسيباً فضلا على ما أسلفنا من دفع عجز قد يتوهمه عنه فى هذا .

وثالثها : ميمية مدح بها الخديو عباساً عند عودته من دار الخلافة يقول فى مبدئها :

كم تحت أذيال الظلام متيم دامى الفؤاد وليله لا يعلـم
ما أنت فى دنياك أول عاشق راميه لا يحنو ولا يترحم
أهرمتنى ياليل فى شرخ الصبا كم فيك ساعات تُشيب وتهرِم
لا أنت تقصر لى ولا أنا مقصر أتعبتنى وتعبت ؛ هل من يحكم ؟

فإن رغبته الملحة أول حياته أن يشرك شوقيا فى ورد حياض العباس - إن لم يزحمه عليها - حملته أن يخطو خطوه ويقفو أثره فى مطالع مدائحه قبل الخوض فى صميمها ، وهل كان شوقى فى تلك المطالع إلا مجوداً للتشبيب غزلا ونسيبا ، فليكن حافظ كذلك . حتى لا يكون لصاحبه فى نظر العباس عليه من فضل .

تلك هى الدوافع التى حملته فى هذه المدح الثلاث أن يبتدئها بالنسيب ، ولولاها لشغل بالمديح عنه شغلا ، مارا على النسيب مرور التارك ، كما فعل مع الأستاذ الإمام إذ يقول :

بلغتك لم أنسب ولم أتغزل ولما أقف بين الهوى والتذلل
ولما أصف كأساً ولم أبك منزلا ولم أنتحل فخراً ولم أتبتل
فلم يُبق فى قلبي مديحُك موضعاً تجول به ذكرى حبيب ومنزل

بل لولا ذلك لأطاع سجيته التى ما كانت ترى من إكرام الشعر أن يكون للحب وما إلى الحب، وإنما تراه للدعوة إلى الحرية، والتغنى بها، فها هو ذا يخاطب الشعر العربى ناعياً على أهله وضعه فى غير موضعه فيقول:

حمّلوك العناء من حب ليلى وسليمى ووقفة الأطلال
وبكاء على حبيب تولى ورسوم راحت بهن الليالى
وإذا ما سموا بقدرك يوما أسكنوك الرحال فوق الجمال
آن يا شعر أن تفك قيوداً قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

وإنا وقد أتينا على مبادىء تلكم المطالع الثلاثة، والأسباب التى حملته على القول فيها، نرى من الحتم أن نتناول الناحية الغزلية التى ارتضاها حافظ لنفسه حينما أرغم على الغزل، وبعبارة أخرى: الناحية التى حفزته طبيعته أن ينتحيها حينذاك، والذى أراه من الحق أن حافظا دفع بنفسه فيما كان يقول من غزله إلى خطة الناسبين الباكين، كما سمعت فيما استشهدنا به، لأنه خلق يذوق من آلام الحياة الخاصة والعامة، أشد مما كانوا يذوقون من برحاء العشق والهيام، ولكن على أن يلبسه ذلك الثوب القصصى، الذى اتخذه الغزلون اللاهون أكثر ما كانوا يقولون، لأنه عاش مولعاً بالقصص يتحدث ويستمع إليه، معنياً بمطالعة كتبه القديمة، وأخصها الأغانى سميره وصاحب خلوته، عنايته بالكتابة فيه، مؤلفا كما فى ليالى سطيح، ومترجما كما فى البؤساء، ومن ثم قدم لنا مادة نسيبه لحمة وسدى من وادى جميل وأمثال جميل، ولكن منسوجه على منوال عمر وأمثال عمر، حتى لكأنها الدراما جودة تشخيص وتمثيل.

استمع إليه فى المطلع الميمى بعد الذى قدمنا منه فى الليل، تجاهل محبوبته له وعجب سربها من هذا التجاهل، وإجابته لها بأنه مَن عرفت توجعه وتألمه وإسلامه نفسه للهوى يجشمها مالا تسلم منه، وأنه أتى يشكو إليها ماصنعت به يحدوه الرجاء، لولا أنها لا ترحم، فيقول:

لله موقفنا وقد ناجيتها بعظيم ما يخفى الفؤاد ويكتم

قالت: من الشاكى؟ تسائل سربها عنى ... ومَن هذا الذى يتظلم ؟
فأجبتها وعجبت كيف تجاهلت: هو ذلك المتوجع المتألم
أنا من عرفت ومن جهلت ومن له لولا عيونك حجة لا تُفحَم
أسلمت نفسى للهوى وأظنها مما يجشها الهوى لا تَسلم
وأتيت يحدونى الرجاء. ومن أنى متحرماً بفنائكم لا يحرم
أشكو لذات الخال ما صنعت بنا تلك العيون، وما جناه المعصم
لا السهم يرفق بالجريح، ولا الهوى يبقى عليه، ولا الصبابة ترحم

ثم يعقب هذا بناحية من التوسل تدور حول تململه فى جوف الدجى أمام فراشه يرى فى الإقدام عليه إقداماً على الموت؛ لما رشق فى جوانبه من مُدى وانساب فيه من أفاع، حتى لكأنه واد أطل عليه جحيم، فيقول:

لو تنظرين إليه فى جوف الدجى متململا من هول ما يتجشم
يمشى إلى كنف الفراش محاذراً وجلا يؤخر رجله ويقدم
يرمى الفراش بناظريه وينثنى جزعا، ويقدم بعد ذاك ويحجم
فكأنه واليأس ينشف نفسه للقتل فوق فراشه يتقدم
رشقت به فى كل جنب مدية وانساب فيه بكل ركن أرقم
فكأنه فى هوله وسعيره واد قد اطّلعت عليه جهنم
هذا وحقك بعض ما كابدته من ناظريك، وما كتمتك أعظم!

ومع قسمه بها فى البيت الأخير: أن ما حكى بعض ما كابد، تقابله مقابلة الشاكة فى هواه، وأن هذا منه سحر يستثير به هوى الغانيات، ثم تطلب إليه أن ينصرف، مصغية إلى قول الوشاة، وتسرف فى هجرها إسرافاً ييئس منه من أجله الطبيب، ويجيئها أنه تلف، فتندم وتأتى لعيادته، فإذا هذا المجىء للتشييع؛ وذاك حيث يقول:

قالت: أهذا أنت؟ ويحك فاتئد حتام تنجد فى الغرام وتتهم؟
كم نفثة لك تستثير بها الهوى هاروتُ فى أثنائها يتكلم
إنا سمعنا عنك ما قد رابنا وأطال فيك وفى هواك اللوَّمُ
فاذهب بسرك قد عرفتك واقتصد فيما تزينُ للحسان وتوهم

أصغت إلى قول الوشاة فأسرفت في هجرها، وجنت على وأجرموا
حتى إذا يئس الطبيب وجاءها أنى تلفت، تندمت وتندموا
وأتت تعود مريضها، لا بل أتت منى تشيع راحلا لو تعلم
أقسمت بالعباس أنى صادق فَمُرِيهِم بجلاله أن يقسموا

واستمع إليه فى المطلع العينى بعد الذى قدمنا منه فى الليل أيضا يذكر قصة أغيد أسكنه حشاه، وأوحى إلى نفسه أن تقنع به، فأولاه نفاراً أسرع من خاطره، وصدا أقرب من مدمعه، ودام اشتعال نار خده، كأنما يقبس من أضلعه، فدنا لذلك مصرعه، حتى تساءلت عنه نجوم الدجى التى رأت لوعته، وسمعت منه أنين المفئود، أو المصاب بسهم لازال ناشبا، ثم قالت: ماله كذلك ولبدر الدجى مطلع إن كان فيه هائما، ولظبى الحمى مرتع إن كان به مغرماً؟ فكان جوابه للنجوم: هيهات أن تعلمى مثير أشجانى أو تطمعى؛ وهذا إذ يقول:

وأغيد أسكنته فى الحشا وقلت يا نفس به فاقنعى
نفاره أسرع من خاطرى وصده أقرب من مدمعى
وخده لا تنطفى ناره كأنما يقبس من أضلعى
تساءلت عنى نجوم الدجى لما رأتنى دانى المصرع
قالت: نرى فى الأرض ذا لوعة قد بات بين اليأس والمطمع
يئن كالمفئود أو كالذى أصابه سهم ولم ينزع
إن كان فى بدر الدجى هائماً أما لهذا البدر من مطلع
أو كان فى ظبى الحمى مغرما أما لهذا الظبى من مرتع؟
هيهات يا أنجم أن تعلمى مثير أشجانى أو تطمعى
إنى لضنان بذكر اسمه ضنى بذكر الكاتب الألمعى

أما المطلع الدالى فقد صور فيه بعد الذى ذكرنا من مبدئه فى صدق الهوى وطهره قصة مسرًى كان منه إلى فتاة حى فى ليلة مقمرة، كأنها ليلة ابن أبى ربيعة فى رائيته:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

ولكنه وهو مطلع قصيدة فى مدح البارودى أمير السيف كما أنه أمير الشعراء، لم ينس أن يكون حافظ فى ذلك شجاعاً وهو رب سيف كذلك، ولم يقبل من فتاته أن يعود متستراً كما عاد ابن أبى ربيعة متنكراً؛ وإنما عاد يصحبه قلب أيِّد وسيف خشيه القوم فى طروقه ورجوعه فغطوا فى منامهم ليصرفوا شباه عنهم وكان أن خاض بأحشائهم رائحاً وعائداً سالكا الطريق المعبد عامداً. وما كان أدقه وقد نسى فى هذه القصة اللوعة والحرقة أن يبتدئها بطهر الحب وتقى القلب كما سمعت فى بدء المطلع، وأن يختمها باعتصامه بالهدى حين مالت الفتاة لإغرائه ومالأها الهوى، لا كما كان ابن أبى ربيعة يغرى وتأخذ عليه فتاته سدوره وعدم ارعوائه؛ فحمى تلك القصة بهذا أن تكون من لهو الغرام، وخلع عليها بما فعل ثوب الهوى العذرى، وذلك حيث يقول بما لم نشا تقطيع أوصاله لأنا نرى من الجرم التفرقة فى هذه القصة بين الأبيات ـ قال:

وفتانة أوحى إلى القلب لحظها ... فراح على الإيمان بالوحى وغاتدى
تيممتها والليل فى غير زيه ... وحاسدها فى الأفق يغرى بى العدا
سريت ولم أحذر وكانوا بمرصد ... وهل حذرت قبلى الكواكب مرصدا
فلما رأونى أبصروا الموت مقبلا ... وما أبصروا إلا قضاء تجسدا
فقال كبير القوم: قد ساء فألنا ... فإنا نرى حتفاً بحتف تقلدا
فليس لنا إلا اتقاء سبيله ... وإلا أعلَّ السيف منا وأوردا
فغطوا جميعاً فى المنام ليصرفوا ... شبا صارمى عنهم وقد كان مغمدا
وخضت بأحشاء الجميع كأنهم ... نيام سقاهم فاجىء الرعب مرقدا
ورحت إلى حيث المنى تبعث المنى ... وحيث حدا بى من هوى النفس ما حدا
وحيث فتاة الخدر ترقب زورتى ... وتسأل عنى كل طير تغردا
وترجو رجاء اللص لو أسبل الدجى ... على البدر ستراً حالك اللون أسودا
ولو أنهم قدوا غدائر فرعها ... لحاكوا له منها نقاباً إذا بدا
فلما رأتنى مشرق الوجه مقبلا ... ولم تثننى عن موعدى خشيةُ الردى

تنادت وقد أعجبتها : كيف فتهم ولم تتخذ إلا الطريق المعبدا ؟
فقلت : سلي أحشاءهم كيف روعت وأسيافهم هل صافحت منهم يدا ؟
فقالت : أخاف القوم والحقد بري صدورهم أن يبلغوا منك مقصدا
فلا تتخذ عند الرواح طريقهم فقد يقنص البازي وإن كان أصيدا
فقلت : دعي ما تحذرين ، فإنني أصاحب قلباً بين جنبي أيدا
فمالت لتغريني ومالأها الهوى فحدثت نفسي والضمير ترددا
أهم كما همت فاذكر أنني فتاك فيدعوني هداك إلى الهدى
كذلك لم أذكرك والخطب يلتقي به الخطب إلا كان ذكرك مسعدا

ذاك جل ما للمرحوم حافظ من غزل ونسيب قد سمعتموه وعرفتم كيف كان مذهبه فيه ولا يعدو ما عداه أبياتاً منثورة شوارد أو مبتدأ بها بعض القصائد في قلة لا تكاد تبين ينحو فيها المنحى الذي سبق من الهم والوجد ، أو يرمي من ورائها إلى شيء خاص أو عام يلذ له أن يفصح عنه بصراحة لا لف فيها ولا دوران

فمن أبياته الشاردة في السهد وقد كان معتزاً بالقول فيه بيتاه :

قالت الجوزاء حين رأت جفنه قد واصل السهرا
ما لهذا الصب في وله أتراه يعشق القمرا

ومنها في السهد أيضاً :

أنا العاشق العاني وإن كنت لا تدري أعيذك من وجد تغلغل في صدري
خليليَّ ، هذا الليل في زيه أتى فقم نلتمس للسهد درعاً من الصبر
وهذا السرى نحو الحمى يستفزنا فهيا وإن كنا على مركب وعر
خليلي ، هذا الليل قد طال عمره وليس له غير الأحاديث والذكر
فهات لنا أذكى حديث وعيته ألذ به إن الأحاديث كالخمر

وعلى ذكر غرامه بالأحاديث يقول من مطلع قصيدة بعث بها إلى بيرم بك من السودان :

وظبي من بني مصر غرير شهي اللفظ ذي خد مَشِيم
ولحظ بابلي ذي انكسار كأن بطرفه سيما اليتيم

سقانا فى منادمة حديثا   نسينا عنده بنت الكروم

فأنت ترى هنا أن جمال الحديث صرفه عن سمات كثيرة أخرى ذكرها للجمال كأنها قيلت من أجله لالها ، وعلى هذا الرسل الذى يذكر فيه أشياء لا يريدها لشىء أراده جرى قوله لغرض سياسى يرمى إليه :

ظبى الحمى بالله ما ضركا   إذا رأينا فى الكرى طيفكا
وما الذى تخشاه لو أنهم   قالوا فلان قد غدا عبدكا ؟
قد حرموا الرق ولكنهم   ما حرموا رق الهوى عندكا
فأصبحت مصر مراحا لهم   وأنت فى الأحشا مراح لكا
ما كان سهلا أن يروا نيلها   لو أن فى أسيافنا لحظكا

وكذلك قوله فى مطلع قصيدة إلى المرحوم قاسم بك أمين :

لحاظك والأيام جيش أحاربه   فهذى مواضيه وهذى كتائبه
وهمين ضاق القلب والصدر عنهما: غرام أعانيه ، وعيش أغالبه
وليل كمطل القوم كابدت طوله   وأيقنت أنى لا محالة صاحبه
كأن دياجيه صحيفة ملحد   تخط بها أعماله ومثالبه
قريت به جيش الصبابة والأسى   وأنزلته صدراً تداعت جوانبه
وعلمت نفسى كظم غيظى ولم أبح   بما فعلت بين الضلوع قواضبه
تماسكت حتى لو رأى القوم حالتى   رأوا رجلا هانت عليه مصائبه
رجائىَ فى قومى ضعيف كأنه   جنان وزير سوّدته مناصبه

ومن شوارده فى الدمع بيتاه :

يامن خلقت الدمع لطـــفاً منك بالباكى الحزين
بارك لعبدك فى الدمو   ع فإنها نعم المعين

ومنها يصف لوعته وأنينه :

أنا فى يأس وهم وأسى   حاضر اللوعة موصول الأنين
مستهين بالذى لاقيتـــه   وهو لا يدرى بماذا يستهين
سور عندى له مكتوبة   ردلو يسرى بها الروح الأمين

إنى لا آمن الرسل ، ولا آمن الكتب على ما يحتوين

وقل أن تجد لحافظ غزلا خلواً من ذكر التوجع والتألم إلا أن يكون مطية لمرمى يبغى الوصول إليه ، بل لعله لم يقل فى ذلك إلا بيتين فى خال رآه على الغرة لا فى الوجنة ، وهما :

سألته : مالهذا الخال منفرداً واختار غرتك الغرا له سكنا ؟

أجابنى: خاف من سهم الجفون، ومن نار الخدود ؛ لهذا هاجر الوطنا

وهذا شىء منه غريب غرابة ادعائه صدق غرامه وعدم التشكيك فيه حيث يقول :

أذنتك ترتابين فى الشمس والضحى وفى النور والظلماء والأرض والسما

ولا تسمحى للشك يخطر خطرة بنفسك يوماً أننى لست مغرماً

وبعد فلئن ألهت حافظاً طبيعته أن يكون قليل اللمس للمرأة فى الجانب الغزلى كما قدمنا وعلى ما سمعت ، لقد مكنته أن يتصل بها اتصالا وثيقاً فى جوانب اجتماعية وسياسية وخلقية عج بها ديوانه وشغلت كثيرا من صفحاته ، وكم كنت أود أن يكون موضوعى هذه الجوانب أو المرأة فى شعر حافظ بصفة عامة لا من ناحية الغزل والنسيب فحسب ، لما فى تلك من خصب وفى هذه من إمحال . لولا ما أردت إلا إبقاء عليه لحضرات الزملاء الذين تناولوا شعره من تلكم النواحى ؛ وعلى كل أرجو أن أكون قد وفقت فيما حاولت والسلام .

السباعى بيومى

حافظ إبراهيم

المديح فى شعره

بقلم حسنين حسن مخلوف

المدرس بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية

فى أوائل هذا القرن ظهر فى عالم الأدب شاعر كان ملء الأسماع ، أسماع الخاصة والعامة فى مصر ، هو المرحوم حافظ إبراهيم ، فى وقت كانت مصر قد أفاقت من صدمة الثورة العرابية ونتائجها ، وتطلعت إلى العزة القومية واستعادة المجد المسلوب ، واحتاجت وطنيتها إلى شاعر يضرب على أوتار القلوب فيحركها ، ينزل من سماء الشعراء إلى أرض الشعب ، فقد كان شعر البارودى شخصياً ، لا يفهمه ويتعلق به إلا الخاصة من الأدباء ، وشعر شوقى تياهاً فى أودية الخيال متعالياً على أذهان العامة ، دائرا فى محيط خاص اقتضته صلته بالأمير واختصاصه به ، فأرادت الطبيعة أن تنضج حافظاً ليكون شاعر الشعب المكلوم . وأن تحرمه حنو الآباء والأمهات ليقوى إحساسه بالألم وليكون سريع الإجابة حين تلم بلاده مدلهمات الخطوب ، ثم أرادت أن تحصن بؤسه من نعومة العيش إذ أن مصر فى حاجة إلى نغمات قيثارته الحزينة تارة . الحماسية تارة أخرى . ويشاء القدر أن يحرمه وظيفة الحكومة مع شدة تطلعه إليها ، ومع أن زملاءه الضباط الذين عصوا فى السودان ألحقوا بوظائف الحكومة فكان لله مشيئة أن يظل حافظ مغذياً للروح المصرية ، معرباً عن الأحداث القومية ، حافزا الشعب إلى النهوض ، وبخاصة من سنة ١٩٠١ إلى سنة ١٩١١ حين لحق بدار الكتب المصرية

موضوعى المديح فى شعر حافظ ، ولكنى أريد قبل أن أخوض فيه أن أقيد النتائج التى استنبطتها من قراءتى شعر حافظ أياماً طوالا

أولا : يمتاز شعره بكثرة الاستشهاد بالحوادث التاريخية والقضايا الفلسفية ، مما يدل أن حافظاً كان واسع الاطلاع فى التاريخ والأدب ، وتغلب عليه هذه

النزعة فى أكثر شعره ، وحوادث التاريخ بارزة فى نواح كثيرة من قصائده الكبرى ؛ وكأنه كان يعتبر الحوادث التاريخية والأحداث السياسية عنصرا مكملا لكل قصيدة ، فيسرف فى ذلك إسرافاً شديدا

ثانياً : يرى القارىء لشعره أن الروح الحزينة سارية فى نواحيه المختلفة من مدح ورثاء ووصف ووطنيات ، وذلك من آثار يتمه وفقره فى أول حياته ، ثم عكوفه على قراءة لزوميات أبى العلاء المعرى وموافقة فلسفته المتشائمة لظروف حياة حافظ التعسة ، وكان من أثر ذلك تفجعه على الموتى من أصدقائه كأنه سيلحق بهم سريعاً ، وفى ذلك يقول :

شاهـــدت مصرع أترابى فبشرنى بضجعة عندهـــا روحى وريحانى
إذا تصفحتَ ديوانى لتقـــرأنى وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

وقد امتزج تبرمه بالدنيا بالسياسة المصرية ومواقفها المشهورة فأصبحا معنى واحدا فى نفس حافظ .

ثالثاً : لهذا الشاعر ميزة ليست فى شعر غيره ، ذلك أنه لا ينظم قصيدة لغرض من الأغراض إلا وفاه شرحاً وإيضاحاً وبياناً . كأن القصيدة موضوع درس على المدرس أن يشرحه فى حصة . أو مقالة صحفية تلم بأطراف الموضوع إلماماً شديدا ؛ فهو شاعر مصور لكل ما يدور فى خلد السامعين من معان ، فاذا حلق فى سماء الخيال وقف عند التشبيهات المفردة ، وإذا هم أن يغوص فى بحور الشعر للبحث عن لآلئه أدرك أنفاسه البُهْر فتعلق ببعض اللآلىء التى تعجب العامة ويمر بها الخاصة سريعاً ثم يخرج اللؤلؤ من أصدافه فى ثوب براق وحلية خلابة ، ذلك لأنه شاعر صناع يجيد السبك ويحسن الضرب بالصنج وهو شاعر الجماهير يستهويها بما تشتاق إلى سماعه من ذكر آلامها وآمالها .

رابعاً : لكل شاعر أو كاتب طابع خاص يسرى فى النثر والشعر ، وأسلوب وطريقة للتفكير يعرفها من عانى قراءة مستمرة لأصناف خاصة من الكتاب أو الشعراء ، فيستطيع القارى أن يخبر صادقاً أن هذه القطعة لفلان من غير أن يعرف اسمه قبل ذلك بذيل المقالة أو القصيدة ، وذلك ناتج من كثرة القراءة

والاشتغال بالأدب . حدثنى صديق أنه كان يقرأ مقالات المنفلوطى السياسية فيعرف شخصه من أسلوبه ، وأنه قد يقرأ مقالات الرافعى أو شعر الجارم فيمر بذهنه قبل كل شيء طابعهما الذى لن ينزلا عن مستواه ؛ أما حافظ إبراهيم فقد شذ عن هذه القاعدة ، فقد تقرأ له شعراً عالى المعنى جزل الأسلوب ، ثم تقرأ له شعراً آخر فتستبيح لنفسك أن تنسبه لأى شاعر خط قصيدة فى صحيفة سيارة ، فبينما شعر حافظ يرتفع إلى سماء الأدب ، إذا به يتهاوى فى مزالقه ، وخاصة فى المدح والرثاء حينما يطلب منه ذلك فيخجل أن يرد صديقاً ؛ وبهذا فقد شعره وحدة التناسق واشتراك الأساليب فى كثير من قصائده . سأله محرر الهلال عن ذلك فقال : « الجمهور يلومنا على أن لنا كثيرا من الشعر التجارى ، ولكن الجمهور نفسه هو الذى يطلب منا ذلك ، ولو تركونا لعفو أنفسنا لأحسنا ، ولكنهم يلحون علينا فى التهانى والمراثى والمدائح ؛ ثم ينتقدوننا على أننا نطيعهم ، وكان يجب أن يراعوا هذه الظروف ، وسأطبع ديوانى بعد أن أطهره من الشعر التجارى » .

خامساً : كان حافظ فى مدحه كأنه مثال ماهر كلف بصنع تمثال بحجم الممدوح ؛ فإن كان عظيما ذا مركز اجتماعى خطير كالخديو عباس أو الشيخ محمد عبده ، كد قريحته وأحسن الرصف والوصف وأبرز مواضع العظمة فى ممدوحه ، وبخاصة إن كان من السياسيين الذين يحملون أوزار الأمة على عواتقهم ؛ إذ كان حافظ كثير السباحة فى خضم السياسة ، معنياً بشئون الأمة ؛ وإن كان عيناً من أعيان الريف يستطيب حافظ ألوان الطعام على مائدته ، كافأه على كرمه بمدحه بالكرم وقرى الضيفان ، وقد يغالى فى ذلك مغالاة تعجب صاحب الخوان ؛ وإن كان صديقاً مؤنساً تراخت أعصاب حافظ فى مدحه وفقد شعره قوته وتحول الشعر من المدح إلى رقة إخوان الصفاء ووصف مؤانستهم وكفى .

***

نشأ حافظ إبراهيم مشغوفاً بالأدب متطلعاً إلى الشهرة ، وكان أقصى منى الأديب فى تلك الآونة أن يتعلق بكبير من الكبراء يقدر أدبه ويحميه من نوائب

الحدثان ، فلما عاد من السودان وكانت له مكاتبات سابقة للشيخ محمد عبده ، لزم مجلسه ورأى فى الشيخ كرم النفس وعلو الهمة وعطفاً أغناه عن عطف الآباء والأقربين . رأى مجلس الأستاذ الامام حافلا بالعظماء وأعيان مصر وكلهم عرف هذا الشاب الفكه الشاعر الراوية ، ورأى فى إكرامه متاعاً بحسن استماع الأدب المصفى وإرضاء للشيخ عبده ، لأن الشيخ الامام كان مورده محدوداً وبساطه ممدوداً ، فظهر اسم حافظ فى الأوساط الأدبية ، وكان شعره قليلا ظاهر التكلف ، فاستفاد من صحبة الشيخ قوة الديباجة ورصانة الأسلوب ، وكان الشيخ كما قال عنه حافظ : « يعرف مهر الكلام ومقدار كد الأفهام » وأغرى الأدباء حافظاً أن يمدح الخديو عباساً عله يتعطف عليه بوظيفة ، ولكن دون ذلك مشقات ، إذ كان شوقى شاعر الحضرة الخديوية ، وهو فحل قدير لن يبلغ حافظ مبلغه مهما يكن من قوة البيان ، ولأن المنافسة فى هذا الميدان لا يرضاها شوقى ، فصار من دأب حافظ أن يمدح الخديو ويتلطف بمدح شوقى ويحترس من مظنة المنافسة ، وكذلك نجد قصائده فى الجزء الأول من ديوانه على هذا الطراز : تقرب من الخديو ورعب من شوقى وتزلف إليه ، كما قال فى احتفال بعيد الجلوس :

أرى أريكة عباس تحف بها ... وقاية الله والإقبال والجاه
قل للألى جعلوا للشعر جائزة ... فيم الخلاف ؟ ألم يرشدكم الله ؟
لم أخش من أحد فى الشعر يسبقنى ... إلا فتى ما له فى السبق إلاه
ذاك الذى حكمت فينا براعته ... وأكرم الله والعباس مثواه

ظل حافظ يركع على عتبات شوقى رجاء أن يميل إليه قلب الخديو بدون جدوى ، ولكن حافظاً بعد سنة ١٩٠١ استفحل شعره وتعلق الشعب به لسهولته مع غموض شعر شوقى فى بعض الأحيان . لقد قوى شعر حافظ وتماسكت قوافيه بعد طبع الجزء الأول ، وأصبح لحافظ جمهور من الأدباء يوازن بين شعره وشعر شوقى ، وصارت الجرائد تعنى بالشاعرين ؛ فاللصيقة بالخديو تدعو لشوقى وغيرها تدعو لحافظ وتشجعه . إذاً فلينبذ حافظ لشوقى على سواء ، وليبارزه فى ميدان الأدب ، وليزاحمه فى مدح الخديو علانية ؛ وكان حافظ فى الجزء الأول مقيداً بتقليد

الأقدمين ، فعلمته معاناة الشعر ومخالطة كبار الأدباء حسن التصرف وإدخال عناصر التجديد فى الأساليب والمعانى ؛ وقد لقى من الشعب إعجاباً أطار من قلبه الخوف من شوقى ، وتفتق ذهنه عن المعانى الخصبة والأساليب الجذابة والصراحة فيما يقصد إليه والسلامة من الالتواء الذى قد يضل بعض الشعراء ؛ نرى ذلك واضحاً فى الأبيات الآتية فى أحد أعياد الخديو :

طف بالأريكة ذات العز والشان ... واقض المناسك عن قاص وعن دانى
يا عيد ، ليت الذى أولاك نعمته ... بقرب صاحب مصر ، كان أولانى
أزف فيه إلى العباس غانية ... عفيفة الخدر من آيات عدنان
ما ضاق أصغره عن مدح سيده ... ولا استعان بمدح الراح والبان
هذا هو الملك فليهنأ بمملكه ... وذا هو الشعر فلتنشده أزمانى

أرأيت أن حافظاً أصاب شوقياً فى الصميم ؟ فعاب شعره وهزأ باستفتاح قصائده فى مدح الأمير بالغزل ووصف الخمر ، عابه بنضوب القريحة وقلة الذوق ، وذكر أنه أحق بلقب شاعر الأمير

وفى الحق أن الدوى الذى كان يلقاه شعر حافظ كان يغريه بذلك . كان نفس حافظ قصيراً فى أول الأمر ، ثم طال وشغل بالحوادث السياسية وشعر الوطنية عن مدح الخديو إذ وجد نفسه تنفخ فى غير نار وقد سد عليه شوقى الرحاب . ولكن هناك مواقف يفتقد فيها حافظ ويعاب عليه أن يستأثر شوقى بحلبة الشعر ، فلا بد من القول ولا بد من التبريز .

من ذلك حج الخديو فقد أبدع شوقى ماشاء له الإبداع بمختلف القصائد ، فلا بد أن يمثل حافظ بين يدى الأمير ويلقى قصيدته البارعة فى حضرته ويغمز شوقياً أيضاً . ومنها :

متى نلتها يا لابس المجد معلما ... أدنيا ودينا ؟ زادك الله أنعما !
فلله ما أبهاك فى مصر حاليا ... ولله ما أتقاك فى البيت محرما
أقول وقد شاهدت ركبك مشرقاً ... وقد يمم البيت العتيق المحرما :
مشت كعبة الدنيا إلى كعبة الهدى ... يفيض جلال الملك والدين منهما

ولو أنني خيرت لاخترت أن أرى لعيسك وحدى حاديا مترنما

وكان من الواجب على حافظ إذ يمدح ولى نعمته والآخذ بيده إلى سلم المجد أن يبدع فى مدح الشيخ محمد عبده على قدر جهده. ثم لما اتسع أفقه الشعرى أجاد ما شاء فى مدح أستاذه، وجعل شعره صحيفة سيارة تدافع عن الشيخ وترد كيد خصومه الذين اتخذوا الصحف وسيلة لنقده والزراية عليه؛ ومن أروع شعره فى مدحه قوله قصيدة تفيض إخلاصاً وحسن إبداع وفيها خيال قوى، حين عودة الإمام من سياحته فى الجزائر:

خشع البحر إذ ركبت جواريـــه خشوع القلوب يوم الحساب
وضياء الإمام يوضح للربـــان سبل النجاة فوق العباب
وسرى البرق للجزائر بالبشـــرى بقرب المطهر الأواب
أدركوا قدر ضيفهم فأقاموا يرقبون الإمام فوق السحاب

ومن قوله فى صد هجمات الجرائد على الشيخ:

سخروا من الفضل الذى أوتيته والله يسخر منهم فى النار
لاتجزعن فلست أول ماجد كذبت عليه صحائف الفجار

وممن لهم الفضل فى تكوين حافظ وتشجيعه، الشاعر الفحل محمود باشا البارودى. كان البارودى المثل الأعلى لشعراء عصره، وكان حافظ حريصاً أن يتخذه أستاذاً ويقلده فى شعره. ومن الهين على حافظ أن يمدح الخديو أو الشيخ عبده أو غيرهما أما أن يبيع التمر إلى هجر، فلا بد من كد القريحة حتى يرضى سيد الشعراء عن شعره، وإنما يدرك أغوار الشعر من دفع إلى مضايقه، ويعرف قيمة النقد الصيارفة، أما غيرهم فيتفاوت حكمهم عليه بتفاوت ثقافتهم وأمزجتهم. لذلك تجد حافظاً حين يمدح البارودى ينسج على منواله، ومع أنه ليس شاعرا غزلا فقد ابتدأ شعره إليه بالغزل، وحاول أن يظهر بالبطولة والفروسية كما كان يفعل البارودى، إذ كان نمطا من هذا النمط. وبأى شىء يمدح حافظ سيد الشعراء وكبيرهم؟ حافظ - كما قلت - بارع فى تفصيل القصيدة على قدر ممدوحه، وأنه كزهير لايمدح الرجل إلا بما فيه. إنه يمدح البارودى بأحب الأشياء لديه وسلوته بعد أن طحنه الزمان. ذلك أنه شاعر عظيم

سلبتَ بحار الأرض در كنوزها فأمست بحار الشعر للدر موردا
وجئت بأبيات من الشعر فصلت إذا ما تلوها ألفى الناس سجدا

وفى أول هذا القرن نشطت الدعوة السياسية للحكومة العثمانية ، لأنها دولة الخلافة الإسلامية ، وملجأ المصريين فى الشدائد ، فاتجه شطر من السياسة المصرية إلى تركيا ، وكان من الواجب أن تحتفل مصر بالأعياد العثمانية ، وأن ينظم الشعراء فى ذلك ؛ وشعر حافظ فى هذا الباب ضخم الأسلوب لكنه ضعيف الروح . وهناك ناحية بارزة فى حافظ بالرغم من كل شىء ، هى إعجابه بشوقى إعجابا ملك عليه حواسه ، فهو معترف له أولا وآخرا بالسبق والغلب ، وله فى مدحه قصيدة أشبه بالمعلقات أنشدها فى مهرجان شوقى وتعد من أبرع شعره ، ومنها :

أمير القوافى ، قد أتيت مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ولا أجد فى تقدير حافظ أبلغ من رثاء شوقى إياه :

وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل فى الناس إنصاف وحسن جزاء
خلفت فى الدنيا بيانا خالدا وتركت أجيالا من الأبناء

وكأن المهرجان الذى أقيم لحافظ فى الأسبوع الثانى من شهر مارس سنة ١٩٣٧ فى (دار الأبرا) الملكية صدى لدعوة شوقى

حسنين حسن مخلوف

فى الأمم السامية

للأستاذ محمد محمود جمعة

أستاذ في الآداب ورفيق بالمجمع الملكي البريطاني للأجناس البشرية
وعضو الجمعية الملكية البريطانية للأبحاث الأسيوية
والمدرس بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن

— ٢ —

مهد الساميين

من أين أتى الساميون ؟ وفى أى البيئات نشأت حضارتهم الأولى ؟ هذا سؤال عويص لم يهتد العلماء إلى الاجابة عليه بعد ، ولهم فى ذلك آراء مختلفة وبحوث طويلة سنلخصها لك فيما يلى تلخيصاً ، ثم نشفعها برأينا فى ذلك مفصلا إن شاء الله تعالى

(١) الرأى الأول - رأى القائلين بأن بابل هى المهد الأول للساميين . وهو رأى فون كرمر وغويدى وهومل وغيرهم من العلماء . وأول من نادى بهذا الرأى هو فون كرمر فى مقالين نشرهما فى سنة ١٨٧٥ فى العددين الأول والثانى من المجلد الرابع من صحيفة Das Ausland . وبعد أن سرد عددا من الكلمات المألوفة فى مختلف اللغات السامية ، لاحظ أن لفظ الجمل يوجد فى جميع تلك اللغات، على حين أنه ليس بينها لفظ واحد مشترك يدل على النخل أو التمر أو النعام مثلا ، فاستنبط من ذلك أن الساميين عرفوا الجمل يوم أن كانوا لا يزالون أمة واحدة . ثم نظر فى أى الجهات يوجد الجمل حيث لا أثر للنخل والتمر والنعام ، فوجد ذلك فى هضاب آسيا الوسطى قريبا من منبع سيحون وجيحون ، فقاده هذا إلى القول بأن ذلك هو المكان الأول الذى هاجر منه الساميون الأول ، وأن هجرتهم تقدمت هجرة الآريين والشعوب الجرمانية وهو يعتقد أن الساميين بعد نزوحهم من تلك الجهات ، ألقوا عصا تسيارهم ببلاد ما بين النهرين ، التى هى

في رأيه أقدم مراكز الحضارة السامية (١)

وفي سنة ١٨٧٩ نشر العالم الإيطالي اغناطيوس غويدي مقالا عن مهد الساميين ظهر في جملة ما ظهر في صحيفة Reale Academia dei Lincei وتشبه النتيجة التي وصل إليها تلك التي قررها فون كرمر. إلا أن طريقته في الاستنباط كانت أوسع دائرة وأفسح مجالا. فبعد أن سرد مختلف الكلمات التي تدل على تضاريس الأرض، سهولها وجبالها، وهادها ونجادها، وأسماء الفصول والمناخ، والشمس والقمر، واختلاف الليل والنهار، وما على سطح الأرض من حيوان ونبات، وماء وجماد؛ قرر أن بابل هي مهد الساميين الأول، وأن هجرتهم إليها كانت من الجنوب الغربي لبحر الخزر (٢).

ويميل إلى قبول هذا الرأي الاستاذ دريفر في الطبعة الثانية من كتابه «استعمال الأفعال في اللغة العربية» (٣).

ولا تختلف آراء هومل التي نشرها في سنة ١٨٧٩ عن ذلك كثيراً؛ وهو يرى أن وادي الفرات وأرض بابل هي مهد الساميين الأول. وأن أناساً نزحوا من بابل إلى مصر واستعمروها، وأن حضارة الثانية مستمدة من حضارة الأولى (٤)

هذا هو الرأي الأول، وهو رأي طائفة من العلماء فقط، وليس عليه الجمهور؛ ونلاحظ هنا أن الطريقة التي اتبعها أصحاب هذا الرأي ليست هي الطريقة القويمة للبحث العلمي الصحيح، وقد رفض نولدكه قبول هذا الرأي (٥).

ويرى ونحن معه أن عدم وجود كلمة مشتركة بين جميع اللغات السامية لمسمى من المسميات، لا يدل على أن الساميين كانوا يجهلون المسمى الذي تدل عليه الكلمة.

(١) راجع Wright's Comparative Grammar of the Semitic Languages, P. 5.

(٢) I bid P.6. The title of Guidi's paper is «Della sede primitiva dei popli Smitici»

(٣) راجع Driver, Use of the Tenses in Hebrew, P. 250 n.

(٤) راجع Hommel, Die semitischen Volken und Sprachen, P.68

(٥) راجع Noldeke, Semitischen Sprachen, P. 3 ff.

إذ ربما كان ذلك راجعاً إلى حلول كلمة محل كلمة أخرى لأسباب وظروف لا يمكننا الآن تعليلها.

(٢) الرأى الثانى — رأى القائلين بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين الأول، وهو رأى سبرنجر وسيس وشريدر ودى جويه وغيرهم من جمهرة العلماء. وأول من صدع بهذا الرأى هو العلامة سبرنجر « Sprenger » فى سنة ١٨٦١ (١) وقد بنى دعواه على أسس اجتماعية وعمرانية، وبين بوضوح أن الأمم الزراعية لا ترجع القهقرى إلى طور البداوة والقيام على الأنعام، وأن العكس فى ذلك صحيح.

وقد برهن على أن نجداً هى المهد الأول الذى درج فيه الساميون، وأنها هى التى وسمتهم بميسمها وطبعتهم بطابع الصحراء الذى لا يمحى؛ ثم ختم بحثه فى موضع آخر بقوله: « فى اعتقادى أن الأمم السامية إن هى إلا طبقات تترى من العرب نزحت من الجزيرة العربية طبقة أثر أخرى؛ ومن ذا الذى يعلم كم طبقة من تلك الطبقات قد تقدمت هجرة الكنعانيين الذين نجدهم فى بدء العصور التاريخية الأولى (٢) ».

وفى سنة ١٨٧٢ قرر الأستاذ سيس فى مقدمة كتابه « نحو اللغة الأشورية » (٣) أن جميع التقاليد السامية تدل على أن الجزيرة العربية هى المهد الأول للساميين، وأنها هى الجزء الوحيد من الدنيا الذى بقى محتفظاً بخواصه السامية الخالصة، وأن الخصائص الشعبية: كالضراوة وشدة العقيدة وقوة الخيال وحب الاستقلال - ترجع كلها إلى أنهم نشئوا نشأة صحراوية خالصة.

وفى سنة ١٨٧٣ وصل شرادر (٤) إلى النتيجة نفسها بعد استقراء وتقص للعلاقات الدينية واللغوية والجغرافية والتاريخية بين الأمم السامية المختلفه.

---

(١) راجع Sprenger, Das Leben und Lehre des Mohammad 1, P. 241.

(٢) راجع Alte Geographie Arabiens, P. 293 and Wright's Comparative Grammar, P. 7.

(٣) راجع A. H. Sayce, Assyrian Grammar, P. 13.

(٤) راجع مقالة Die Abslammung der Chaldaer und die Ursitz der Semiten"z DMG, XXVII, P. 420 ff.

وفى سنة ١٨٨٢ أعلن «دى جويه» «De Goeje» فى خطابه لدى المجمع العلمى أنه يؤثر الرأى القائل بأن وسط الجزيرة العربية هو المسكن الأول للجنس السامى على وجه العموم. وهو يرى ما رآه «سبرنجر» من قبل وما رآه ابن خلدون من قبلهما، من أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها، وأن خشونة البداوة قبل رقة الحضارة، وأن التمدين غاية للبدوى يجرى إليها ويسعى لها، وأننا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية المصر، وعدلوا إلى الدعة والترف الذى يهيئه الحضر؛ ويرى فوق ذلك أن أعراب الجزيرة العربية نزحوا طبقاً بعد طبق إلى الجهات الدنيا من سوريا وبابل وعمان واليمن، طلباً للخفض والدعة؛ وأن غيرهم من الأعراب قضى على آثارهم فى فترات مختلفة، ثم غلبهم على مساكنهم التى سكنوها من قبل، وألجأهم إلى أن يضربوا فى الأرض عرضاً وطولا؛ وهكذا دواليك حتى عمر الساميون بالتدريج ما سقت دجلة والفرات إلى حدود أرمينية وكردستان وبعض جهات أخرى من أفريقية ووادى النيل؛ وقد نبهنا «دى جويه» إلى جودة مناخ الجزيرة العربية وأثره فى وفرة عقول العرب وفراهة أجسامهم (١) ثم هو إلى ذلك يرى أن العربية هى أقرب اللغات إلى السامية الأولى. ونحن لا نوافق «دى جويه» على ملاحظته الأخيرة، ولنا فى ذلك رأى خاص سندلى به فى مكانه إن شاء الله تعالى

وفى سنة ١٨٩٠ قبل الاستاذ «ريت» Wright آراء «دى جويه» وأوردها فى شىء من التفصيل فى كتابه «مقارنة نحو اللغات السامية» ثم شفعها بملاحظة قصيرة قال فيها: «إن اجتياح العرب ما حولهم من المدن والأمصار فى العصور التاريخية الأولى، كثيراً ما تكرر فى العصور التاريخية الحديثة.

«فى القرون الأولى للمسيحية كانت دولة تدمر محكومة بفرقة من تجار العرب وأشرافهم» (٢).

(١) راجع Het Vaderland der semitische Volken.

(٢) راجع W. Wright, Comparative Grammar of the Semitic Languages P. 8.

ونحن نقول: إن انسياب العرب تحت راية الإسلام فى فتوحه الأولى، ونزوع القبائل إلى الأمصار، وغلبة كل قوم على ما أمكنهم من الأرضين، يكاد يصور لنا بدقة حركات الساميين الأولى وتدفقهم المتواصل إلى ما حولهم من القرى والأمصار فى العصور التاريخية الأولى وعصور ما قبل التاريخ. هذا، وقد حذا حذو من ذكرت من العلماء «هوبرت جريم» فى كتابه «محمد»[١] و «بروكلمان»[٢] و «كنج» فى كتابه «تاريخ سومر وأكاد»[٣] و «شولن» فى دائرة المعارف الكاثوليكية و «جون مير» و «استانلى كوك»[٤] و «كروبر» و «إرمان» شيخ العلماء فى الآثار المصرية و «دى مورجان» وغيرهم.

ويرى «كروبر»[٥] أن جزيرة العرب كانت أشبه شىء بخلية النحل، وأن بعض انبعاث الساميين إلى ما حولهم من البلدان كان انبعاث غزو وفتح منذ أول يوم، وبعضه كان غلبة بالعنف والقوة بعد جهاد وكفاح طويلين، بينما كان البعض الآخر تسللا واندماجا.

وقد استطاع «كروبر» أن يميز بين أربع هجرات سامية مختلفة فى العصور التاريخية القديمة: أولاها حوالى ٣٠٠٠ سنة ق م، والثانية حوالى ٢٠٠٠ سنة ق م. والثالثة حوالى ١٤٠٠ سنة ق م، والرابعة حوالى ٧٠٠ سنة ق م؛ ثم جاء انسياب العرب تحت ألوية الاسلام بعد ذلك بنحو أربعة عشر قرناً.

أما «إرمان» و «دى مورجان» فيذهبان إلى أبعد من هذا: يذهبان إلى القول بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين والحاميين معاً، وأنها هى المقر الذى هاجر منه المصريون القدماء إلى وادى النيل[٦]، وأن الجنس الحامى إن هو إلا

---

(١) راجع Hubert Grimme, Mohammad, 1904, PP. 6 - 8.

(٢) راجع Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprache.

(٣) راجع History of Sumer and Akkad, P. 119.

(٤) راجع Cambridge Ancient History, 1, 192.

(٥) راجع A. L. Kroeber, Anthropology, P. 451.

(٦) راجع De Morgan, Recherches sur les origines de l'Egypt 1897, II, 219, 222 and 228.

جنس سامى تغيرت صفاته ، واختفت مميزاته على مر الزمن ؛ لاختلاطه بزنوج أفريقية (١)

ويعتقد « دى مورجان » أن جزيرة العرب كانت معمورة قبل العصر الجليدى الأخير ، وأنه لما جاء أمر ربك وفار التنور ، وطغى عليها الماء فى آخر ذلك العصر ، آوى كثير من سكانها إلى حضرموت ، والجبال المشرفة على البحر الأحمر (بحر القلزم) يعتصمون بها ، حتى إذا أقلعت السماء ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، عاد فعمر هؤلاء ومن تحدر منهم جزيرة العرب أكثر مما عمرها آباؤهم الأولون ، وكان منهم الساميون الذين هم موضع حديثنا اليوم (٢) هذا هو الرأى الثانى وعليه جمهور العلماء .

ونلاحظ هنا أن جل أصحاب الرأيين المتقدمين هم من فقهاء اللغة وعلماء الرأى السامى .

(٣) الرأى الثالث - رأى القائلين بأن شمال إفريقية هو المهد الأول للساميين قبل نزوحهم إلى جزيرة العرب ، وهو رأى « بالجريف (٣) » و « جرلاند (٤) » و « برتن (٥) » و « موريس جسترو (٦) » و « كين (٧) » و « وورل (٨) » وغيرهم من الشعوبيين .

---

(١) راجع Erman's artical in « Die Tlexiondes agyptischen Verbums »

(٢) راجع De Margan « Prehistoire Orientale, 1, PP . 202,208-9

(٣) راجع Palgrave's artical « Arabia » in the Encyc. Brit.

(٤) راجع Gerland's artical « Ethnography » in the Iconographic Encyc. Vol. I.

(٥) راجع Journal of the Anthropological Institute, XI, 431.

(٦) راجع Jastrow, Cradle of the Semites, P. 13.

(٧) راجع A. H. Keane, Ethnobogy, and Man, Past and Present.

(٨) راجع W. H. Worrell, A Study of Races in the Arcient East.

ويرى « باجريف » أن الشبه الجنسى القوى بين العرب والأحباش وأمم البربر وغيرهم ، وخصوصا فى شكل الفك ، ودقة عظم الساق ، ثم شدة الشبه الاجتماعى واللغوى بين تلك الأمم يدعو إلى القول بأن الساميين الخلص ليسوا من أصل أسيوى وإنما جاءوا إلى جزيرة العرب من إفريقية .

وقد وصل « جرلاند » إلى النتيجة نفسها على أساس الشبه الجسمى - كشكل الجمجمة مثلا — والشبه اللغوى أيضا ، وهو يزعم أنه يمكن رد جميع الأمم السامية إلى أصل إفريقى ، وذلك لأنه يعتقد بالوحدة الجنسية لشعوب إفريقية ، ويعتبر الساميين فرعا منها .

وفى سنة ١٨٨٢ دافع « برتن » عن هذا الرأى دفاع الأبطال ، وذهب إلى القول بأن الساميين والحاميين ربيبا أرض واحدة ، هى شمال إفريقية ، وأنه لما فصلت الأمم السامية إلى جزيرة العرب ركبت طريق السويس إلى بطرة ، حيث ألقت عصاها واستقرت بها النوى ، واكتسبت خصائصها الشعبية ، ومميزاتها الجنسية .

وفى سنة ١٨٨٢ أيضاً قبل « نولدكه » هذا الرأى ، ولكنه ذكره كفرض محتمل لا نظرية ثابتة (١)

وقد حاول « برتن » (٢) فى كتابة « مهد الساميين » أن يعين الموضع الذى هاجر منه الساميون فى شمال إفريقية ، وهو يقول : إن الأساطير المشهورة ، وعلم مقارنة اللغات ، وعلم الشعوب ، وعلم العمران ، تدل كلها على أن أودية جبال الأطلس الجميلة المشرفة على المحيط ، هي مهد الساميين الأول قبل نزوحهم إلى جزيرة العرب

أما « ربلى » فبعد أن عرض الآراء المختلفة فى كتابه « شعوب أوربا » ختم بحثه بقوله : إن خصائص العرب الجسمية تؤيد رأى « برتن » و « جسترو » فى أنهم انحدروا من أصل إفريقى (٣)

---

(١) راجع Noldke, Die Semitischen Sprache, p. 9, also. his Artical « Semitic Languages » in the Encyc. Brit.

(٢) راجع Cradle of the Semites, Also Races and Peoples, p.132.

(٣) راجع The Races of Europe, p. 376.

ويرى « كين »[١] أن جهات موريتانيا أو بلاد المغرب هى مهد الجنس القوقازى بأجمعه ، بله الساميين والحاميين ، وأنها البقعة التى فصلوا منها إلى مساكنهم المختلفة ، ثم عاد فذكر فى كتابه « الإنسان ماضيه وحاضره » أن جزيرة العرب هى الوطن الأول الذى استوطنه الساميون بعد خروجهم من إفريقية ، والذى منه تفرقوا أيادى سبا وأمما شتى إلى مساكنهم القومية[٢] هذا هو الرأى الثالث وهو رأى الشعوبيين على الخصوص .

ونلاحظ هنا أن هذا الرأى لا يتعارض مع الرأى القائل بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين ؛ إذ معنى ذلك أن الجزيرة العربية هى الوطن الأول الذى سكنه الساميون بعد خروجهم من إفريقية والذى فيه تكونت خصائصهم الشعبية ، ومميزاتهم الجسمية ، والذى منه تفرقت شعبهم المختلفة إلى مساكنها القومية المتباينة .

(٤) الرأى الرابع

موعدنا به العدد التالى إن شاء الله تعالى .

محمد محمود جمعه

---

(١) راجع Ethnology, p. 302.

(٢) راجع Man, Past and Present, p. 490.

دار العلوم والمتنبى فى لندن

بقلم عبد الرازق ابراهيم حميدة

بعثة اللغة الانجليزية بجامعة لندن

بين دار العلوم والمتنبي محبة أكيدة وود متين، وقد عرفتهما فى مصر صديقين تجمع بينهما أواصر الدين، وأسباب اللغة، وعرفتهما كلا منهما أحب ما يكون إلى الآخر، لما بينهما من تشابه فى نباهة الشأن، وسمو المكانة، وبذل أقصى الجهد فى رفع علم اللغة العربية والتعريف بفضلها فى كل مكان.

وما كنت أحسبنى أظفر بالفرصة التى يلتقيان فيها فى مغارب الأرض، وأشهد كيف يكون تقدير الفضل والنبوغ والعبقرية، ممن يفهمون الفضل والنبوغ والعبقرية، حتى سنحت الفرصة فى أكتوبر الماضى، فى لندن حاضرة الدنيا وأم الأمصار، حيث بعث المتنبي حياً، واحتفل بعيده الألفى هنا، كما احتفل به فى مشارق الأرض، واشتركت لندن فى مهرجانه، وساهمت فى تمجيده، وأوسعت صدرها لحفلات ثلاث تغنى القوم فيها بذكاء المتنبي ونبوغه، وتحدثوا عن طموحه وآماله.

كانت حفلة السفارات العربية أولى الحفلات، أقيمت فى دار السفارة المصرية. وفى هذه الحفلة تم التعارف بين المتنبي والمحتفين به على يد برفسور جب أستاذ اللغة العربية فى جامعة لندن، وقد قدمه خير تقديم، وتكلم عن رحلاته بين البادية والشام ومصر والعراق، ثم ألقت رئيسة جمعية الشعر الانجليزية وهى إحدى كرائم العقيلات شيئاً من شعر المتنبي، مما ترجمه بروفسور «نيكلسون» أستاذ اللغة العربية فى جامعة كمبردج، فكان إلقاؤها جميلا جداً، وبخاصة إلقاؤها ترجمة قول المتنبي.

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها فى ليله فأرت ليالى أربعـا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتنى القمرين فى وقت معاً

وكانت الحفلة الثانية حفلة الجمعية الأسيوية الملكية برياسة بروفسور مرجليوث، وتكلم فيها برفسور نيكلسون فأبدع فى تحليله ودراسته للمتنبي، وبخاصة موازنته

بينه وبين شكسبير وبوب ، فحمد له ناحية الشعر الذى جرى مجرى الأمثال .

أما الليلة الثالثة فكانت فى دار النادى المصرى ، أقيمت الحفلة فى يوم السبت ١٧ من اكتوبر سنة ١٩٣٦ ، وكانت فريدة فى نوعها ، بديعة فى تنظيمها ، بدا فيها المتنبى على غير عهد الناس به شاعراً يكتب للمسرح ويبدو هو نفسه ممثلا قديراً .

ولم لا ؟ ألم تكن حياة المتنبى قصة مسرحية طريفة قام هو فيها بالدور الأول ، وأنشد فى كل فصل منها من آيات الحكمة والموعظة الحسنة ما لم يفعله شاعر قبله ولا بعده فى اللغة العربية إلا شوقى رحمه الله ؟

وقصة ذلك أن لجنة النادى عهدت بأمر حفلتها إلينا أبناء دار العلوم ممثلين فى شخص أخى إبراهيم أنيس ورأينا نحن أن نكون كالعهد بنا أكفاء لكل ما نضطلع به ، وأن تكون حفلتنا على غير مثال سبق . ماذا نفعل ، ونحن نعلم من برنامج الحفلتين الأوليين أن المتنبى سيكون موضوع كلام طويل وخطب ودراسة وتحليل لشعره ونفسيته ، وسوف تترجم بعض آثاره ويتلى بعضها باللغة العربية ، وسوف يتحدث عن ذكائه ورحلاته إلى سيف الدولة وكافور وابن العميد ؟

« ما رأيكما فى قصة مسرحية عن المتنبى ؟ » كان هذا رأياً عرضه الأستاذ خلف الله ونحن فى طريقنا ذات ليلة إلى بيوتنا قائلا : أما أنا فأتعهد أن أمدكم بالحوادث . ولكن من الذى يتخير منها حادثة تكون رواية من فصل واحد ؟ ومن الذى يستخرج من شعر المتنبى قصة مسرحية تجمع بين الفكاهة والصدق وسهولة الفهم . ومن أولئك الذين يلقون شعر المتنبى تمثيلا فيحسنون إنشاده ويظهرون جزالته إذا لم نكن نحن الذين يفعلون ؟

ألقينا عبء التأليف والإشراف على إخراج الرواية واختيار الأشخاص على أنيس فكان جوابه « حمل بعير وأنا به زعيم » . ونحن نعلمه موهوبا فى هذه الناحية ، مغرما بالتمثيل والتأليف المسرحى ، وعنده روح الفكاهة العذبة ، وهو كفيل بإخراج رواية تسر الجمهور وتحبب إليه السيد أحمد بن الحسين - المتنبى - ولأنيس كثير من السوابق فى هذا الباب ، وعندنا أشخاص الرواية أجمعون . وكان على المؤلف أن يكتب لكل منهم دوراً يناسبه على أن تتفق الحقيقة والخيال إلى حد ما .

أما أشخاص الرواية فهم أربعة :

سيف الدولة — وقد مثله أنيس خير تمثيل .

ابن خالويه - إمام من أئمة النحو كما نعلم جميعاً ، وكانت بينه وبين المتنبي عداوة يذكيها أبو فراس الحمدانى من ناحية واعتداد المتنبي بنفسه وعدم اهتمامه بأقوال النحاة ونقدهم من ناحية أخرى - قام بهذا الدور عبد العزيز أمين خير قيام ، ونال إعجاب الذين شهدوا الحفلة جميعاً . وذلك أنه وافق دوره كما «وافق شن طبقه» فى المثل العربى ، وكانت شواهد الاستغاثة وأمثله التعجب تثير من إعجابه ، ويبدى هذا الإعجاب بطريقة تثير السرور ، وتحمل على الضحك والاستحسان .

المتنبي - مثله خلف الله . ومن أحق منه بتمثيله ؟ ! إنه شاعر جهير الصوت ، عربى الوجه واليد واللسان . حلو الإلقاء والنبرات .

أبو الحسن - راوية المتنبي وصديقه وناصره على ابن خالويه - وهى شخصية تخيلها أنيس ، كما تخيل أننى أحفظ من الشعر العربى - للمتنبي وغيره - مقداراً لا بأس به ، ولم أكن قد علوت مسرحاً قبل هذه المرة ، ومكث أنيس يعلمنى زمناً كيف أكون «أبا حسن» فكنت بعد لأى وعناء وتخوف .

وعند ما لبست العباءة والعقال تملكنى السرور ، وقلت

ولبس عباءة وتقر عينى أحب إلى من لبس الشفوف

وعند ما انتهت الرواية طلبت من أنيس أن نعيد تمثيلها مرة أخرى لأنفسنا من غير الجمهور ، فضحك منى ولم يوافقنى أحد من بقية الإخوان .

أما الذين شهدوها فقد سروا جداً ، وكان من بينهم الأستاذ عبد الرحمن بك حقى القائم بأعمال المفوضية عندئذ ، والمرحوم حسن باشا خالد أبو الهدى رئيس وزارة شرق الأردن وبروفسور جيب ودكتور تريتون من مدرسة اللغات الشرقية والسير دنصون روس مدير المدرسة .

وكانت الحفلة فى جملتها «دار العلوم والمتنبي فى لندن» كما قال جل الذين شهدوها ، وكانت خير ما يمكن أن يحدث فى مثل هذه الظروف ،

عبد الرزاق ابراهيم حميده
بعثة اللغة الانجليزية بجامعة لندن

المتنبى فى مجلس سيف الدولة

رواية تمثيلية ذات فصل واحد

بقلم ابراهيم أنيس

عضو البعثة المصرية بانجلترا

«سيف الدولة يلعب الشطرنج مع ابن خالويه ، وبجوارهما أبو الحسن الراوية »

سيف الدولة « مقهقهاً » : عليك أن تحمى مليكك يابن خالويه .

بذا قضت الأيام مابين أهلها : مصائب قوم عند قوم فوائد

ابن خالويه : أعز الله مولاى الأمير ، والله إن فرسك فى صيالها فوق لوح الشطرنج . لهى فرسك فى ميدان القتال

وما الخيل إلا كالصديق : قليلة وإن كثرت فى عين من لايجرب

أبو الحسن : إن مليكك ومليكى فى أمن من الخوف ، وما هذه الأليعبات إلا خشب مسندة

فرب غلام علم المجد نفسه كتعليم سيف الدولة الدولةَ الضربا

إذا الدولة استكفت به فى ملمة كفاها ، فكان السيف والكف والقلبا

ابن خالويه : نطقت صواباً . ولكن أتعرف لم لم تنصب كلمة « خُشُب » فى قولك « ماهى إلا خشب مسندة » ؟

سيف الدولة : يا بن خالويه عرفناك نحوياً ضليعاً فدع أبا الحسن وحاله إنه وإن لم يدر من النحو ماوعيت ، لهو بالكتابة والرواية جد عليم

عليم بأسرار الديانات واللغا له خطرات تفضح الناس والكتبا

أبو الحسن : أدام الله حياة الأمير ، لقد تعودت مثل هذا القول من ابن خالويه وغيره ، ولكنه الزمن أيها الأمير :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

ابن خالويه : قاتلك الله . لقد أعدت إلى سمعي ذكر « حتي » ، رحم الله

سيبويه حين قال « سأموت وفى نفسى شىء من حتى »

سيف الدولة « بعدلعبة مدهشة من ابن خالويه » : لعنك الله ! ضيقت على الحصار ، فلا أرى مخرجاً

أظمتنى الدنيا ، فلما جئتها مستسقياً ، مطرت على مصائباً

ابن خالويه : ألا ليت شعرى .

أبو الحسن « مكملا »

هل أقول قصيدة فلا أشتكى فيها ولا أتعتب

وبى ما يذود الشعر عنى أقله ولكن قلبى يابنة القوم قلب

سيف الدولة : والله لكأنى لم أسمع هذا الشعر من قبل ، لمن هذا ؟ وفيمن قيل ؟

ابن خالويه : كيف يكون فى ممدوح غير سيف الدولة

أنت الذى لهج الزمان بذكره وتزينت بحديثه الأسمار

وإذا تنكر فالفناء عقابه وإذا عفا فعطاؤه الأعمار

أبو الحسن : إنه المتنبي يمدح الأمير . وهو القائل فيك .

من للسيوف بأن تكون سميه فى أصله وفرنده ووفائه

سيف الدولة : ألم يكن هذا فى القصيدة التى أجاز بها أبياتك ؟ فماذا كان مطلعها ؟

أبو الحسن : مطلعها ـ أعز الله الأمير :

يا لائمى كف الملام عن الذى أضناه طول سقامه وشقائه

ابن خالويه : ردىء ! وإنه لو قال أضناه سهاده لكان خيرا .

سيف الدولة : أحسنت يابن خالويه فى نقدك للمرة الأولى .

ونذمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتميز الأشياء

أبو الحسن : ما زلت أعتز بأبياتى هذه حتى أجازها المتنبي بقوله :

عذل العواذل حول قلب التائه وهوى الأحبة منه فى سودائه

فأصغر من شعرى هذا القول .

ابن خالويه « ساخراً » : لم لا نلقبك راوية المتنبي ؟ إنى أراك تسرف فى

الثناء عليه وهو لم يأت بجديد ، رحم الله عنترة حين قال :

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ »

سيف الدولة : يابن خالويه ، كن عادلا فى حكمك ، وحاول أن تفهم الشعر من طريق غير طريق النحو .

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره اذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟

أبو الحسن :

مضت الدهور وما أتين بمثله ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

ابن خالويه : إنك لتزيده بمثل هذا القول غروراً ، وهو القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فليت شعرى ماذا أبقى للأمير ! وصف نفسه بالرياسة والسماحة والفصاحة ، يمدح نفسه بما يسرق من كلام غيره ، ويأخذ جوائز الأمير .

سيف الدولة : إنه شغل عنى بالمديح فى نفسه ، ولقد كتبت له بهذا وتنكرت له بعض الشىء .

وإنى لنجم تهتدى بى صحبتى إذا حال من دون النجوم سحاب

وللسر منى موضع لا يناله نديم ، ولا يفضى إليه شراب

« ثم يشرب الكأس »

أبو الحسن : لعل الأمير يذكر اعتذاره عن هذا بقوله :

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل الكلام اختصارا

تركتنىَ اليوم فى خجلة أموت مراراً وأحيا مراراً

ابن خالويه : لاحول ولا قوة إلا بالله ، والله إن الشعراء ليتبعهم الغاوون كيف يموت مرار ويحيا مرارا ؟ والله إن الموت لموتة واحدة .

سيف الدولة « مقهقها » : يابن خالويه ، رفه عنك . فما الشعر إلا خيال يلذ به السامع ، كما يلذ الشارب بالخمر :

« يا ساقى ، على بالصهباء »

أبو الحسن :

لأحبتى أن يملئوا بالصافيات الأكوبا
وعليهمُ أن يبذلوا وعلى ألا أشربا

ابن خالويه : والله إن المجلس بغير الشراب ، لكالكلام بلا إعراب .

سيف الدولة : لقد كتبت إلى المتنبى أستدعيه .

« يدخل المتنبى منشدا »

فهمت الكتاب أبر الكتب فسمعاً لأمر أمير العرب
وطوعا له وابتهاجاً به وإن قصر الفعل عما وجب
وما عاقنى غير خوف الوشا ة، إن الوشايات طرق الكذب

السلام على مولاى الأمير ومن بحضرته :

سيف الدولة : وعليكم السلام . اجلس يا أبا الطيب .

أبو الحسن : كيف رأيت خلعة الأمير يا أبا الطيب ؟

المتنبى :

فعلت بنا فعل السحاب بأرضه خلع الأمير وحقه لم نقضه
فكأن صحة نسجها من لفظه وكأن حسن نقائها من عرضه

ابن خالويه : لست أستسيغ قولك : « فعلت بنا »

سيف الدولة « مقهقهاً » : لعنك الله يا بن خالويه .

ابن خالويه : إن هذا القول فى رداءته يذكرنى بقصيدتك التى قلت فيها :

ليت أنا إذا ارتحلت لك الخيـــل وأنا إذا أقمت الخيام

والتى جعلت فيها الخيام فوق الأمير .

المتنبى :

لقد نسبوا الخيام إلى علاء أبيت قبوله كل الإباء
وما سلمت فوقك للثريا ولا سلمت فوقك للسماء

سيف الدولة : أحسنت يا أبا الطيب ، هل لك فى كأس من الشراب ؟

أبو الحسن : رحم الله يماك التركى ، فقد كان طوع الأمير فى مجلس شرابه ، ألست القائل ترثيه :

لأبقى يماكُ فى حشاى صبابة إلى كل تركى النجار جليب

ابن خالويه : كف عن هذا ، ولا تذكر الأمير بخادمه المحبوب ؛

فما ماضى الشباب بمسترد ولا يوم يمر بمستعاد

سيف الدولة : يا أبا الطيب ، ألا يذكرك هذا الشطرنج بيوم لنا أنشدتنى فيه ؟

المتنبي : لقد كان هذا فى يوم مطير .

أبو الحسن :

ألم تر أيها الملك المرجى عجائب ما رأيت من السحاب

تشكى الأرض غيبته إليه وترشف ماءه رشف الرضاب

وأوهم أن فى الشطرنج همى وفيك تأملى ولك انتصابى

ابن خالويه : قبيح . قبيح ورب الكعبة ، « ولك انتصابى » ؟

سيف الدولة : يا أبا الطيب استمع لما أنشد ، على أن تجيزه ارتجالا :

خرجت غداة النفر أعترض الدمى فلم أر أحلى منك فى العين والقلب

المتنبي :

فديناك أهدى الناس سهما إلى قلبى وأقتلهم للدارعين بلا حرب

تفرد بالأحكام فى أهله الهوى فأنت جميل الخلف مستحسن الكذب

وإنى لممنوع المقاتل فى الوغى وإن كنت مبذول المقاتل فى الحب

أبو الحسن : صدقت وبررت ، والله إن الشعر فى أسمى درجاته لا يلذ السمع إلا حين يتحدث عن الحب ، وإن أنس لا أنس قولك يا أبا الطيب :

وفتانة العينين قتالة الهوى إذا نفحت شيخا روائحها شبا

لها بشر الدر الذى قلدت به ولم أر بدراً قبلها قلد الشهبا

فياشوق ما أبقى ويالى من النوى ويادمع ما أجرى وياقلب ما أصبى !

ابن خالويه : إن البيت الأخير لشاهد حسن لباب الاستغاثة ! ولكن خير من هذا الشعر قول القائل :

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها ومن عهدها ألا يدوم لها عهد

وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضا وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد
كذلك أخلاق النساء ، وربما يضل بها الهادى ويخفى بها الرشد

سيف الدولة : يابن خالويه ، إن نحوك - علم الله - ليثير علتى ، ويقلق هذا الدمل تحت إبطى ، « يمسك إبطه متوجعاً »

أبو الحسن :

بنا لابك الشكوى ، فليس بضائر إذا صح نصل السيف مالقى الغمد

المتنبي :

أيدرى ما أرابك من يريب وهل ترقى إلى الفلك الخطوب
وجسمك فوق همة كل داء فقرب أقلها منه عجيب
وكيف تعلك الدنيا بشىء وأنت بعلة الدنيا طبيب

ابن خالويه « وحده » شهد الله إنه لرياء مستنكر ، ومبالغة غير محمودة .

سيف الدولة : بم تتمتم يابن خالويه ؟ أذهب النحو بالبقية من عقلك ؟

أبو الحسن : أعز الله الأمير ، مازالت به كان وأخواتها حتى ذهبت برشده .

ابن خالويه : صه . كيف تجرؤ أن تهيننى فى حضرة الأمير ؟

سيف الدولة : كفى ، دعونا أنشدكم هذه الأبيات التى طالما أعجبت بها ، على أن يجيزها أبو الطيب :

سأشكر عمراً ما تراخت منيتى أيادى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولامظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتى من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

المتنبي « يطرق قليلا ثم ينشد » :

لنا ملك لا يطعم القوم ، همه مماة لحى أو حياة لميت
ويكبر أن تقذى بشىء جفونه إذا ما رأتها خلة بك فرت
جزى الله عنى سيف دولة هاشم فإن نداه الغمر سيفى ودواتى

أبو الحسن « مصفقاً » : أجدت وأحسنت . ألا ترددهذا الذى ارتجلت فأحفظه ؟

المتنبي : لا والله حتى يأمر الأمير .

سيف الدولة : أنشد يا أبا الطيب ، « المتنبى يردد الأبيات وابن خالويه يسد أذنيه بيديه »

أبو الحسن : هذا هو الذى فى أذنيه وقر ، فلا يتذوق جمال الشعر .

ابن خالويه « متحديا المتنبى » : غداً العيد فما أعددت لتقول فى الأمير ؟

أبو الحسن : إن قصائد أبى الطيب فى تهنئة الأمير بالعيد مشهورة .

المتنبى :

هنيئاً لك العيد الذى أنت عيده وعيد لمن سمى وضحى وعيدا

« يسمع من الخارج صوت المؤذن فيضع سيف الدولة الكأس جانبا ، ثم يكبر الجميع مع المؤذن »

المتنبى :

ألا أذن فما أذكرت ناسى ولا لينت قلباً وهو قاسى

ولا شغل الأمير عن المعالى ولا عن حق خالقه بكاس

ابن خالويه : أدام الله حياة الأمير ، إن الوقت ليمضى سريعاً فى حضرته . أهذه هى العشاء ؟

أبو الحسن : والله يا مولاى لو كنت أميرا لأجزلت لأبى الطيب مثل هباتك له ، فقد علمنى الحب إذ يقول :

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تمدد له طنبا

مظلومة القد فى تشبيهه غصناً مظلومة الريق فى تشبيهه ضرباً

بيضاء تطمع فيما تحت حلتها وعز ذلك مطلوبا إذا طلبا

ابن خالويه : « مستنكراً » « تطمع فيما تحت حلتها » ؟ ويقال هذا فى حضرة الأمير ؟ ثم ما معنى قولك « علمنى الحب » وهل الحب يعلّم ؟

سيف الدولة : ليست كل القلوب أهلا للحب ، فمنها الصخر الأصم ، ومنها الرقيق الحساس :

لا تعذل المشتاق فى أشواقه حتى يكون حشاك فى أحشائه

إن القتيل مضرجاً بدموعه مثل القتيل مضرجاً بدمائه

أبو الحسن : أصغ إلى هذا القول يابن خالويه ، فربما ألان من قلبك : أرقٌ على أرق .

المتنبي « متمما » : ومثلى يأرق

أبو الحسن : وجوى يزيد وعبرة تترقرق

جهد الصبابة أن تكون كما أرى : عين مسهدة وقلب يخفق

ما لاح برق أو ترنم طائر إلا انثنيت ولى فؤاد شيق

جربت من نار الهوى ما تنطفى نار الغضى وتكل عما تحرق

وعذلت أهل العشق حتى ذقته

المتنبي : فعجبت كيف يموت من لا يعشق

والله لو كنت الأمير لأعطيتك أنت هذه المنح ، يا أبا الحسن ، إنك لتحفظ من شعرى أكثر مما أحفظ أنا .

سيف الدولة : « كأنما تذكر أمراً خطيراً — واقفاً »

أيها القوم ، أفتونى فى أمر بنى كلاب . ما زالوا يشنون الغارة ، ويفسدون علىّ أمر الرعية .

أبو الحسن « دهشاً » : أما ارعووا بعد أن أدبتهم فى المرة الأولى !

تهاب سيوف الهند وهى حدائد فكيف إذا كانت نزارية عربا

ويرهب ناب الليث والليث وحده فكيف إذا كان الليوث له صحبا

ويخشى عباب البحر وهو مكانه فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبا

« المتنبي يطرق مفكراً »

ابن خالويه « متهكما » : المتنبي يستوحى بنات شعره ليصد عنا .

سيف الدولة : كفى يا بن خالويه ، فيم تفكر يا أبا الطيب ؟

المتنبي « منشداً » :

بغيرك راعياً عبث الذئاب وغيرك صارماً ثلم الضراب

وتملك أنفس الثقلين طرا فكيف تحوز أنفسها كلاب

وما تركوك معصية ولكن يعاف الورد والموت الشراب

طلبتهمو على الأمواه حتى تخوف أن تفتشه السحاب

أبو الحسن : ما أعذب وما أجمل !

ابن خالويه « متهكما » : وما أحلى !

سيف الدولة : أجز هذه الأبيات يا أبا الحسن ،

أبو الحسن :

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجانى عتاب

وإنهمو عبيدك حيث كانوا إذا تدعو لحادثة أجابوا

وعين المخطئين همو وليسوا بأول معشر خطئوا فتابوا

المتنبي :

وأنت حياتهم غضبت عليهم وهجر حياتهم لهمو عقاب

سيف الدولة : أجدتما وأحسنتما ، فماذا ترى يابن خالويه ؟

ابن خالويه :

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب

أعز الله الأمير ، ليس عدلا أن يعاقب القوم كلهم .

سيف الدولة : والله لو منعونى درهماً لقاتلتهم عليه .

المتنبي :

ولو غير الأمير غزا كلابا ثناه عن شموسهمو الضباب

ولكن ربهم أسرى إليهم فما نفع الوقوف ولا الذهاب

أبو الحسن : فمسّاهم وبسطهم حرير

سيف الدولة : « متمما بحدة » : وصبحهم وبسطهم تراب

والله لأعلمن القوم كيف يرتدعون عن غيهم ، يا غلام دع المغنى يغنى قبل أن تدور رحى الحرب « يسمع صوت المغنى مطرباً الأمير ومن بحضرته »

المتنبي :

ما ذا يقول الذى يغنى يا خير من تحت ذى السماء

شغلت قلبي بلحظ عينى إليك عن حسن ذا الغناء

سيف الدولة : أعلى البديهة تقول هذا ؟

أبو الحسن : ليس هذا بكثير على شاعر الأمير .

ابن خالويه : أعز الله مولاى الأمير ، والله لقد ضقت ذرعا بهذا المتشاعر ، وإن غروره قد جاوز الحد ، إن الرجل يبغى حولا وسلطاناً كالذى للأمير .

أبو الحسن : هذه الكلمة يراد بها باطل ، أعز الله مولاى الأمير ، لخير لك أن يكون شاعرك عالى الهمة من أن يكون ذليلها وهو الذى يقول فيك :

بلغت بسيف الدولة النور رتبة ملكت بها ما بين شرق ومغرب

سيف الدولة « غاضباً » :

أراك قد أسرفت يا أبا الطيب فى مديح نفسك ، فبم تعتذر عن هذا ؟ أجب

المتنبي :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتباً فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

حنانيك مسئولا ولبيك داعياً وحسبي موهوباً ، وحسبك واهباً

أبو الحسن : رعاك الله ! لا تسمع لقول الوشاة ، فلست أحسب الأمير قد نسى قول المتنبى فيه :

وبمهجتى يا عاذلى الملك الذى أسخطت كل الناس فى إرضائه

إن كان قد ملك القلوب فإنه ملك الزمان بأرضه وسمائه

الشمس من حساده والنصر من قرنائه ، والسيف من أسمائه

ابن خالويه ، أصلح الله الأمير ، لقد أدخل هذا الرجل على الشعر ما أفسده ، ولعل الأمير يذكر ذلك الهذيان الذى سماه شعراً فى قصيدته التى مطلعها :

ما أنصف القوم ضبة وأمه الطرُطُبّة

سيف الدولة « يزداد غضبه »

أتقرن غيرى بى فى المديح يا أبا الطيب ؟

المتنبي :

وظنونى مدحتهمو قديماً وأنت بما مدحتهم مرادى

أبو الحسن : لله درك حين تقول :

أنا ترب الندى ، ورب القوافى وسمام العـدا ، وغيظ الحسود

ابن خالويه : أنا لست بحسود ، وإنما أنا أديب يعرف للشعر قدره

المتنبي : اتق الله يابن خالويه

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده تصيده الضرغام فيما تصيـدا

صدق من قال : إذا لم تستح فاصنع ما شئت

فى الناس أمثلة تدور : حياتها كمماتها ، ومماتها كحياتها

أبو الحسن :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

سيف الدولة : أسرفتما فى ذم ابن خالويه والتعريض به .

ابن خالويه « معرضاً بالمتنبى » :

تخفى العداوة وهى غير خفية نظر العدو بمـا أسر يبوح

« مخاطباً سيف الدولة » :

فلا تغررك ألسنة موال تقلبهن أفئـدة أعادى

المتنبي :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم فأنت الذى صيرتهم لى حسداً

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

أجزنى إذا أنشدت شعراً ، فإنما بشعرى أتاك المادحون مردداً

أبو الحسن : من أجمل ما أحفظه لك يا أبا الطيب قولك :

وإذا خفيت على الغبى فعاذر ألا ترانى مقلة عميـاء

المتنبي : أطال الله بقاء الأمير . لقد خلقت فينا الشجاعة . وكنت لنا المثل فى ميدان القتال .

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمـة ووجهك وضاح وثغرك باسم

سيف الدولة : أما قلت :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمـــة كأنك فى جفن الردى وهو نائم

المتنبي : أعز الله الأمير ، إنى حين ذكرت الموت فى أول بيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه ، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية ، قلت : ووجهك وضاح ، لأجمع بين الأضداد

سيف الدولة : أحسنت وأجدت ، « يناوله عطية » إنى لأطرب لشعرك يا أبا الطيب ، أنشدنى !

المتنبي :

رأيتك فى الذين أرى ملوكا كأنك مســـتقيم فى محال
فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

ابن خالويه : هذا الشعر فيه عيب فى الصنعة ، قولك « مستقيم فى محال » والمحال ليس من ضده الاستقامة ، وإنما ضدها الاعوجاج ،

أبو الحسن « متهكما » : هب القصيدة جيمية فكيف تروى البيت الثانى ؟

ابن خالويه :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن البيض بعض دم الدجاج

« الجميع يضحكون »

المتنبي : حسن مع هذه السرعة ، إلا أنه يصلح أن يباع فى سوق الطير ، لا مما يمدح به مثل الأمير .

ابن خالويه « محتداً » : أتهزأ بى يا شيطان !

المتنبي :

ومن يك ذا فم مُرّ مريض يجد مراً به الماء الزلالا

ابن خالويه : اسكت وإلا . ! « مهدداً بمفتاح فى يده »

المتنبي : اسكت ويحك ، ما لك وللعربية ، إنك أعجمى !

« ابن خالويه يضربه بالمفتاح »

« المتنبي يحاول الإمساك بتلابيبه فيصيح به سيف الدولة »

سيف الدولة : « بعد هدوء العاصفة » :

لقد انتصف لنفسه

المتنبي : لا بد من رحيلي . ثم ينشد :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

يا أعدل الناس إلا فى معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

« ينزل الستار »

(لندن)

ابراهيم أنيس
عضو بعثة المجمع اللغوى



معجم الأدباء

بقلم الأستاذ الجليل الشيخ عبد الخالق عمر

الأستاذ بدار العلوم

وبعد فقد صحت عزيمتى أن أكتب فى صحيفة دار العلوم شيئا مما مر على فى معجم الادباء لياقوت أثناء مراجعتى تجاربه النهائية التى كلفتنى بها وزارة المعارف بكتاب أرسلته إلى، وقبل البدء فيما ارتأيت يجدر بى أن أذكر شيئا عن ياقوت، وآخر عن كتب التراجم وما تسديه إلى قراء العربية من أدب جم وعلم زاخر وفقه عظيم.

ياقوت: لا أحاول أن أكتب عن ياقوت كتابة وافية كما يكتب المؤرخون، ولا أريد أن أتتبع حياته فأضعها محل الشرح أو التحليل كما يقول فلاسفة الأدب، ولكنى سألم به إلمامة تبرد الغليل لمن يتطلع إلى تعرف حياته، على أن من يرغب فى عرفان شخص ما، فعليه أن ينظر إلى ما ترك من أثر وما قدم من عمل، فإن هذا مكان الحكم على الشخص وموضع الرأى فيه والكلام عليه.

وها هو ذا ياقوت من بين ما أثر عنه كتاباه الجليلان: معجم الأدباء ومعجم البلدان. لقد قرأت فى الأول زهاء ثلثيه فجعل لياقوت فى ذهنى وخيالى عظمة لا كنه لها، ومكانة قل أن يرقى إليها مبتغى الرقى، وما ألقى قولى على عواهنه، ولكنى أؤيده بما كان فى نفسى وعقلى وفهمي وإدراكى. وربكم لقد قرأت من كتب الأدب كثيرا، مستقلا فى القراءة لنفسى، أو معدا دروسا، فلم أكن واعيا حافظا طربا من تلك الكتب بمقدار ما وعيت من معجم الأدباء، ولقد بصرنى بكثير من أمور الدول وحركة العلم والأدب فيها، ووقف بى حيث يتنافس المتنافسون فى كل فن، ودلنى على ما قيده وألفه المؤلفون فى كل عصر من كل علم من العلوم الأدبية والشرعية والاجتماعية والطبيعية، حتى جعل فى نفسى صورة واضحة للأمة الإسلامية على اختلاف أجناسها فى مدى ستة قرون، بما لم أقف عليه من كتب

الأدب أو مذكراته التي يقوم بجمعها الكاتبون . وسيتبين للقارئين حقيقة ما أقول إذا عرضت عليهم فى هذه المجلة ما سأختاره مما اشتملت عليه التراجم التى جلاها لنا فى ثنايا كتابه العظيم . هذا ولست مغالياً ولا مفرطا فيما قدمته من القول ، فإنى وايم الله لم أعد أن قلت الحق ، بل توقيت تجاوز الحد .

وأما كتابه معجم البلدان فهو الدرة اليتيمة والجوهرة المكنونة . يعرفك عن الأماكن والبلاد والجبال والوديان ، ذاكرا المناسبة بين الاسم والمسمى فى كثير مما ذكر ، ضابطاً لك الأسماء بالحروف فيريحك من البحث فى كتب اللغة ، ولو أنه وقف عند هذا لكان من الملل ، ولكن يطرفك بذكر شىء من الشعر يرتبط بالبلاد والأماكن ، ويحدثك عن مكانتها العلية ومبلغ ما تخرج بها من الرجال والعلماء والأدباء والملوك والسلاطين .

وجملة القول أن ياقوتا فى كتابيه هذين يعلمك ويرقق من عاطفتك ويسرك بفكاهاته ويغدق عليك من العلوم المختلفة ، ويرحل بك من بلاد العرب إلى بلاد العراق وفارس وما وراء النهر ، ثم ينتقل بك إلى سوريا وفلسطين ومصر ، ولا يسهو عن بلاد المغرب والأندلس ، فترى فى هذه الممالك حياة الناس فى مدى ستة قرون .

وإن رجلا يكون من آثاره هذان السفران لجدير بأن يكون عظيم النفس كبير العقل رضى الخلق إلى ما شئت من صفات عالية ومكانة سامية .

وإذا ما أردت أن أذكر امرأ فى عالم التاريخ فما أحسن ما أنبه عنه بمثل هذا ، على أنى سأذكر بعض ما مر به من أحوال وصروف وحوادث كان لها أثر فى تكوينه وبلوغه ما بلغ من العظمة

ياقوت : رومى الجنس حموى المولد بغدادى الدار ، ولقبه شهاب الدين ، أسر من بلده صغيرا وبيع ببغداد فاشتراه تاجر يعرف بعسكر بن أبى نصر الحموى ، وكان عسكر تاجرا لا يحسن الكتابة والقراءة ، وهو فى حاجة لكاتب قارىء يقوم على عمله ويضبطه ، فلما ابتاع ياقوتاً عهد به إلى من يعلمه فأتقن القراءة والكتابة ، وتعلم طرفاً من اللغة والإعراب ، وكان كل هذا بذرا حسنا

فى فطرة ياقوت ، إذ علق باللغة وما يرتبط بها ، حتى إنه إذا أرسله سيده فى تجارة لا يترك الفرصة تمر عليه بدون أن يستفيد من البلاد التى يمر بها أو يرسو عليها حتى يتصل بعلمائها وأدبائها ، فيتلقى ويتقن ، ويعى ويفيد كل ما يصل إليه من تاريخ أو أدب ؛ وما زال هذا شأنه حتى كانت نبوة بينه وبين سيده نجم عنها أن أعتقه وتركه ، فعكف ياقوت ينسخ للناس ما يكلف به من الكتب والصحف زمناً ليس بالقصير ، فكانت الوراقة مدرسة له أفادمنها كثيرا من العلوم والفنون . وقد ألحت الحاجة على سيده فدعاه ثانية وكلفه العمل ، فمضى فيه ولم ينس ما عاهد عليه نفسه من الدأب فى العلوم ، وكان بعد ذلك أن مات سيده وهو فى رحلاته التجارية ، فلما جاء بغداد أرضى زوج وأولاد سيده بشىء من مال التجارة ، واحتجز لنفسه قدرا كان رأس ماله ، فرجع إلى الوراقة واتجر فى الكتب ووعى منها كثيرا يخبرك عنه فى أثناء معجم الأدباء

وبقى حياً حتى جاءت دولة التتر تخرب البلاد وتسفك الدماء ، وناله من ذلك كثير ، وضاع من ماله شىء لا يقدر بمال ، من المؤلفات والمصنفات ، وجاء إلى الموصل وانتقل منها إلى سنجار ، ثم حلب ، وأقام بها إلى أن مات سنة ٦٢٦ سنة ست وعشرين وستمائة ، بعد أن عاش حوالى ٥٠ سنة ، فإن مولده سنة ٥٧٥ خمس وسبعين وخمسمائة . رحمه الله .

وبمناسبة معجم الأدباء أقول : ليس ياقوت أول من عمد إلى ذلك النوع من التأليف ، فقد سبقه كثيرون ، مثل : الجهسيارى والسمعانى والصولى وهلال ابن الحسن الصابى ، وقد نبه على هذا ياقوت ، وذكر أن هذه الكتب لا تشفى مريضاً ولا تبل أواما . والحق ما قال ، فإنى اطلعت على شىء من هذه الكتب وعلى ما جاء بعدها فلم أرو من مائها ولم أتبلغ بزادها ولكن الراوى للصدى المشبع النهم هو معجم الأدباء ، وقد جاء بعد ياقوت كتب فى التراجم مثل الوافى بالوفيات للصفدى ووفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر ، وكأنى بها عالة على معجم الأدباء وكثيراً ما تنقل عنه .

وإنى أحدثكم يا سادة أنى لم أكن آلف مثل هذا النوع من الكتب حتى

كلفت بقراءة معجم الأدباء ودعانى هذا التكليف للنظر فى كتب أخرى كالتى ذكرت وفى غيرها فحبب إلى هذا الضرب من التأليف وعلمت أن العلم والفضل ومبعث النور من سواد صحائف هذه الكتب، وإنى لأدعو من لم يمارسها أن يرغم نفسه على مطالعتها فيخرج منها وقد أحس بنفسه وعرف قدرها

ومن أجل هذا أقدم شكرى الجزيل وثنائى المستطاب لحضرة صاحب المعالى وزير المعارف ورجالاتها الكرام إذ كلفونى قراءة التجارب النهائية لمعجم الأدباء.

كما أقدم عرفانى بالجميل للدكتور أحمد بك فريد رفاعى إذ قام بطبع هذا الكتاب بمساعدة وزارة المعارف؛ فجزى الله الجميع عن الأدب والعلم واللغة خير الجزاء

مختارات من معجم الأدباء :

إبرهيم الحربى

ابراهيم بن اسحق بن بشير بن عبد الله بن ديسم، أبو إسحق الحربى، ولد سنة ثمان وتسعين ومائة، ومات ببغداد سنة خمس وثمانين ومائتين فى ذى الحجة ودفن فى بيته فى شارع باب الأنبار، وكان الجمع كثيرا جداً، وأصله من مرو وكان يقول: أمى تغلبية وأخوالى نصارى أكثرهم. وقيل: لم سميت إبراهيم الحربى؟ فقال: صحبت قوماً من الحربية [1] فسمونى الحربى بذلك.

وحدث أحمد بن سليمان القطيعى قال:

أضقت إضاقة شديدة فمضيت إلى إبراهيم الحربى لأبثه ما أنافيه فقال لى: لا يضق صدرك فأن الله من وراء المعونة، وإنى أضقت مرة حتى انتهى أمرى فى الإضاقه إلى عدم عيالى القوت. فقالت لى الزوجة: هب أنى وإياك نصبر فكيف نصنع بهاتين الصبيتين؟ فهات شيئاً من كتبك نبيعه أو نرهنه. فضننت بذلك وقلت: اقترضى لهما شيئاً وأنظرينى بقية اليوم والليلة. وكان لى

(١) الحربية: فى بغداد.

بيت فى دهليز دارى فيه كتبى فكنت أجلس فيه للنسخ والنظر ، فلما كان فى تلك الليلة إذا داق يدق الباب فقلت : من هذا ؟ فقال : رجل من الجيران . فقلت : ادخل . فقال : أطف السراج حتى أدخل ؛ فكببت على السراج شيئاً وقلت : ادخل . فدخل وترك إلى جانبي شيئاً وانصرف ، فكشفت عن السراج ، فنظرت فإذا منديل له قيمة وفيه أنواع من الطعام وكاغد فيه خمسمائة درهم ، فدعوت الزوجة وقلت : نبهى الصبيان حتى يأكلوا . ولما كان من الغد قضينا ديناً كان علينا من تلك الدراهم .

وكان مجيء الحاج من خراسان فجلست على بابى من غد تلك الليلة وإذا جمال يقود جملين عليهما حملان ورقا وهو يسأل عن منزل إبراهيم الحربى فانتهى إلى فقلت : أنا ابراهيم الحربى . فحط الحملين وقال : هذان الحملان أنفذهما لك رجل من أهل خراسان فقلت : من هو ؟ فقال قد استحلفنى ألا أقول لك من هو

وحدث أبو عثمان الرازى قال : جاء رجل من أصحاب المعتضد إلى إبراهيم الحربى بعشرة آلاف درهم من عند المعتضد يسأله عن أمير المؤمنين أن يفرق ذلك فرده وانصرف الرسول ثم عاد فقال : إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرقه فى جيرانك فقال له : عافاك الله ، هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته ، قل لأمير المؤمنين : إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك . وحدث أبو القاسم الجبلى قال : اعتل إبراهيم بن إسحاق علة حتى أشرف على الموت ، فدخلت عليه يوما فقال : يا أبا القاسم أنا فى أمر عظيم مع ابنتى . ثم قال لها : قومى واخرجى إلى عمك . فخرجت وألقت على وجهها خمارها فقال ابراهيم : هذا عمك كلميه . فقالت لى : ياعم نحن فى أمر عظيم لافى الدنيا ولا فى الآخرة الشهر والدهر مالنا طعام إلا كسر يابسة وملح وربما عدمنا الملح ، وبالأمس قد وجه إلينا المعتضد مع بدر بألف دينار فلم يأخذها ووجه إليه فلان وفلان ، فلم يأخذ منها شيئاً وهو عليل فالتفت الحربى إليها وتبسم وقال : يابنية خفت الفقر ؟ فقالت : نعم . فقال لها : انظرى إلى تلك الزاوية ، فنظرت فإذا كتب فقال لها : هناك اثنا عشر ألف جزء لغة وغريب كتبته بخطى إذا مت فوجهى فى كل يوم بجزء تبيعينه بدرهم فمن كان عنده اثنا عشر ألف درهم فليس هو فقيرا .

وحدث إبراهيم الحربى — وقد سألوه عن حديث عباس البقال — فقال: خرجت إلى الكبش، ووزنت لعباس البقال دانقا إلا فلسا فقال لى: يا أبا إسحاق حدثنى حديثا فى السخاء، فلعل الله يشرح صدرى فأعمل شيئا قال: قلت له: نعم. روى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه كان ماراً فى بعض حيطان المدينة فرأى أسود بيده رغيف يأكل لقمة ويطعم الكلب لقمة إلى أن شاطره الرغيف فقال له الحسن: ما حملك على أن شاطرته فلم تغابنه فيه بشىء؟ فقال: استحت عيناى من عينيه أن أغابنه فقال له الحسن: أقسمت عليك لا برحت حتى أعود إليك فمر واشترى الغلام والحائط وجاء إلى الغلام فقال: يا غلام قد اشتريتك فقام قائما فقال: السمع والطاعة لله ولرسوله ولك يا مولاى، قال: وقد اشتريت الحائط وأنت حر لوجه الله تعالى والحائط هبة منى إليك، فقال الغلام: يا مولاى قد وهبت الحائط للذى وهبتنى له. قال إبراهيم: فقال عباس البقال: حسن والله يا أبا إسحاق. يا غلام. لأبى اسحاق دانق إلا فلسا، أعطه بدانق ما يريد ولا تنقصه شيئا فقلت: والله لا أخذت إلا بدانق إلا فلسا.

وحدث محمد بن عبد الله الكاتب قال: كنت يوماً عند المبرد فأنشدنا:

جسمى معى غير أن الروح عندكم ... فالجسم فى غربة والروح فى وطن
فليعجب الناس منى أن لى بدنا ... لا روح فيه ولى روح بلا بدن

ثم قال: ما أظن أن الشعراء قالوا أحسن من هذا. قلت: ولا قول الأخرق؟ قال: هيه. قلت: الذى يقول:

فارقتكم وحييت بعدكم ... ما هكذا كان الذى يجب
فالآن ألقى الناس معتذراً ... من أن أعيش وأنتم غيب

قال: ولا هذا. قلت: ولا قول خالد الكاتب؟:

روحان لى روح تضمنها ... بلد وأخرى حازها بلد
وأظن غائبتى كشاهدتى ... بمكانها: تجد الذى أجد

قال: ولا هذا. قلت: أنت إذا هويت شيئاً ملت إليه ولم تعدل إلى غيره

قال : لا ولكنه الحق . فأتيت ثعلباً فأخبرته فقال ثعلب : ألا أنشدته :

غابوا فصار الجسم من بعدهم ما تنظر العين له فَيّا
بأى وجه أتلقاهم ؟ إذا رأونى بعدهم حيا
يا خجلتى منهم ومن قولهم : ما ضرك الفقد لنا شيا

قال : وأتيت إبراهيم الحربى فأخبرته فقال : ألا أنشدته

يا حيائى ممن أحب إذا ما قلت بعد الفراق : إنى حييت
لو صدقت الهوى حبيبا على الصحة لما نأى لكنت أموت

قال : فرجعت إلى المبرد فقال : أستغفر الله . إلا هذين البيتين يعنى بيتى ابراهيم

قال : وأنشد رجل إبراهيم قول الشاعر :

أنكرت ذلى فأى شىء أحسن من ذلة المحب؟
أليس شوقى وفيض دمعى وضعف جسمى شهود حبى؟

فقال إبراهيم : هؤلاء شهود ثقاة

عبد الخالق عمر



الطائرُ السجينُ

مرفوعة إلى الأستاذ على الجارم بك

للجارم الصغير

أَسْوانُ راضَ السِّجْنُ خَفْضَ جَناحِهِ ... ذَهبتْ حُشاشَتُهُ جوًى بِصِياحِهِ

ترمى الدُّجى صيْحاتُ كُلِّ عَشِيَّةٍ ... بالْبَرْقِ مُضْطَرِمِ السَّنا لَمَّاحِهِ

مَحْرُوقَةَ الرَّمْضاءِ مِنْ أَضْلاعِهِ ... وَوَداعُ قُرْصِ الشَّمْسِ بعْضُ جِراحِهِ

لَا تَسْتَبِينُ الْعَيْنُ فَانِىَ جِسْمِهِ ... لَوْلا بَياضُ الرِّيشِ فَوْقَ وِشَاحِهِ

يَرْمِى الْفَضاءَ بِصَرْخَةٍ مَكْبُوحَةٍ ... حَمَلتْ مَعانِىَ حُزْنِهِ وَبَراحِهِ

يَشْكُو فَيُفْصِحُ عَنْهُ حَتَّى أَنَّهُ ... لم يَبْقَ إِلَّا الْقَوْلُ عَنْ إِفْصَاحِهِ

ضَجَّتْ نُجُومُ الْأُفْقِ مِنْ أَنَّاتِهِ ... وَشَكا صِماخُ اللَّيْلِ طُولَ نُواحِهِ

حَتَّى إِذَا ذَبَحَ الْأَنِينُ لَهاتَهُ ... عَقَدَ الضَّنَى مِنْقارَهُ بِجَناحِهِ

✡ ✡ ✡

هُوَذا أَنا الطَّيْرُ السَّجِينُ مُعَذَّباً ... وَيْلاهُ، مَنْ يَمْنُنْ بِفَكِّ سَراحِهِ ؟

عَلَّمْتُهُ التَّغْرِيدَ أَخْضَرَ نَاشِئاً ... وَرَعَيْتُهُ بِغُدُوِّهِ وَرَواحِهِ

وَنَثَرْتُ خِصْبَ الْحَبِّ فِى أَقْدامِهِ ... وَسَكَبْتُ عَذْبَ الْماءِ فِى أَقْداحِهِ

يَغْشَى الْمُرُوجَ الْفِيحَ يَحْبُو جِيدَهَا ... بِمُنَسَّقٍ مِنْ لَحْنِهِ وَصُدَاحِهِ

يَمْشِى يُنَمْنِمُ ثَوْبَهَا وَيَزِينُهُ ... مَشْىَ الرَّبِيعِ الطَّلْقِ فِى أَفْراحِهِ

وَعَلَى ذَوائِبِ كُلِّ غُصْنٍ عَاطِلٍ ... مُتَأَنِّقٌ مِنْ وَرْدِهِ وَإِقَاحِهِ

مَا بَالُهُ أَمْسَى وَعُفِّرَ وَجْهُهُ . وَلَكُمْ يُدِلُّ بِمُشْرِقٍ وَضَّاحِهِ
وَعَدَاهُ وَضَّاءُ الشَّبَابِ بِشَرْخِهِ حُزْنًا وَغَابَ النُّورُ عَنْ مِصْبَاحِهِ
يجْرِى نَسِيمُ الْعَيْشِ سَهْلًا لَيِّنًا حَوْلِى ، وَحَظِّى مِنْهُ عَصْفُ رِيَاحِهِ
مَالِى نَصِيبِى النَّبْقُ أَجْوَفَ يَابِسًا أَيْنَ الأَنِيقُ الغَضُّ مِنْ تُفَّاحِهِ
مَالِى وَللأَطْفَالِ أَحْمِلُ هَمَّهم كَرَوَانَ يجْمَعُ لَيْلَهُ بِصَبَاحِهِ
أَمْسَيْتُ فِيهِم نِصْفَ مجْنُونٍ وَقَدْ يَشْتَاقُ هَذَا النِّصْفُ فَضْلَ صِحَاحِهِ
وَلَقَدْ شَرِبْتُ الْمُرَّ فِى تَعْلِيمِهِمْ وَالْمَاءُ فِى كَفَّيْكَ شُرْبُ قَرَاحِهِ
أَقْضِى الْحَيَاةَ عَلَى سَفِينٍ حَائِرٍ هُوجُ الرِّيَاحِ تَهُدُّ فِى مَلَّاحِهِ
وَلَكَمْ تَقُولُ لِىَ الْوِزَارَةُ لَا تَنَمْ وَادْفَعْ إِلَى التِّلْمِيذِ صَكَّ نَجَاحِهِ
أَقْضِى الْحَيَاةَ مُرَدِّدًا وَمُكَرِّرًا قَوْلًا تَمَلُّ النَّفْسُ مِنْ إِيضَاحِهِ :
هَذَا (الضَّمِيرُ) وَذَاكَ (جَمْعُ مُكَسَّرٍ) أَعْيَا حَدِيثَ الطِّبِّ عَنْ إِصْلَاحِهِ
وَ(العَائِدُ الْمَحْذُوفُ) وَلَّى جَامِحًا فَانْهَضْ عَلَى عَجَلٍ لِكَبْحِ جِمَاحِهِ
وَيْلَاهُ ، لَا تَضْحَكْ عَلَيْهِ مُغْرِقًا فَالْحُزْنُ يَخْلِطُ جِدَّهُ بِمِزَاحِهِ
هَذِى حَيَاةٌ لَا تَلِيقُ بِوَاثِبٍ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ لَهُ طَمَّاحِهِ
جَيْشٌ مِنَ الْآمَالِ يَزْحَمُ صَدْرَهُ تَدْمَى حَنَايَاهُ لِطَعْنِ رِمَاحِهِ
وَلَقَدْ يَهِيجُ بِصَدْرِهِ فَتَخَالُهُ كَالْبَكْرِ يَهْدِرُ غَاضِبًا بِمَرَاحِهِ
عَجْفَاءُ تَقْتَحِمُ الْعُيُونُ هُزَالَهَا لَمْ تُغْنِ حَرْثَ الْحَقْلِ عَنْ فَلَّاحِهِ
إِنِّى نَزَلْتُ بِهَا مَكَانًا ضَيِّقًا وَالغِمْدُ لَا يَرْضَاهُ غَيْرُ سِلَاحِهِ

وَلَكم لزِمْتُ الصَّبْرَ أَنشُدُ جاهِدًا فرجًا بِهِ أعْيا عَلى مِفْتَاحِهِ
مَنْ ذا يَرَى الشُّعَراءِ فِيهِ مُعِينَهُمْ إنْ ضَنَّ وَالدهم عَلى أَرْوَاحِهِ
فَلأَطْلُبَنَّكَ فِى السَّماءِ مُنَقِّبًا طَلَبَ الْغَرِيمِ تَضِجُّ مِنْ إلْحَاحِهِ
وَلأَرْمِيَنَّكَ بالأنيقِ الغضِّ من زهرِ الرُّبَا لا سُمْرِهِ وصِفَاحِهِ
وَأَقُولُ: شِعرُكَ لَيْسَ يفعلُ مِثْلَهُ ظَبْىُ الشَّراب بلَحْظِهِ وَبِراحِهِ
وَأقُومُ يَوْمَ الحفلِ حفل (إمَارَة الشِّعْـــــر) الخطيبَ عَلى الْجُموعِ بِسَاحِهِ
وَأَصُدُّ عَنْ (مَارُونَ) كُلَّ مُبَايِعٍ وَأَكُونُ لابْنِ (العَاص) لا (جَرَّاحِهِ)
وَأَقُولُ بَيْنَ النَّاسِ: إنكَ شَاعِرٌ يُهْدِى إلَى الطَّاوُوس رقشَ وشاحِهِ
ضَلَّتْ عِتَاقُ (أَبِى عُبَادَةَ) نَقْعَهُ وَتَعثَّرَ (الْقُرَشِىُّ) فِى مِرْمَاحِهِ
يُصْغِى الوُجُودُ إِذَا شَدَا مُتَرَنِّمًا وَيُرَجِّعُ التَّارِيخُ رَجْعَ صُدَاحِهِ
أَلْحَانُ (بِيتُوهُفْنَ) مِنْ أَوْتَارِهِ وَخَيَالُ (رُوفَائِيلَ) مِنْ أَلْوَاحِهِ
كَافَحْتَ فِى مَجْدِ الْعُرُوبَةِ مُخْلِصًا وَالْمَرْءُ يُوزَنُ عَادَةً بكِفَاحِهِ

على شرف الدين
المدرس بدمياط الأميرية

---

* نشرت الصحيفة فى « ديوان الأطفال » من العدد الثالث للسنة الثالثة ص ١٥٢ قطعة شعرية عنوانها (الزهرة) بامضاء عبد المنعم سالم خطأ ، وهى من نظم على شرف الدين ، فنعتذر من هذا الخطأ .

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨١ م — ١٩٣٧ م

فى صباح الاثنين ٢٩ من صفر سنة ١٣٥٦ (١٠ مايو سنة ١٩٣٧) روعت البلاد بفقد عميد من عمداء الأدب العربى ، وأديب من أبلغ من عرفت من أدبائها ، وكاتب فى الطبقة الأولى من كتاب العربية منذ أقدم عصورها ؛ ذلك هو المرحوم المبرور مصطفى صادق الرافعى .

وحق على صحيفة دار العلوم أن تنعى هذا الفقيد العظيم إلى قرائها ؛ فقد انطوى بموت الرافعى عصر من عصور الأدب العربى كان الرافعى أديبه وكاتبه وشاعره ، وهيهات أن يخلفه فيه خلف .

إن الذين يقرءون أدب الرافعى منذ خمس وثلاثين سنة ولم يروه ولم يعرفوه ليعجبون أشد العجب حين يعلمون أن ذلك الشاعر الفحل ، والمنشىء البليغ ، والأديب البارع ، قد مضى وخلف ما خلف للعربية من تراث ولم يجاوز السادسة والخمسين !

أى قوة كانت تحرك هذا الجسد ؟

إنها لمعجزة من معجزات الإيمان هى التى أنشأت هذه القوة فأثرت بها كل هذا التأثير فى هذا الزمن القليل .

كان الرافعى يعيش فى هذه الأمة وكأنه ليس منها ؛ فما أدت له فى حياته واجبا ، ولا اعترفت له بحق ، ولا أقامت معه على رأى ؛ وكأنما اجتمع له هو وحده تراث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة ، فعاش ما عاش ينبهها إلى حقائق وجودها ومقومات قوميتها ، على حين كانت تعيش هى فى أوهام التقليد وخرافات دعوى التجديد .

على أنه هو لم يبال شيئا من ذلك ؛ فقد جعل لنفسه غرضا منذ يومه الأول : أن يكون اللسانَ العربى فى هذه العجمة المستعربة ، وأن يعيد إلى (الجملة القرآنية)

مكانها مما يكتب الكتاب وينشىء الأدباء فى لغة هـذا العصر ؛ ثم أن يكون المدافع الأول عن العربية والإسلام ، يدفع كل ما يوجه إليهما من حملات مستورة أو سافرة ، ومن أجل ذلك عاش حياته ؛ فما يقرأ مقالا أو يسمع رأياً يتناول اللغة أو الدين من قريب أو بعيد ، إلا انتضى قلمه يدافع بحرارة الايمان وفصاحة العربى ، كأن هذا المقال وذاك الرأى يعنيانه هو وحده من دون العرب والمسلمين عامة . وإلى آخر يوم من حياته كان يستجم لمواصلة (حملة التطهير) كما يقول فى خطابه الأخير إلى صديقه الأستاذ الزيات صاحب (الرسالة) .

وكان له - رحمه الله - طابع خاص يتميز به فى الكتابة ، لا يسيغه إلا الخاصة من المتأدبين ، على علوه فى المنزلة البيانية وعُمقه فى توليد الفكرة واختراع المعنى ، ومن هذا كان يكرهه أكثر الأدباء ، وكان جمهور قرائه قليلا محدوداً ، ولكنه مع هذا كان أديباً له أثره وله أشياعه ؛ ذلك أن غرابة أسلوبه كانت تعود إلى عمق فكرته ودقة معانيه وسلامة بيانه من العامية المتفاصحة التى يكتب بها أكثر كتابنا فى هذا العصر ؛ وما فى ذلك شىء يعاب إلا عند الذين يقرءون للتسلية وإزجاء الفراغ ؛ ومن كلماته - رحمه الله - فى ذلك : « إن الأديب الحق هو الذى يحاول أن يرفع قراءه إلى مستواه درجة درجة فيرقى بهم ويرقى بالأدب ، لا الذى يحاول أن ينحط إلى مستواهم درجة درجة فينزل بهم وبالأدب جميعاً » .

رحم الله الرافعى رحمة واسعة ، وعوض العربية منه خيراً ينسيها المصاب فيه

فهرس العـــدد الأول

للســـنة الرابعة